هرمان هيسه

الحكايات الخرافية

ترجمة
أسامة أسبر





الحكايات الخرافية



هيرمان هيسه

الحكايات الخرافية

ترجمة: أسامة اسبر

سلسلة الرواية - ٤

اسم المؤلف: **هيرمان هيسه**

عنوان الكتاب: **الحكايات الخرافية**

ترجمة: **أسامة اسبر**

تصميم الغلاف: **جمال سعيد**

الطبعة الأولى: ١٠٠٠ نسخة /٢٠٠٠

التنضيد الضوئي: **دار نينوى**

الإخراج الفني: **غسّان الناصير**

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص.ب ٧٩١٧ - تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦

تقديم

ليست حكايات هيرمان هيسه خرافية بالمعنى التقليدي للمصطلح، ومع ذلك هي متأصلة في كل من التقليد الغربي والشرقي للحكايات الخرافية. إنها قصص فائقة للعادة، مكتوبة بين ١٩٠٠ و ١٩٣٠، وتعكسُ محاولاته لتجريب كتابة هذا النوع من الحكايات الخرافية، وتحويل حياته كفنان إلى حكاية من هذه الحكايات. إلا أنه فشل في ذلك لأنه لم يستطع أن يحقق الحالة المثالية التي رغب بها، لكن حكاياته نجحت بسبب هذا الفشل بالضبط: إنها حكايات مليئة بالاضطراب الداخلي لكاتب يلعب، بيأس وجدية، بمظاهر نوع أدبي كي يعثر على أثر ما للطمأنينة والانسجام التام.

ولكي نفهم حكايات هيرمان هيسه، يجب أن نعرف أزمة، وشكوك، وأحلام الفنان الشاب في ألمانيا في بداية قرن عاصف. ذلك أن هيسه فهم، مثل كثير من الكتاب الأوروبيين، الأحداث التي جرت حوله - التقدم التكنولوجي السريع، صعود المادية، الحروب العالمية، الثورات، التضخم والأزمات الاقتصادية - كمؤشر على اتدهور الحضارة الغربية. وحاول أن يصارع بوساطة الفن، وخاصة الحكاية الخرافية، التهديد الشرير للعلم والنزعة التجارية.

وبينما استمر الموضوع المهيمن في أعمال هيسه متعلقاً بالفن والفنان، فإن قصصه الخرافية، تكشف عن تبدل من موقعه الأناني إلى احترام مسؤولية الفنان في المجتمع.

وثمة من يرى أن إنجاز هيسه العظيم ككاتب هو في حقل الحكايات الخرافية وأدب الفنتازيا. ولقد كتب حكايته الخرافية الأولى في سن العاشرة، وفترته الأولى المهمة ككاتب من ١٨٩٥- ١٩٠٠ تمثلت بانغماسه في قراءة ومحاكاة كتاب الحكايات الخرافية الأوروبيين والشرقيين. ولقد حقق النجاح الأفضل حين مزج تقاليد مختلفة بتجاربه الشخصية وخصها بنغم رفضٍ غنائي غير عادي، ولم يضاه هيسه أي كاتب في القرن العشرين في الاستفادة من تراث الحكايات الخرافية الغربي والشرقي.

طوّر هيسه في حكاياته الخرافية مفهوم الرفض " الرومانتيكي الحديث"، وهذا مفهوم عبّر عنه الفيلسوف هربرت ماركوز ليشير إلى رفض الفرد الخضوع للقوى الاجتماعية والسياسية التي تميل إلى تحويله إلى أداة وموضوع للتلاعب والتحكم. وأبطال هيسه يرفضون الاستجابة لأعراف الحياة البرجوازية، ونفاق المجتمع الأوروبي الذي أفسدته المادية، إنهم متوحدون، ومتمردون، وشعراء، ومفكرون، ورسامون، وغريبو الأطوار، يجسدون روح تراث إنسانوي تحت الحصار. ولكي يصوّر صراعات أنماط هامشية كهذه تعيش على هامش المجتمع وفي أطرافه، تزيد من استلابها الصناعة والرأسمالية، جرّب هيسه كتابة الحكاية الخرافية. لقد عذّبته القوانين الاجتماعية العشوائية، والمبادئ المانوية القاسية للتراث اليهودي - المسيحي، وهجوم التكنولوجيا.

إن قراءة حكايات هيرمان هيسه الخرافية هو كالدخول في عالم خرافي من الأحلام والرؤى، والفلسفة، والهيام. وهذه المجموعة - الحدث، تحوي اثنتين وعشرين حكاية من أروع ما كتبه هيرمان هيسه في هذا النوع. وهذه الحكايات

المليئة بالحالمين، والباحثين، والأميرات، والشعراء الجوالين، تتحدث مع مكـان مـا في ذاتنـا يلـهمنا بتـوق روحـي عميـق، ويدفعنـا إلى مغـادرة الوطـن، وإلى العـودة المحتمة، وهذا ينطوي على أكبر المتع وأكثر الجراح إيلاماً في قلوبنا.

تتناول هذه الحكايات الخرافية جميع الموضوعات الشائعة في روايات هيسه العظيمـة - سيدهارتا، ذئـب البطـاح، ودميـان - وتعكـس أحداثـاً تتعلـق بحياتـه الشخصية، وتنطوي على الدوافع الصوفية والرومانسية نفسها الـتي تغـني التـألق في أعماله الرئيسية. وفي هذا الكتاب حكايات تسبر مأزق الفنان، الممـزق بـين الدافـع إلى الكمال وإغراءات المتعة والنجاح الاجتماعي.

وفي هذه الحكايات، يستخدم هيسه، بوعي عميق، تقاليد الحكايـات الخرافيـة لكي يحظى بمسافة تبعده عن مشكلاته الشخصية. ولقد عثر على الأشكال الرمزية، والموتيفات المفيـدة لتعميـم تجاربـه ومنحـها معـاني متعـددة عـبر حبكـات تذكـر بالحكايات الرومانسية الشرقية والجرمانية القديمة.

وتكشـف حكايـات هيسـه أنـه كـان مقتنعـاً بـأن قـوى التكنولوجيـا، المسـببة للنزاعات، والقومية، والكليانية، والرأسمالية، ألحقت ضرراً كبيراً بالحريـة الفرديـة والتعايش السلمي. بالتـالي تشـير حكاياتـه الخرافيـة مـراراً وتكـراراً إلى إمكانيـات الرفض الفردي وهدف السلام الداخلي.

تسـجل هــذه الحكايــات رحلـة الكـاتب الفرديـة والصراعـات السياسـية والاجتماعية في أوروبا في تلك الفترة. وهو يفضّل أن يتخلص من حبكات وتقاليد الحكايات الخرافية الكلاسيكية ليجرب الخيال العلمي، الخيـالي والمـروِّع،الواقعيـة الرومانسية، والأحلام، مولـداً شـكله وأسـلوبه الخـاصين والفريديـن. وهنـا، كذلـك،

سلك هيسه طريق الرفض الرومانسي، وفي كثير من حكاياته توق عميق إلى وطـن هو النظير اليوتوبي للأهوال التي نواصلُ رؤيتها في عصرنا الحاضر.

القزم

في مساء أحد الأيام بدأ الراوي العجوز سيكو يروي القصة التالية على رصيف المرفأ -

حسناً أيتها السيدات والسادة، سأروي لكم قصة طويلة جداً عن سيدة جميلة، وقزم، وجرعة حب، عن الإخلاص والخيانة، والحب والموت، وعن كل ما هو في قلب جميع المغامرات والحكايات، سواء أكانت قديمة أم حديثة.

كانت الآنسة مارغريتا كادورين، ابنة النبيل باتيستا كادورين، أجمل امرأة بين نساء البندقية الجميلات في ذلك الوقت. وكانت القصائد والأغاني المهداة إليها أكثر عدداً من النوافذ المشربية الناتئة أو المقوسة للقصور الواقعة على القناة الكبيرة، ومن الزوارق التي تتنقل بين بونتي ديل فين وبنتي ديلا دوغنا في مساء الربيع. مئات من اللوردات الشبان والعجائز من البندقية ومورانو، ومئات آخرون من بادوا، لم يقدروا على الرقاد ليلة واحدة دون أن يحلموا بها، ولم يستطيعوا كذلك أن يستيقظوا في الصباح التالي دون توق إلى لمحة منها.فضلاً عن ذلك، كانت معظم السيدات الشابات الرائعات في المدينة يشعرن بالغيرة من مارغريتا كادورين بين وقت وآخر هذا إذا ما استثنينا قلة منهن. وبما أنه من المستحيل بالنسبة إلي أن أصفها، سأقنع نفسي بالقول بأنها كانت شقراء، طويلة، ونحيلة كشجرة أرز فتية، شعرها يطري الجو، وكعبا قدميها، يطريان الأرض. ولقد قيل إن تيتيان حين رآها رغب أن يمضي سنة كاملة لا يرسم أحداً أو أي شيء سوى هذه المرأة.

أما فيما يتعلق بثيابها فلم ينقص الآنسة الجميلة شيء من المخرمات، والقماش الذهبي البيزنطي المقصّب، والأحجار الكريمة، والمجوهرات. على العكس، كان قصرها غنياً ورائعاً. كان السجاد الشرقي سميكاً وملوناً والخزانات تحتوي على كثير من الآنية الفضية، وتألقت الطاولات بدمقسها الرائع وخزفها المجيد. وكانت أرضيات الغرف مغطاة بالموزاييك الجميل، فيما السقوف والجدران مغطاة بالأنسجة الغوبلينية المصنوعة من القماش المقصّب والحرير، وبلوحات متألقة وجذابة. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك الكثير من الزوارق وسائقيها.

ومن الطبيعي أن توجد جميع هذه الأشياء الثمينة والممتعة في منازل أخرى. فقد كانت هناك قصور أكثر ضخامة وغنى من قصرها، وخزانات أكثر امتلاء، وآنية وسجاد ومجوهرات أعلى ثمناً، ذلك أن البندقية كانت في ذلك الزمن ثرية جداً، لكن الآنسة مارغريتا كانت تملك شيئاً ثميناً أثار حسد كثير من البشر الذين هم أكثر غنى منها. وهذا الشيء الثمين قزمٌ يحمل اسم فيليبو، وهو شخص صغير فنتازي، طوله ثلاث أقدام فحسب وثمة حدبتان على ظهره. ولأنه ولد في قبرص، لم يكن بمقدور فيليبو أن يتحدث سوى اليونانية والسريانية بعد أن أحضرته فيتوريا باتيستا إلى أرض الوطن حين عادت من رحلة قامت بها في أحد الأيام. والآن، على كل حال، يتحدث لهجة فينيسية نقية حتى بدا كأنه ولد في الريفا Riva أو أبرشية سان جيوبي. وبقدر ما كانت سيدته جميلة ونحيلة، كان القزم دميماً جداً. حين تقف إلى جانب شكله المشلول، تظهر طويلة بشكل مضاعف و مهيبة كبرج كنيسة جزيرة إلى جانب كوخ صياد. يدا القزم مليئتان بالتجاعيد، وبنيتان، ومنحنيتان عند المفاصل. طريقته في السير بالغة السخف، أنفه ضخمٌ، قدماه عريضتان وأصابعهما

مرتدة إلى الداخل. ومع ذلك، حين يلبس ثيابه، يسير كأمير موشّح بالحرير والذهب.

وهذا المظهر الخارجي هو الذي جعل القزم شيئاً ثميناً. وربما كان من المستحيل العثور على أي شخص يظهر شكلاً أكثر غرابة وهزلاً، ليس في البندقية فحسب وإنما في إيطاليا كلها وخاصة ميلانو في الوقت نفسه. ومن المؤكد أن أي ملك أو أمير أو دوق سيسرّه أن يدفع ذهباً مقابل الرجل الصغير لو كان معروضاً للبيع.

ومن المحتمل أن يكون هناك أقزام صغار ودميمون، مثل فيليبو، في بلاطات معيّنة أو مدن غنية، لكنه كان يبزهم في قوته الدماغية وموهبته. ولو كان كل شيء يعتمد على الذكاء وحده،لحصل القزم بسهولة على مقعد في مجلس العشرة أو لأصبح سفيراً. ولم يكن يتحدث ثلاث لغات فحسب، وإنما يمتلك معرفة كبيرة بالتاريخ وكان ذكياً في ابتكار الأشياء في الوقت نفسه. وكان موهوباً في رواية القصص القديمة وجيداً في إبداع الجديدة، يعرف كيف يقدُم النصيحة، ويقوم بالخدع، ويجعل البشر يضحكون أو يبكون، إذا رغب بذلك.

في أيام السرور، حين تجلس مارغريتا على شرفتها وتعرّض شعرها الرائع للشمس، كما درجت العادة في ذلك الزمن، كانت ترافقها دوماً خادمتا غرفة نومها، وببغاؤها الأفريقي، وفيليبو القزم. كانت الخادمتان ترشان شعرها بعطر الورد والماء اليوناني، وفيما هما تفعلان ذلك، تخبرانها عن كل ما يحدث أو سيحدث في المدينة: الوفيات، الاحتفالات، حفلات الزفاف، الولادات، السرقات، والحوادث الطريفة. كان الببغاء يرفرف بجناحيه الملونين بشكل جميل ويؤدي خدعه الثلاث:

يصفر أغنية، يثغو كمعزاة، ويصيح:" مساء الخير!" وكان القـزم يجلس هنـاك،تحـت الشمس، ويقرأ كتباً ومخطوطات قديمة، غير مكترث بثرثرة الخادمتين أو بأســراب البعوض. ثم في كل من هاتين المناسبتين، بعـد مـرور بعـض الوقـت، يـهز الطـائر الملوّن رأسه، ويتثاءب، ثم ينام، والخادمتان تثرثران ببطء وتصمتان تدريجياً وتنهيان عملهما الروتيني بهدوء وبإيماءات متعبة، إذ هل هناك مكان تشتد فيه حرارة شمس الظهيرة أو تجعل المرء أكثر نعساً إلا على شرفة قصر فينيسي؟ مـع ذلـك، يتجـهم وجه السيدة وتوبخ الخادمتين بحدة إذا أصبح شعرها جافاً جداً أو خربّتا تسريحته. وأخيراً تحين اللحظة التي تصرخ فيها:" خذا الكتاب منه!"

تأخذ الخادمتان الكتاب عن ركبتي فيليبو، فينظر القـزم نحـو الأعلـى غاضبـاً، لكنه يسيطر على نفسه في الوقت نفسه ويسأل باحترام ما الذي ترغب به سيدته.

فتأمر:" ارو لي قصة!"

عندها يستجيب القزم:" أحتاج أن أفكر لبرهة،" ثم يبدأ تأمله.

أحياناً يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، فتصرخ موبخة. فيهز رأســه الثقيـل والكبـير جداً بالمقارنة مع جسده بهدوء، ويجيب رابط الجأش:" يجـب أن تصـبري قليـلاً لأن القصص الجيدة هي مثل تلك الحيوانـات النبيلـة المتوحشـة الـتي تسـكن في البقـع المخبأة، ويجب أن تقفي دوماً على مدخـل الكـهوف والغابـات وتنتظريـها طويـلاً. دعيني أفكر!"

على أي حال،حين يفكّر مليا ويبدأ برواية قصتــه، يتركـها تتدفـق بنعومـة إلى نهايتها، كنهر يتدفق على منحدر جبل وينعكس فيه كل شيء، من العشـبة الخضـراء الصغيرة إلى قبة السماوات. ينام الببغاء ويحلم، وأحياناً يشـخر بمنقـاره المعقـوف.

والأقنية الصغيرة تستلقي بلا حراك حيث تقف المنازل المنعكسة ثابتة كجدران حقيقية. فيما تخترق حرارة الشمس سطح الشقة وتغالب الخادمتان النعاس يائستين. لكن القزم لا يستسلم للنوم. بدلاً من ذلك، وحالما يعرض فنه، يصبح ملكاً. وبالفعل، كان يطفئ الشمس ويقود سيدته المسمرة في الظلام، وعبر الغابات المرعبة، ثم إلى قاع البحر الأزرق والبارد، وأخيراً عبر شوارع مدن غرائبية وخرافية، ذلك أنه تعلم فنّ القص في الشرق، حيث يُنظر إلى رواة الحكايات باحترام كبير. إنهم فعلاً سحرة ويلعبون بأرواح مستمعيهم كما يلعب الطفل بالكرة.

نادراً ما تبدأ قصصه في بلدان أجنبية، ذلك أن أذهان المستمعين لا تستطيع أن تطير إلى هناك بسهولة واعتماداً على قواها الخاصة. بالأحرى، كان يبدأ دائماً بأمور يستطيع البشر أن يشاهدوها بأم أعينهم سواء كانت مشبكاً ذهبياً أو ثوباً حريرياً.وكان يبدأ دائماً بشيء قريب ومعاصر. ثم يقود خيال سيدته، دون أن تدرك، إلى حيث يشاء، متحدثاً أولاً عن البشر الذين امتلكوا سابقاً بعض المجوهرات الخاصة أو عن صانعي وبائعي المجوهرات. وكانت القصة تعوم بشكل طبيعي وببطء من شرفة القصر إلى زورق التاجر وتندفع من الزورق إلى الميناء فتدخل السفينة ثم تنطلق إلى أبعد بقعة في العالم. ولم يكن يهم من هم المستمعون إليه. سيتخيلون أنفسهم جميعاً بالفعل في هذه الرحلة، وبينما هم يجلسون مرتاحين في البندقية تتجول عقولهم بهدوء أو قلق في بحار بعيدة ومناطق خرافية. بهذه الطريقة كان فيليبو يروي قصصه.

وبغض النظر عن التفضل برواية قصص خرافية معظمها من الشرق، كان أيضاً يقدم تقارير عن مغامرات وأحداث حقيقية من الماضي والحاضر، عن رحلات

ومصائب الملك إينياس، عن سايبرس الغني، والملك جون، والساحر فـيرجيليوس، وعن الرحلات المؤثرة لأميريكو فيزبوتشي. وعلى رأس كل شيء، كـان هـو نفسه يعرف كيف يبتكر القصص الأكثر أهميـة ويرويـها. وفي أحـد الأيـام، بينمـا كـانت سيدته تلقي نظرة مستعجلة على الببغـاء الهـاجع، سـألت:" أخـبرني يـا عـارف كـل شيء، بماذا يحلم ببغائي الآن؟"

فكر القزم لحظة ثم روى حلماً طويلاً وكأنه هـو نفسـه كـان الببغـاء. وحالمـا انتهى، استيقظ الطائر، ثغا كالماعز، ورفرف بجناحيه. في وقت آخر تناولت السـيدة حجراً صغيراً، رمته مـن فـوق درابـزون المصطبـة، في القنـاة، حيـث طرطـش وهـو يضرب الماء، وسألت:" والآن يا فيليبو، إلى أين يذهب حجري؟"

وعلـى الفـور روى القـزم كيـف اندفـع الحجـر في المـاء إلى قنـاديل البحـــر والسرطانات والمحار والأسماك، إلى الصيادين الغارقين والأرواح المائية والعفاريت والحوريـات، الذيـن يعـرف حياتـهم وتجاربـهم بشـكل جيـد ويسـتطيع أن يصفـها بتفصيل دقيق.

ورغم أن الآنسة مارغريتا كانت، مثل كثيرات من النساء الغنيـات والجميـلات، متكبرة وباردة، إلا أنها كانت مولعة جداً بقزمها وأمرت بأن يعامله الجميـع بلطـف وباحترام.مع ذلك، تمر أوقات تستمتع فيها هي نفسها في تعذيبه قليـلاً. في النهايـة، كان ملكاً لها. وكانت تحبسه أحياناً في قفـص ببغائـها، وفي أحيـان أخـرى تجعلـه يمشي باضطراب ويرقص على أرضية صالة ضخمة. وبما أنها لم تكن تفعـل ذلـك بسبب الوضاعة، فإن فيليبو لم يعبّر عن شكوى مطلقاً، ولكنه لم ينـس كذلـك شـيئاً وكان أحياناً يورد تلميحـات صغـيرة، وإشـارات، وعلامـات مدسوسـة في خرافاتـه

وحكاياته عن الجن وكانت سيدته تسمح بها بهدوء. ولم تهتم بأن تغيظه كثيراً، ذلك أن الجميع اعتقدوا أن القزم يمتلك معرفة سرية وقوى ممنوعة. كان البشر متأكدين أنه يعرف كيف يتحدث مع كثير من أنواع الحيوانات وأن تنبؤاته عن الطقس والعواصف صحيحة دائماً. كان يلجأ إلى الصمت في معظم الأحيان، وحين يزعجه الناس بالأسئلة، يهز كتفيه المدبّبين ويحاول أن يهز رأسه المتصلب، فينسى السائلون بسرعة عملهم بسبب الضحك.

وكما يحتاج جميع البشر إلى أن يتعلقوا بروح حية ويظهروا الحب، كان فيليبو متعلقاً كذلك ولكن ليس بكتبه فحسب. إذ كانت تجمعه صداقة غريبة مع كلب أسود صغير ينام معه. ولقد أهداه إلى الآنسة مارغريتا أحد خاطبيها المرفوضين ومنح للقزم في ظروف غير عادية جداً. في اليوم الأول الذي وصل فيه الكلب، حصل له حادث سيئ وضربه باب مسحور مغلق. كُسرت إحدى ساقي الكلب وكان من المفترض أن يُقتل.لكن القزم تدخل لصالحه وتلقاه كهدية . وبعنايته شفي الكلب، فربطته علاقة عميقه مع مخلصه، وذلك بسبب الامتنان الكبير. مع ذلك، بقيت الساق التي شفيت معقوفة وهكذا ظل الكلب يعرج وكان هذا ملائماً لسيده المشوّه. بالتالي، كان على فيليبو أن يسمع نكات كثيرة عن هذا.

ورغم أن هذا الحب بين القزم والكلب بدا سخيفاً لكثير من الناس فلم يكن أقل إخلاصاً ودفئاً رغم كل هذا، وأعتقد أن كثيراً من السادة لم يحبهم أفضل أصدقائهم بعمق كما أحب فيليبو ذلك الكلب الصغير ذا الرجل المحنية، وسماه فيليبينو ثم اختصره إلى الاسم المدلل فينو. ولقد عامل الكلب برقة كأنه طفل، تحدث معه، أحضر له وجبات لذيذة، وغالباً ما كان يلعب معه وقتاً طويلاً.

باختصار، نقل كل حب حياته الفقيرة والمشردة إلى الحيوان الذكي. ولقد سخر منه خدم سيدته كثيراً بسبب الكلب. ولكن كما سترون حالاً، لم تكن تلك العاطفة نحو الكلب سخيفة مطلقاً. وفي الحقيقة، قادت إلى كارثة كبيرة، لم تحل بالكلب والقـزم فحسب وإنما بالمنزل كله أيضاً. وهكذا آمل أنكم لن تتضايقوا من حديثي الطويـل عن هذا الكلبِ الصغير. وكما تعرفون جيداً، فإن الأمور الصغيرة في الحياة غالباً ما تسبب مصائب جسيمة.

ورغـم أن كثيـراً مـن المتمـيزين، والأغنيـاء، وذوي الأناقـة يلقـون نظـرة علـى مارغريتا ويحملون صورها في قلوبهم، إلا أنها بقيت متعجرفـة وبـاردة، وبـدا كـأن الرجال لم يوجدوا. وبـالفعل، ظلّـتْ تُربّـى بطريقـة صارمـة وقاسـية، إلى أن مـاتت أمها،السيدة ماريا من منزل جيوستينياني. فضـلاً عـن ذلـك، ولـدت بطبيعـة متكـبرة معارضة للحب، ونُظر إليها، بشكل مبرر، على أنها ليست أجمل امـرأة في البندقيـة فحسب وإنما أكثرهن قسوة في الوقت نفسه. قُتـل شـاب مـن بـادوا في مبـارزة مـع ضابط من ميلانو بسببها، وحين نُقلَ إليها أن كلمات الميـت الأخـيرة موجهـة إليـها، كان من المستحيل التقاط أدنى تأثر من جبينها الأبيض. كانت تسخر باسـتمرار مـن جميع الأناشيد الموجهة إليها. وحين طلبها خاطبان من أكثر العـائلات احترامـاً في المدينة بشكل رسمي، وتقريباً في الوقت نفسه، أجبرت والدها على رفضـهما، رغـم حقيقة أن والدها كان يفضل أن تتزوج أحد الرجلين. ولقـد نشـأ عـن هـذه القضيـة جدلٌ عائليٌّ مطوّلٌ.

لكـن كلـب الحـب الصغـير المجنّح هـو نـذل مخـادع ولا يحـب أن يخسـر طريدته، وخاصة حين تكون جميلة كهذه. والآن كما نعرف من التجربة، فإن النساء

المتكبرات اللواتي لا يمكن الاقتراب منهن هن بالضبط اللواتي يقعن في الحب بسرعة أكبر وهيام أقوى، تماماً كما يتبع الربيع الأكثر دفئاً وعظمة الشتاء الأكثر قسوة.

هذا ما حدث مع مارغريتا، هامت بفارس وملاح شاب في أثناء احتفال في حدائق مورانيس. كان قد عاد لتوه من الشرق وكان اسمه بالداسار موروسيني. حالاً جذب انتباه مارغريتا، وكان واضحاً أنه نبيل وملكي مثلها. وبينما هي نحيلة وبشرتها فاتحة فقد كان أسمر وقوياً، ويستطيع المرء أن يرى أنه قضى في البحار وفي الخارج وقتاً طويلاً، وكان ميالاً إلى المغامرة. أفكاره تلمع فوق جبينه المسفوع كالبرق وعيناه السوداوان تشعان بتوتر وحدة فوق أنف كأنف النسر.

كان من المستحيل ألا يشاهد مارغريتا، وحالما عرف اسمها، رتّب على الفور طريقة التعرّف عليها وعلى والدها. وبالفعل، كان كل هذا يرشح بكثير من كلمات الإطراء والإيماءات المحترمة. ثم مكث قريباً منها كما سمحت اللياقة حتى نهاية الحفلة، التي استمرت إلى منتصف الليل، وأصغت إلى كلماته بلهفة أكبر مما لو أنها تصغي للإنجيل، حتى ولو كانت موجهة إلى بشر آخرين وليس إليها.

وكما يمكن أن تتصوروا، لقد سُئِلَ بالداسار عن رحلته، وأفعاله، والأخطار المستمرة أكثر مما سئل عن أمور أخرى، وتحدث عنها بلياقة وذوق وهدوء إلى درجة أن الجميع استمتعوا من إصغائهم إليه. وفي الواقع كانت جميع قصصه مخصصة لمستمع واحد فحسب، ولم تترك كلمة واحدة من كلماته تفوتها. وبارتياح كهذا تحدث عن أغرب المغامرات التي جعلت مستمعيه يصدقون أنها حصلت معهم. ولم يضع نفسه كثيراً في الواجهة، كما يفعل الملاحون، وخاصة

الشبان. مرة واحدة فحسب، حين كان يروي عن معركة مع القراصنة الأفارقة، ذكر جرحاً - توضعت ندبته بشكل مائل على كتفه الأيسر - وحبست مارغريتا نَفَسها فيما هي تصغي، مفتونة ومرعوبة في آن.

في نهاية الحفلة رافقها هي ووالدها إلى غندولهما - زورق- كي يودعهما، وبقي واقفاً فترة طويلة، محدقاً إلى مشعل الغندول وهو ينزلق فوق الشراعية السوداء. وحين لم يعد قادراً على رؤية الغندول بشكل كامل، عاد إلى أصدقائه في الحانة، حيث يمضي الفرسان الشبان، وبعض السيدات الجميلات، بقية الليل الدافئ، يشربون النبيذ اليوناني الأصفر والأحمر الحلو. كان بينهم جيامباتيستا جينتاريني، أحد أغنى شبان البندقية، الذي كان يستمتع بحياته بشكل كامل. اقترب من بالداسار، لمس ذراعه، وقال ضاحكاً:كان يحدوني أمل الليلة إلى سماع قصص علاقاتك الغرامية أثناء رحلاتك! والآن ربما ليست هناك فرصة لهذا بما أن الجميلة كادورين سرقت قلبك . ولكن من الأفضل أن تعرف أن هذه السيدة الجميلة مصنوعة من الحجر وليس لها روح. إنها تشبه إحدى لوحات جيورجيوني. ورغم أنك لا تجد أخطاء كثيرة في نسائه، إلا أنهن لسن مصنوعات من اللحم والدم. يوجدن من أجل أعيننا فحسب. أنصحك أن تبتعد عنها - أو هل تحب أن تصبح أضحوكة أسرة كادورين والثالث الذي يُرفض."

رد بالداسار على كلامه بضحكة فحسب ولم يشعر بأنه مجبر على تبرير أفعاله. احتسى كأسين من النبيذ القبرصي الحلو، ذي اللون الزيتي، وذهب إلى المنزل قبل أصدقائه.

في اليوم التالي، وفي الساعة الملائمة، زار العجوز كادورين في قصره الجميل والصغير وحاول قدر استطاعته أن يجعل نفسه مقبولاً وأن يحظى برضا الأب. وفي المساء عزف لمارغريتا مع مغنين وعازفين كثر وحظي ببعض النجاح - وقفت مصغية أمام النافذة وظهرت لبرهة قصيرة على الشرفة. وبشكل طبيعي، بدأت المدينة كلها تتحدث عن الأمر، وعرف العاطلون عن العمل ومحبو الفضائح بالخطوبة ويوم الزفاف المفترض حتى قبل أن يرتدي موروسيني أفضل بذلة لديه ليطلب يد مارغريتا من والدها. وفي الحقيقة، ازدرى عادات ذلك الزمن، وبدلاً من أن يرسل صديقاً أو صديقين ليعرضا موضوعه، ظهر بنفسه أمام والدها.وعلى الفور، استطاع الثرثارون الذين يعرفون دائماً كل شيء، أن يستمتعوا برؤيتهم تحقق تنبؤاتهم.

وحين ذهب بالداسار إلى والد مارغريتا وعبر عن أمنيته كي يصبح صهره، كان كادورين في غاية الإرباك.

قال متوسلاً:" باسم الله الجبار أيها الشاب العزيز، أنا لا أقلل من الشرف الذي يعنيه طلبك لأسرتي. مع ذلك، أتوسل إليك أن تتوقف عن متابعة خططك لأن هذا سيريحك من كثير من الأسى والإزعاج. كنت بعيداً عن البندقية وقتاً طويلاً بسبب رحلاتك ولذلك لا تعرف كم من المشكلات التي سببتها لي هذه الفتاة سيئة الحظ. لقد رفضت لتوها طلبين مشرفين دون أي سبب واضح. فهي لا تأبه بالحب والرجال وأعترف أنني أفسدتها نوعاً ما وأنا ضعيفٌ جداً ولا أستطيع أن أكون قاسياً معها وألزمها بما لا تريد.

أصغى بالداسار باحترام، لكنه لم يسحب طلبه. على العكس، عانى من آلام كبيرة وهو يحاول أن يهدئ العجوز القلق وينقله إلى مزاج رائق. أخيراً وعد السيد كادورين أن يحدث ابنته بالأمر.

بوسعكم أن تتصوروا كيف استجابت السيدة. وكي تتأكد أثارت بعض الاعتراضات الثانوية ولبست مظهر تكبّر أمام والدها، ولكنها وافقت في قلبها حتى قبل أن تُسأل. وحالما تلقى جوابها، ظهر بالداسار محضراً هدية جميلة وثمينة، وضع خاتم الخطوبة الذهبي في إصبع خطيبته، وقبل شفتيها الجميلتين المتكبرتين للمرة الأولى.

والآن أصبح لدى أهل البندقية شيء ما ينظرون إليه، ويتحدثون عنه، ويحسدونه. لم يقدر أحد أن يتذكر أنه رأى هذين العروسين الرائعين. كانا طويلين ولهما أصابع رائعة. ولا تكاد الشابة تنقصه طولاً مقدار شعرة. كانت شقراء وكان أسود الشعر وكان كلاهما يرفع رأسه عالياً وبحرية، ويستطيع أن ينافس أفضل البشر في النبالة والجمال.

لكن شيئاً ما لم يسر العروس الرائعة، وحصل هذا حين قال لها بالداسار إنه سيسافر حالاً إلى قبرص لينهي عملاً مهماً. وسيتم الزفاف حين يعود. كانت المدينة كلها تتطلع مسبقاً إلى الزفاف وكأنه احتفال عام. في غضون ذلك استمتع الخطيبان بسعادتهما دون كثير من الإزعاج. ولم يفقد بالداسار فرصة كي ينظم لها الأحداث، ويقدم لها الهدايا، ويعزف لها، ويفاجئها، وكان يمضي معها من الوقت قدر المستطاع. ولقد قاما سوية برحلات غير محتشمة في غندول مغطى، رغم أن هذا كان ممنوعاً بصرامة.

وإذا كانت مارغريتا متعجرفة وقاسية قليلاً، فلم يكن هذا مفاجئاً وذلك لأنها سيدة أرستقراطية شابة ومدللة. وعلى أي حال كان خطيبها مثلها، فقد كان متكبراً ولم يعتد أن يكون مراعياً لمشاعر الآخرين. ولم يسهم عمله كتاجر بحري ونجاحه المبكر في الحياة في جعله لطيفاً.ورغم أنه خطب مارغريتا بصعوبة وظهر كشاب سعيد ورزين، إلا أن شخصيته الحقيقية وطموحاته خرجت إلى السطح بعد أن حصل على هدفه. إنه مندفع ومتغطرس بشكل طبيعي، كونه ملاحاً وتاجراً غنياً معتاداً على تلبية رغباته دون أن يأبه بالبشر الآخرين. من البداية وجد أن كثيراً من الأشياء التي تحيط بعروسه منفرة، وخاصة الببغاء، والكلب الصغير فينو،والقزم فيليبو. وكلما شاهد هؤلاء الثلاثة يتضايق ويفعل أي شيء كي يعذبهم أو يبعدهم عن السيدة. وكان يمكن سماع صوته على الدرج اللولبي، فينبح الكلب الصغير ويهرب، ويصرخ الببغاء ويرفرف بجناحيه. أما القزم فينسحب ويبقى هادئاً بعناد. وكي أكون عادلاً، يجب أن أقول إن مارغريتا استخدمت كثيراً من الكلمات الجيدة، إن لم يكن للحيوانين فهي بالتأكيد موجهة إلى فيليبو، وفي بعض الأحيان تحاول أن تنتقد عاشقها كي تدافع عن القزم المسكين. وبالطبع، لم تجرؤ على انتقاد عاشقها ولم تستطع أن تمنع كثيراً من الأفعال التعذيبية والقاسية.

انتهت حياة الببغاء بسرعة. في أحد الأيام، وبينما كان السيد موروسيني يعذّبه ناقراً إياه بعصاه الصغيرة، نقر الطائر الغاضب يده بمنقاره القوي والحاد إلى أن نزف إصبعه. فما كان من السيد موروسيني إلا أن خنق الطائر ورماه في قناة ضيقة ومظلمة في خلفية المنزل، ولم يندبه أحد.

حالاً بعد هذا، لم تتحسن الأمور كثيراً بالنسبة للكلب الصغير فينو. كلما دخل العريس منزل مارغريتا كان الكلب يختبئ في زاوية مظلمة من الدرج، كما تعلم أن يختفي عن الأنظار حين يسمع صوت خطوات الرجل. ولكن في إحدى المرات – ربما حين نسي بالداسار شيئاً ما في غندوله ولم يثق بأي من خدمه كي يحضرها له – استدار على قمة الدرج وهبط عائداً بشكل غير متوقع. نبح فينو الخائف بصوت مرتفع من المفاجأة وقفز حواليه خائفاً ومهتاجاً حتى كاد أن يسبب سقوط السيد بالداسار. تعثر بالداسار ووصل إلى أرضية الممر في الوقت الذي وصل فيه الكلب، وبما أن الكلب الخائف زحف إلى المدخل، حيث تقود بعض الدرجات الحجرية العريضة إلى القناة، رفسه بالداسار رفسة عنيفة مع بعض اللعنات الحادة. ونتيجة لذلك رمي الكلب بعيداً في الماء.

في هذه اللحظة تماماً ظهر القزم على المدخل. كان قد سمع نباح فينو وأنينه، ووقف قرب بالداسار الذي نظر ضاحكاً بينما كان الكلب الصغير الأعرج يحاول السباحة. وفي الوقت نفسه خرجت مارغريتا إلى شرفة الطابق الأول لتستطلع الضجة.

ناداها فيليبو مقطوع النفس:" أرسلي الغندول ليحضره كرمى لله!مري بإحضاره يا سيدة على الفور! سيغرق! آه فينو، فينو!"

لكن بالداسار ضحك وأمر سائق الغندول الذي كان على وشك فكه أن يتوقف. مرة أخرى استدار فيليبو إلى سيدته كي يتوسل إليها، لكن مارغريتا تركت الشرفة تماماً في تلك اللحظة دون أن تتفوه بكلمة. وهكذا ركع القزم أمام معذبه وتوسل إليه أن ينقذ الكلب. رفض السيد وابتعد عنه.ثم أمر القزم بقسوة أن يعود

إلى المنزل. وهو نفسه بقي على درجات الغندول إلى أن غاص فينو الصغير واللاهث تحت الماء.

تسلق فيليبو إلى الطابق العلوي تحت السقف حيث جلس في زاوية ماسكاً رأسه الضخم بيديه وحدق أمامه مباشرة. جاءت الخادمة المسؤولة عن غرف النوم لتستدعيه إلى السيدة وكان يتبعها خادم. لكن القزم لم يتحرك. بعد وقت، مساء، بينما كان لا يزال يجلس هناك، تسلقت سيدته بنفسها وثمة مصباح في يدها. وقفت أمامه ونظرت إليه برهة.

" لماذا لا تنهض؟" – سألت في النهاية. لم يجبها. فكررت السؤال.

عندئذ نظر إليها الرجل الصغير القزم وقال:" لماذا قتلت كلبي؟"

حاولت أن تبرر موقفها:" لستُ من فعل ذلك."

قال القزم متهماً:" كان بوسعك إنقاذه، لكنك تركتيه يموت.آه يا عزيزي! آه يا فينو! آه يا فينو!"

استاءت مارغريتا وأمرته، فاقدة صبرها أن ينهض ويذهب إلى النوم. أطاع أمرها دون أن يتفوه بكلمة وبقي صامتاً طيلة ثلاثة أيام كرجل ميت. نادراً ما تناول وجباته ولم ينتبه إلى أي شيء يحدث أو يقال حوله.

في أثناء تلك الأيام كانت السيدة مستاءة جداً، ذلك أنها سمعت من مصادر مختلفة أموراً معيّنة عن خطيبها أزعجتها بلا حدود. لقد قيل إن السيد موروسيني كان مغازلاً مريعاً في رحلاته ولديه العديد من الخليلات في جزيرة قبرص وأماكن أخرى. وبما أن هذه هي الحقيقة، امتلأت مارغريتا بالشكوك والمخاوف وتأملت رحلة بالداسار القادمة بتنهدات مرّة. وفي النهاية لم تعد تستطيع التحمل. في صباح

أحد الأيام، وحين كان بالداسار في منزلها، قالت له كل ما تعرفه ولم تخبئ أياً من مخاوفها.

ابتسم وقال:" ما قالوه لك يا سيدتي الأكثر جمالاً وقيمة، يمكن أن يكون كاذباً جزئياً، لكن معظمه صحيح. الحب مثل الموجة. يأتي، يرتفع إلى الأعلى، ويكنسنا بعيداً دون أن نقدر على مقاومته. مع ذلك، أنا أعي بشكل كامل ما أنا مدين به لعروسي وابنة منزل نبيل كهذا. بالتالي لا داعي للقلق. لقد رأيت الكثير من النساء الجميلات وأحببت الكثيرات، لكنني لم أر مثيلاً لك."

ولأن سحراً انبعث من قوته وجرأته، هدأت، وابتسمت، وداعبت يده البنية الصلبة. ولكن حالما غادر، عادت جميع مخاوفها لكي تسكنها. بالنتيجة، بدأت تلك السيدة المتعجرفة والمغرورة تجرب الألم السري والمذل للحب والغيرة وفي كل ليلة كانت تستلقي مستيقظة غير قادرة على النوم تحت أغطيتها الحريرية.

ولجأت، في محنتها، مرة أخرى إلى قزمها فيليبو، الذي كان في غضون ذلك قد استعاد هدوءه وتصرف كأنه نسي الموت المشين لكلبه الصغير. كان يجلس على الشرفة كما فعل من قبل، يقرأ الكتب أو يروي الحكايات، بينما كانت مارغريتا تبيّض شعرها تحت الشمس. ومرة واحدة وحسب تذكرت تلك الحادثة، وحدث هذا حين سألته لماذا دفن عميقاً في أفكاره، فأجابها بصوت غريب:" ليبارك الله هذا المنزل يا سيدتي الكريمة، ذلك أنني سأغادر المنزل حالاً إما ميتاً أو حياً."

- لماذا؟ - قالت.

عندئذ هز كتفيه بطريقته السخيفة وقال:" أحس بذلك يا سيدتي. لقد ذهب الطائر وذهب الكلب فما سبب بقاء القزم هنا؟"

وبسبب ما قاله منعته من أن يتحدث بهذه الطريقة، ولم يتكلم عن الأمر مرة أخرى. بالفعل، اقتنعت السيدة أنه لم يعد يفكر بالأمر،فمنحته ثقتها الكاملة من جديد. وكلما تحدثت معه عن ما يشغلها، كان يدافع عن السيد بالداسار ولم يكشف بأية طريقة أنه يحمل أي شيء ضد الفارس الشاب. بالتالي استعاد القزم صداقة سيدته الكاملة.

في مساء يوم صيفي، وفيما كانت ريحٌ باردة تندفع من البحر، صعدت مارغريتا إلى غندولها مع القزم وجدفت بنفسها في البحر المفتوح. وحين اقترب الغندول من مورانو، كانت المدينة تسبح كصورة حلم بيضاء في المسافة، على البحيرة الناعمة والمتلألئة. أمرت فيليبو أن يروي حكاية بينما كانت متمددة على الوسادة السوداء. جلس القزم قبالتها في قاع الغندول، ظهره مدار نحو الانحناء المرتفع للقارب. كانت الشمس معلقة على حافة الجبال البعيدة التي لا تكاد ترى عبر الضباب الوردي. بدأت بعض الأجراس ترن في جزيرة مورانو. وقائد الزورق، المخدر من الحرارة ونصف النائم، كان يحرك دفته ببلادة، ومع الدفة، كان شكله المنحني منعكساً في الماء المليء بأعشاب البحر. أحياناً كان يمر قربهم مركب شحن، أو زورق صيد بشراع مثلث الشكل ومسنّن، يخبئ بين لحظة ولحظة أبراج المدينة البعيدة.

أمرته مارغريتا:" ارو لي حكاية." أحنى فيليبو رأسه الثقيل، ولعب بالأهداب الذهبية لمعطفه الحريري، فكر لبرهة، وروى الحكاية التالية:

" حين كان يعيش والدي في القسطنطينية، قبل وقت طويل من ولادتي، جرب أمراً بالغ الأهمية وفائقاً للعادة. كان في ذلك الوقت طبيباً ممارساً ومستشاراً في

حالات صعبة، بما أنه تعلّم علم الطب والسحر من فارسي كان يعيش في "سميرنا"، وحصَّل معرفة كبيرة في الحقلين. كان والدي رجلاً شريفاً ولم يعتمد على الخداع أو المداهنة وإنما اعتمد على فنه. مما جعله يعاني من حسد وافتراء كثير من المخادعين والمشعوذين. وهكذا تابع توقه إلى فرصة للعودة إلى وطنه. من ناحية أخرى، لم يكن والدي يريد أن يسافر إلى الوطن حتى يجمع، على الأقل، ثروة صغيرة، ذلك أنه كان يعرف أن أسرته وأقرباءه يعانون من البؤس في الوطن.ورغم أنه شاهد كثيراً من المخادعين وأطباء غير أكفاء أثروا دون جهد، لم يحالفه الحظ. بالتالي، ازداد قنوطه وتخلى تقريباً عن أمل إنجاز النجاح دون خداع الناس. ورغم أن كثيراً من الزبائن كانوا يجيئون إليه، وساعد مئات البشر في مواقف بالغة الصعوبة،ومعظمهم من الفقراء والمتواضعين، كان يشعر بالعار إذا قبل أكثر من أعطية صغيرة منهم مقابل خدماته.

" ونتيجة لتلك الورطة، قرر والدي أن من الأفضل له مغادرة المدينة. وخطط أن يغادر سيراً على الأقدام، دون نقود، أو أن يعرض خدماته على ظهر سفينة. قرر أن ينتظر شهراً آخر لأنه، ومن دراسته للخرائط الفلكية، بدا ممكناً أن يصادف حظاً ما في تلك الفترة الزمنية. لكن الشهر مر دون أن يحصل أي شي يجلب الحظ. وهكذا في اليوم الأخير جمع، بحزن، ممتلكاته التافهة واستعد لكي يغادر في صباح اليوم التالي.

" وفي مساء اليوم الأخير تجول جيئة وذهاباً على الشاطئ خارج المدينة، وبوسعك أن تتخيلي كم كانت أفكاره كئيبة. كانت الشمس قد غربت منذ مدة والنجوم نشرت ضوءها الأبيض فوق البحر الهادئ.

" فجأة سمع والدي نشيجاً حزيناً قربه. نظر حواليه، وبما أنه لم يستطع أن يرى أحداً دب فيه الهلع، واعتقد أن هذا نذير شؤم متعلق بسفره. حين تكرر الأنين بصوت أعلى تشجّع ونادى، "من هناك"؟ على الفور سمع طرطشة على ضفة البحر، وحين استدار إلى تلك الجهة، شاهد شكلاً متألقاً يستلقي هناك تحت الوميض الشاحب للنجوم. ظن أن هذا شخصاً ناجياً من حطام سفينة، فذهب لكي يساعده لكنه شاهد، مندهشاً، حورية نحيلة جمالها لا يضاهى، بيضاء كالثلج،تخرج نصف جسمها من الماء. من يستطيع أن يصف دهشته حين تحدثت إليه الحورية بصوت فيه توسل." ألست الساحر اليوناني الذي يعيش في الزقاق الأصفر؟"

أجابها بطريقة ودودة:"هذا أنا. ماذا تريدين مني؟"

"بدأت الحورية الشابة تئن مرة أخرى، مادة ذراعيها الجميلتين، متوسلة إلى والدي وهي تبكي أن يشفق عليها ويحضر لها جرعة حب قوية لأن رغبتها العبثية بعشيقها تصيب منها مقتلاً. نظرت إليه بعينين جميلتين، متوسلتين وحزينتين، فتأثر قلبه، وقرر عندئذ أن يساعدها. وقبل أن يفعل أي شيء، سألها كيف تنوي أن تكافئه، ووعدته بعقد من اللآلئ طويل تستطيع المرأة أن تلفه على عنقها ثماني مرات. لكنه قالت له إنه لن يحصل على ذلك الكنز إلى أن يؤدي سحره عمله.

" لم يقلق والدي، لأنه كان متأكداً من قوة فنه. عاد إلى المدينة مسرعاً، فتح صرته الملفوفة بأناقة، وأعد جرعة الحب المرغوبة بسرعة وعاد في منتصف الليل إلى ضفة البحر، حيث كانت تنتظره الحورية. سلمها حُقاً صغيراً يحتوي على السائل الثمين فشكرته مظهرة عواطف حارة وطلبت منه أن يعود إلى البقعة نفسها في الليلة التالية لكي يحصل على المكافأة الثمينة التي وعدته بها.

" ذهب وأمضى الليلة واليوم التالي في توقع كبير. ورغم أنه لم يمتلك أدنى شك بقوة وفعالية جرعته، إلا أنه لم يكن متأكداً إن كان يستطيع أن يثق بكلمات الحورية. حين خيم الليل انطلق إلى المكان نفسه والأفكار ذاتها تدور في رأسه. وما إن انتظر بعض الوقت حتى ظهرت الحورية من الأمواج القريبة. لكن الرعب هيمن على أبي حين شاهد ما ساعد على فعله بفنه. وبينما كانت تقترب مبتسمة ومدت إليه عقد اللؤلؤ الثقيل بيدها اليمنى، شاهد جثة شاب في غاية الجمال في يدها اليسرى. وعرف من ملابسه أن الرجل بحار يوناني. كان في وجهه شحوب الموت، وخصلات شعره تسبح في الموج. داعبته الحورية برقة وهزهزته بين ذراعيها كأنه طفلٌ صغير.

" حالما شاهد أبي ذلك، أطلق صرخة عالية ولعن نفسه وفنه، فيما الحورية غاصت فجأة في الماء مع عشيقها. استلقى عقد اللؤلؤ على الرمال، وبما أنه لم يستطع أن يمنع الأذى الذي سببه، التقطه وحمله تحت معطفه إلى مسكنه، حيث انتزع اللآلئ كي يبيعها واحدة واحدة. وفي الوقت الذي غادر فيه إلى قبرص على ظهر سفينة، كان لديه الكثير من المال واعتقد أنه ليس عليه أن يقلق مطلقاً من البؤس مرة أخرى، لكن دم رجل بريء صبغ النقود وهذا سبب له مصائب متلاحقة. وبالفعل، سرقت ممتلكاته العواصف والقراصنة ولم يصل إلى وطنه إلا بعد عامين كشحاذ ناج من حطام سفينة."

في أثناء روايته للقصة أصغت سيدة القزم بانتباه. وحين انتهى فيليبو وصمتَ لم تتفوه بكلمة واحدة وبقيت مستغرقة بعمق في أفكارها إلى أن توقف قائد الغندول وانتظر أمر العودة إلى المنزل. وفجأة قفزت، وكأنها أجفلت من حلم،

وأشارت لموجِّه الغندول أن يعود. وبينما هي تسدل الستائر لتخبىء نفسها، غيرت الدفة اتجاههم بسرعة، وطار الغندول كشحرور نحو المدينة. كان القزم لا يزال جالساً على الأرضية وينظر بهدوء وجدية فوق البحيرة المظلمة وكأنه يفكر بقصة أخرى جديدة. وصلوا حالاً إلى المدينة، وأسرع الغندول نحو المنزل عبر الريو بانادا والقنوات الأخرى الصغيرة.

في تلك الليلة وجدت مارغريتا صعوبة في النوم. ذلك أن القصة عن جرعة الحب زودتها بالفكرة - تماماً كما تخيّل القزم - وفكرت بأن تستخدم الوسائل نفسها لتأسر قلب الخطيب بشكل كامل وتضمن حبه. وفي اليوم التالي بدأت تحدث فيليبو في الأمر مداورة. سألته، بفضول، جميع أنواع الأسئلة عن كيفية إعداد جرعة الحب تلك، رغم أن تحضير مكوناتها السرية لم يعد معروفاً كما كان شائعاً. سألته إن كانت الجرعة تحوي سوائل سامة ومؤذية وإذا كان طعمها واضحاً بحيث يشتبه الشارب بالأمر. أجاب فيليبو الذكي على جميع الأسئلة بلامبالاة واضحة وتصرف كأنه لم يلاحظ أي شيء عن الرغبات السرية لسيدته، وهكذا كان عليها أن تتحدث بوضوح عن رغباتها وفي النهاية سألته دون مداورة إن كان هناك أحد في البندقية قادر على تحضير جرعة كهذه.

ثم ضحك القزم قائلاً:" أنت لا تثقين بقدراتي كثيراً إذا كنت تظنين أنني لم أتعلم خطوات السحر الابتدائية البسيطة كهذه من أبي، الذي كان حكيماً عظيماً."

صرخت السيدة بسعادة:"هل فعلاً تستطيع تحضير جرعة حب كهذه؟".

أجاب فيليبو:" إنها سهلة، ولكنني لا أفهم لماذا تحتاجين إلى فني فيما جميع رغباتك محققة وتملكين خطيباً هو من أغنى الرجال وأكثرهم أناقة."

لكن السيدة الجميلة تابعت إلحاحها، واضطر في النهايــة إلى تحضـير جرعـة في زجاجـة صغـيرة وهـو يتظـاهر بالمقاومـة. منحـت القـزم نقـوداً ليحصـل علـى الأعشاب الضرورية والمكونات السرية، ووعدته بهدية ثمينة إذا نجح الأمر.

أنهى تحضيراته بعد يومين وحمل الجرعة السـحرية في زجاجـة صغـيرة إلى طاولة سيدته. وبما أن السيد بالداسار سيغادر في القريب العاجل إلى قبرص، كـانت القضية مستعجلة. وهكذا حين اقترح بالداسار على زوجتــه رحلـة متعـة سـرية في أحد الأيام التالية - لم يقم أحد بنزهة بسبب الحرارة في هذا الوقت من العام - بـدا لمارغريتا، وكذلك للقزم، أن هذا هو الوقت المناسب لاختبار الجرعة.

حـين وصـل غنـدول بالداسـار في الوقـت المحـدد إلى بوابـة المـنزل، كـــانت مارغريتا تقف جاهزة ومعها فيليبو الذي يحمل زجاجة نبيذ وسلة مـن الـدراق إلى الزورق، وبعد أن صعدت سيدته والسيد بالداسـار، صعـد ليـأخذ مكانـه علـى مـتن الغندول وجلس عند قدمي سائقه. لم يرتح بالداسار لرفقة فيليبـو لكنـه كبـح نفسـه ولم يقل شيئاً. وفكر أنه مـن الأفضـل أن يستسـلم لرغبـات حبيبتـه في تلـك الأيـام الأخيرة قبل سفره.

اندفع سائق الغندول وأسدل بالداسار الستائر وتعشى مع عروســه في الكبـين. كان القزم يجلس هادئاً في مؤخرة الغندول وينظر إلى منازل دي باراردي الطويلـة والمعتمة فيما كان قائد الغنـدول يبحـر إلى أن وصـل إلى البحـيرة في نهايـة القنـاة الكبرى عند قصر جيوستينياني القديم، حيث كانت لا تزال هناك حديقة صغيرة في تلك الأيام. واليوم ينتصب هناك قصر باروزي الجميل كما يعرف الجميع.

أحياناً كان يصدر عن الكبين ضحك مكتوم، أو صدى قبلة ناعمة، أو جزء من الحديث. ولم يكن فيليبو فضولياً فقد كان ينظر فوق المياه نحو الريفا المشمسة، ثم إلى البرج النحيل لسان جيورجيو ماجيوري، ووراءً إلى عمود" بيازيلتا" الذي يجلس عليه أسد. أحياناً ترف عينه على قائد الغندول الذي يعمل بجهد أو يضرب الماء بعود عثر عليه في قاع الغندول. كان وجهه دميماً وفاقد الحس كما هو دوماً، ولم يكشف أي شيء عن أفكاره. كان يفكر آنذاك بكلبه فينو الذي غرق وبالببغاء المخنوق. وتبين له أن الدمار قريب دائماً من جميع المخلوقات، والحيوانات والبشر كذلك، وأدرك أنه ليس هناك شيء نستطيع أن نتنبأ به أو نعرفه بشكل مؤكد في هذا العالم سوى الموت. فكر بوالده ووطنه وحياته كلها. أصبح وجهه موبخاً للحظة حين فكر أن الحكماء يخدمون المغفلين في جميع الأمكنة تقريباً وأن حياة معظم البشر تشبه ملهاة سيئة. ابتسم وهو ينظر إلى ملابسه الحريرية الثمينة.

وبينما كان يجلس هناك هادئاً، حدث كل ما كان ينتظره وقتاً طويلاً. صدح صوت بالداسار من تحت سقف الغندول وبعد ذلك صاحت مارغريتا:" أين وضعت النبيذ والكأس يا فيليبو؟"

كان السيد بالداسار ظامئاً، وحان الوقت لكي يحضر له الجرعة مع النبيذ وهكذا فتح القزم قارورته الزرقاء الصغيرة، صب السائل في كوب، ثم ملأه بالنبيذ الأحمر. أزاحت مارغريتا الستائر وقدم القزم لسيدته الدراق وللعريس النبيذ. رمت عليه نظرة تساؤلية أو اثنتين وبدت منفعلة.

رفع السيد بالداسار الكوب إلى فمه، لكنه ألقى نظرة على القزم الذي كان يقف أمامه وفجأة اشتبه بالأمر.

صاح: « انتظر ثانية. إن الأنذال من أمثالك يجب ألا يوثق بهم مطلقاً. قبل أن أشرب أريدك أن تتذوق النبيذ أولاً».

لم يغير فيليبو تعابيره وقال باحترام: « النبيذ جيداً».

لكن بالداسار بقي شكوكاً وسأل بغضب: « حسناً لماذا لا تشربه إذن؟»

أجاب القزم: « سامحني يا سيدي ولكنني لستُ معتاداً على تناول النبيذ».

«حسناً، آمرك. لن أشرب قطرة من هذا النبيذ حتى تتناول بعضه».

ابتسم فيليبو: « لا داعي للقلق» انحنى، أخذ الكأس من يد بالداسار، شرب جرعة وأعاده إليه. نظر بالداسار إليه، ثم شرب بقية الخمرة بجرعة واحدة.

كان الجو حاراً. وتلألأت البحيرة بوميض يعمي. ومرة أخرى لجأ العاشقان إلى ظل الستائر، بينما جلس القزم على جنبه في قاع الغندول، حرك يده فوق جبينه العريض، وأجفل كأنه يعاني من ألم. كان يعرف أنه سيموت بعد ساعة. كان الشراب سماً. هيمن إحساس غريب على روحه، التي كانت قريبة جداً من بوابة الموت. نظر خلفه إلى المدينة وتذكر الأفكار التي شغلت ذهنه منذ وهلة. وبصمت حدق فوق سطح الماء المتلألئ وتأمل حياته. كانت رتيبة وهزيلة - رجل حكيم في خدمة الحمقى، يا لها من ملهاة تافهة! وحين أحس أن نبض قلبه فقد انتظامه وجبينه تغطى بالعرق، بدأ يضحك بمرارة.

لم ينتبه أحد. كان قائد الغندول يقف هناك نصف نائم ووراء الستائر كانت مارغريتا الجميلة مرعوبة وقلقة، لأن بالداسار مرض فجأة وبرد. وحالاً مات بين

ذراعيها، واندفعت خارجة من الكبين بصرخة ألم عاليـة. كـان قزمـها يسـتلقي ميتـاً على الأرضية وكأنه ينام في ثيابه الحريرية الرائعة.

هكذا انتقم فيليبو لمقتل كلبه الصغير. وصدمت عودة الغندول بالميتين البندقية كلها.

فقدت الآنسة مارغريتا عقلها وعاشت سنوات كثيرة. أحياناً كانت تجلس على درابزون شرفتها وتنادي جميع الغندولات التي تمر: « أنقذوه! أنقذوا الكلب! أنقذوا فينو الصغير!» كان الجميع يعرفونها، وعلى أي حال، لم يعرها أحد انتباهه.

لعب الظلال

كانت واجهة القلعة العريضة مبنية من حجر خفيف، ونوافذها الضخمة تطل على مستنقعات نهر الراين، وعلى مشهد طبيعي من الماء، والخيزران، والمروج، متألق ويكثر هبوب النسيم عليه،بعيد جداً،وتطل كذلك على الجبال الزرقاء الأكثر بعداً. كانت سلسلة الجبال هذه تشكل قوساً رقيقاً متأرجحاً يتبعه ممر الغيوم، ولا يستطيع المرء أن يشاهد القلاع الخفيفة ومنازل المزارع التي تشع صغيرة وبيضاء في الجبال البعيدة إلا حين تهب رياح دافئة. وكانت مقدمة القلعة منعكسة في المياه التي تتدفق برفق، مزهوة وراضية كفتاة شابة. وكانت شجيراتها التزيينية الكثيرة تجعل أغصاناً خضراء متألقة تتعلق في الماء، وعلى طول السور تهتز الزوارق بسبب التيار. لكن الجانب الهادئ والمشمس من القلعة لم يكن مسكوناً. ومنذ اختفاء البارونة، فرغت الغرف، عدا أصغرهن،التي كان يقطنها الشاعر فلوريبيرت. ألحقت سيدة القلعة العار بزوجها وبهذه القلعة، ولم يبقَ شيء الآن من حاشيتها الضخمة والمرحة سوى زوارق المتعة البيضاء والشاعر الصامت.

وبعد أن حلت هذه المصيبة بالبارون، انتقل إلى مؤخرة القلعة. وكان هناك برجٌ كبير منفصل يبز الساحة الضيقة. الجدران مظلمة ورطبة، والنوافذ ضيقة ومنخفضة. وتماماً إلى جانب الساحة المظللة هناك الحديقة الكئيبة التي تحوي عدداً كبيراً من أشجار البلوط، والحور، والبتولا.

كان الشاعر يعيش في الجانب المشمس من القلعة هادئاً في عزلته. يتناول وجباته في المطبخ وتوقف عن رؤية البارون أياماً في الفترة الأخيرة.

" إننا نعيش في هذه القلعة كالظلال" - قال لصديق قديم زاره مرة، وتحمل غرف المنزل المهجور الموحشة وغير المرحبة يوماً واحداً فحسب. ولقد كتب فلوريبيرت عن رفقة البارونة قصصاً وقصائد غزل. وبعد انحلال الحاشية المرحة ، بقي هناك،دون أن يسأله أحد، لأن روحه البسيطة خافت من الطرق القاسية للعالم والصراع من أجل الخبز أكثر مما خافت من الوحدة في القلعة المحزونة. ومر وقتٌ طويلٌ منذ أن كتب أية قصائد. ولا يفكر بقصائد طويلة إلا حين تهب الريح الغربية، ويشاهد الدائرة البعيدة للجبال الزرقاء، وقطيع السحب فوق الجدول والخيزران الأصفر، ويسمع الأشجار الطويلة تتمايل مساء في حديقة البلوط. وهذه القصائد، على أي حال، لا تحتوي على كلمات ولا يمكن أن تُكتب مطلقاً. دعيت إحداها " نَفَس الله" وتتعلق بالريح الجنوبية الدافئة، وأخرى " عزاء الروح" وتتحدث عن مروج الربيع الملونة. ولم يستطع فلوريبيرت أن يغني أو يلقي هذه القصائد لأنها كانت دون كلمات، لكنه كان يحلم بها ويشعر بها أحياناً، وخاصة في المساء. وأحياناً كان يمضي معظم أيامه في القرية ، حيث يلعب مع الأطفال الصغار ذوي الشعر الخفيف ويضحك النساء الشابات والفتيات ناقراً قبعته لهن وكأنهن سيدات أرستقراطيات. كانت أسعد أيامه تلك التي التقى فيها بالسيدة أغنيس، السيدة الجميلة أغنيس، السيدة الشهيرة أغنيس، التي تملك الوجه النحيل لفتاة. كان يحييها بانحناء عميق، فتهز السيدة الجميلة رأسها وتضحك، تنظر إلى عينيه المرتبكتين، وتتحرك وهناك ابتسامة على وجهها كشعاع شمسي.

كانت السيدة أغنيس تعيش في المنزل الوحيد الذي يحف بحديقة القلعة المهملة. وكان سابقاً مسكناً للفرسان الذين خدموا بارونات الأسرة المختلفين. ولقد تلقى والد السيدة أغنيس الذي كان يعمل خبير حراجة ، تلقى المنزل كهدية من والد البارون الحالي بسبب خدمة أداها له. تزوجت السيدة أغنيس وهي صغيرة وعادت إلى المنزل أرملة شابة،وعاشت، بعد موت والدها،وحيدة في المنزل المعزول مع خادمة وعمة عمياء.

كانت السيدة أغنيس ترتدي ثياباً بسيطة لكنها جديدة وجميلة مصنوعة من ألوان ناعمة. كان وجهها ضيقاً كوجه فتاة شابة، وشعرها البني الأسود يستلقي في ضفائر ملتفة حول رأسها الرائع. وقع البارون في حبها حتى قبل أن ينبذ زوجته شاعراً بالعار، والآن أحبها ثانية. كان يقابلها صباحاً في الغابات ويقودها مساء في الزورق عبر الجدول إلى كوخ مصنوع من الخيزران في المستنقعات، حيث يستلقي وجهها الفتي المبتسم على لحيته، التي شابت مبكراً، فيما أصابعها الرقيقة تلعب بيده الصلبة والمخيفة كيد صياد.

كانت السيدة أغنيس تذهب إلى الكنيسة في كل عطلة وتتصدق على الفقراء. تزور النساء العجائز الفقيرات في القرية، تمنحهن أحذية، تمشط شعر أحفادهن، تساعدهن في الخياطة، وتترك الوهج الناعم لقديسة شابة خلفها في أكواخهم حين تغادر. رغب جميع الرجال بالسيدة أغنيس، وكل من يسرها ويأتي في الساعة المحددة يضمن لنفسه قبلة على شفتيه بعد تقبيل اليد، وكل من يكون محظوظاً كفاية ويكون أنيقاً يمكن حتى أن يتجرأ ويتسلق داخلاً من نافذتها في الليل.

كان الجميع يعرفون هذا، ومع ذلك كانت السيدة الجميلة تمضي في طريقها مبتسمة وعلى وجهها نظرة بريئة لفتاة لا يمكن أن تلمسها رغبات الرجال. أحياناً يظهر عاشق جديد يواظب في تودده إليها كحسناء لا يمكن الظفر بها، وينغمس في كبرياء سعيدة لدى الظفر بها، ويذهل حين يبتسم الرجال الآخرون فحسب ولا يظهرون حسداً.

كان منزلها الهادئ يقع على حافة الحديقة المظلمة، مغطى بالورد المتعرش، ومعزولاً، كالذي تحدث فيه قصص الجن في الغابات، وكانت تعيش هناك كوردة في صباح صيفي وثمة توهج نقيٌّ على وجهها الطفولي، ضفائر شعرها السميكة مربوطة في إكليل حول رأسها النبيل. باركتها العجائز الفقيرات وقبلت يديها، يحييها الرجال منحنين ثم يبتسمون ابتسامة متكلفة فيما بعد، أما الأطفال فيركضون إليها، يتوسلون ويجعلونها تداعب خدودهم.

« لماذا أنت هكذا؟» كان البارون يسألها أحياناً ويهددها بعينين متوسلتين.

« وهل تمتلك حقاً شرعياً بي؟» - كانت تسأله، مندهشة، وهي تضفر شعرها البني العميق.

كان الشاعر فلوريبيرت متيماً بها أكثر من جميع الرجال الآخرين. حين يشاهدها، يقفز قلبه. وحين يسمع عنها كلاماً سيئاً، يصبح جزعاً، يهز رأسه، ويرفض تصديقه.

وحين يتحدث عنها الأطفال، يتوهج ويصغي وكأنه يسمع أغنية. ويزوره الخيال الأكثر جمالاً كلما حلم بالسيدة أغنيس - ثم يدنو من كل ما يحبه ويعتبره جميلاً - الريح الغربية والأفق الأزرق وجميع مروج الربيع المضيئة. تخيلها محاطة

بجميع هذه الأشياء ولقد وضع توقه كله والحماسة التافهة لحياته الصبيانية التي لا فائدة منها في تلك الصورة.

في مساء صيفي باكر، بعد أن هدأ كل شيء فترة طويلة، دبت حياة جديدة في القلعة. نفخ بوق في الساحة. اندفعت عربة وتوقفت بقعقعة. جاء شقيق البارون في زيارة، مع خادم واحد. كان رجلاً ضخماً وأنيقاً له لحية مدببة وعينا جندي غاضبتان. وفي أثناء زيارته كان يسبح في مياه نهر الراين المندفعة، يطلق النار على النوارس من أجل المتعة، يقوم بجولات عدة إلى المدينة القريبة، ويأتي إلى المنزل ثملاً. كان يضايق الشاعر الجيد أحياناً ويثير مجادلات صاخبة مع شقيقة كل بضعة أيام. وبالفعل، كان يقدم له النصيحة عن ألف شيء. مثلاً، اقترح تجديدات وإضافات جديدة للقلعة وزكى تغييرات وتحسينات. بالطبع، كان سهلاً جداً عليه أن يتحدث، ذلك أنه كان غنياً، بفضل زواجه، بينما كان شقيقه البارون فقيراً ولم يواجه سوى المصائب والمشاكل.

كانت زيارة الشقيق إلى القلعة نزوة، ولقد ندم على ذلك في الأسبوع الأول. مع ذلك، بقي ولم يقل شيئاً عن الرحيل، رغم أن البارون لا يهمه ذلك. وحدث أن شاهد شقيقه السيدة أغنيس وبدأ يطاردها.

ولم يمض وقت طويل حتى أحضرت الخادمة للسيدة الجميلة أغنيس فستاناً جديداً، أرسله زائر القلعة كهدية. ثم بدأت الخادمة تأخذ الرسائل والأزهار من خادم الزائر، قرب حائط الحديقة. وبعد مرور بضعة أيام، قابل الزائر السيدة أغنيس في كوخ في الغابة ظهراً في يوم صيفي وقبل يدها وفمها الصغير وعنقها الأبيض.

وحين تذهب إلى القرية، ويقابلها هناك، كان ينزع قبعة الركوب ويحييها. بدورهـا، كانت تنحني له كفتاة في السابعة عشرة.

في مساء أحد الأيام، وبعد ذلك بوقت قصير، حين كان الزائر وحيداً عند النهر شاهد زورقاً يبحر عبر النهر يحمل مجذفاً وامرأة متوهجـة. ما لم يستطع الرجل الفضولي أن يميزه بشكل مؤكد في الغسق أصبح أكثر وضوحاً ثم عرف أكثر مما يريد أن يعرفه. المرأة التي ضمها بهيام بين ذراعيه ظهراً في الغابة والتي أضاءها بقبله، كانت المرأة نفسها التي تبحر مساءً مع شقيقه في الراين المظلم وتختفي معه خلف شاطئ الخيزران.

اكتأب ورأى أحلاماً كريهة. لم يطارد السيدة أغنيس ويمارس معها الحب كأنه يصطاد لعبة مغرية، وإنما عاملها كاكتشاف ثمين. ومع كل قبلة كان يندهش وتغمره المتعة من أن براءة رقيقة كهذه خضعت لتودده. ولهذا منحها أكثر مما منح النساء الأخريات. ردت إليه شبابه، ولقد عانق السيدة أغنيس بامتنان، واحترام، ورقة - المرأة نفسها التي كانت تعبر ممرات مظلمة مع أخيه في الليل. عض لحيته، وتوهجت عيناه بلهب الغضب.

دون أن يمسه الحدث والتوتر اللامرئي المتصاعد في القلعة، تابع الشاعر فلوريبيرت قضاء أيامه في سلام وهدوء. لم يُسر من مضايقة الزائر له، رغم أنه كان معتاداً على سلوك كهذا من زيارات سابقة. وهكذا تجنب شقيق البارون، وأمضى أياماً كاملة في القرية أو مع صيادي الأسماك على ضفتي الراين، وانغمس في خيالات جوالة في المساءات العطرية الدافئة.

وفي صباح أحد الأيام لاحظ فلوريبيرت أن أزهار الشاي الأولى بـدأت تتفتح على حائط القلعة. في فصـول الصيـف الثلاثـة السـابقة وضـع البراعم الأولى لهـذه الورود النادرة على عتبة منزل السيدة أغنيس، وهو الآن سـعيد لأنـه سيحضر إليـها هذه التحية المحتشمة والغفل للمرة الرابعة.

وفي ظهر اليوم نفسه التقى شقيق البارون بالسيدة الجميلة في غابـة البتـولا. لم يسألها أين تقضي أمسـياتها. نظـر في عينيـها الـبريئتين والهـادئتين مندهشـاً. كـانت تقريباً قاسية، وقبل أن يبتعد، قال: سـأجيء إليـك هـذا المسـاء حـين يحـل الظـلام. اتركي النافذة مفتوحة!"

قالت بهدوء:" ليس الليلة! ليس الليلة!"

" لكنني أريد ذلك."

" في وقت آخر، ليس الليلة. لا أستطيع."

" أنا قادم الليلة - الليلة أو لن آتي أبداً. افعلي ما تريدين."

حررت نفسها من عناقه وتركته.

في الليل انتظر الزائر قرب النهر إلى أن حل الظلام. لكن لم يـأت قـارب. ثـم ذهب إلى منزل عشيقته، اختبأ في الأدغال، وحمل بندقيته على ركبتيه.

كان الجو هادئاً ودافئاً وفاحت رائحة عذبة من الياسمين. وملأت السماء نفسها بأنجم صغيرة وضعيفة خلف غيوم مندفعة صغيرة وبيضاء. كان طائر يغـني عميقـاً في الحديقة، في عزلته.

وحين حلت ظلمة مطبقة، جاء رجل يخطـو بـهدوء عنـد زاويـة المـنزل، كأنـه يزحف. قبعته مشدودة فوق جبينه، رغم أن شدة الظلام توضح أنه ليس بحاجة إليها.

ويحمل في يده اليمنى باقة من الـورود البيضـاء فيـها توهـج ضعيـف. الزائـر الـذي يكمن منتظراً، سدد إليه بدقة ووضع يده على زناد بندقيته.

الرجل الذي وصل لتوه نظر إلى المنزل فلم ير مصابيح مضاءة. ثم ذهــب إلى الباب، انحنى، وقبل المقبض الحديدي.

في تلك اللحظة دوّى في الحديقة صوت انفجـار لهـب وتـردّد صـدى بـاهت. سـقط الرجـل الـذي كـان يحمـل الـورود علـى ركبتيـه، وارتمـى إلى الخلـف علـى الحصى، واستلقى هناك مرتعشاً.

انتظر مطلق النار في مخبئه، لكن لم يأت أحد، وكان المنزل هادئاً في الداخل. ثم تحرك بحذر إلى الباب وانحنى فوق الرجل الذي أطلق عليه النار. كـانت القبعـة قد سقطت عن وجهه، ودهش شقيق البارون وانزعج حـين اكتشـف أنـه فلوريبـيرت الشاعر.

قال و هو يبتعد: "هو، أيضاً"!

تبعثرت أزهار الشاي على الأرض، وتبللت إحداها بدم الميت. أمـا في القريـة فقد دقت الساعة معلنة الوقت. وغطت السماء نفسها بسحب بيضاء أكثر كثافة، وإزاء هذه الخلفية كان برج القلعة الضخم يمتد كعملاق واقـف استيقظ لتـوه مـن النـوم. وغنت مياه نهر الراين بنعومة في تيارات بطيئة، وفي داخـل الحديقـة المظلمـة غنـى الطائر المنعزل وتابع الغناء إلى ما بعد منتصف الليل.

رجل اسمه زيغلر

كان هناك مرة شاب اسمه زيغلر يعيش في شارع برويـر. كـان أحـد أولئـك الشبان الذين نصادفهم أكثر من مرة يومياً، لكننا لا نلاحظ مطلقاً وجهـه لأنـه يشـبه أوجه الجميع، كمثل وجه جماعي.

وكان زيغلر يقوم بكل ما يقوم به هـؤلاء البشـر عـادة وهـو مثلـهم تمامـاً. لا يخلو من موهبة، لكنه بلا موهبة كذلك. إنه يحب المـال والتسـلية وارتـداء ملابس أنيقة، وهو جبـان مثـل معظـم البشـر. ولـم تكـن الدوافـع والتطلعـات تحـدد حياتـه وأفعاله بقدر ما تحددها الممنوعات والخوف من العقوبة. وكان يمتلك، في الوقـت نفسه، الكثير من المواصفات المشرفة،وإذا نظرنا في جميع الأمـور سـنجد أنـه كـان رجلاً سوياً مبهجاً ويظن نفسه ظريفاً جداً وهاماً. وبالفعل، كان ينظر إلى نفسه، كما يميل الجميع إلى النظر إلى أنفسهم، كشخص فريـد، بينمـا كـان بـالفعل نموذجيـاً. اعتقد أن حياته وقدره هما في مركز انتباه العالم، كما يفعل الجميع. وكانت تعتريـه شكوكٌ قليلة جداً، وحين تناقض الحقائق وجهات نظـره في الحيـاة، يغمـض عينيـه دون أن يوافق.

وكرجل حديث، امتلك زيغلر احتراماً لانـهائياً للنقـود ولتلـك القـوة الجبـارة كذلك - العلم. مع ذلك، لم يكن قادراً أن يقول ما هو العلـم. حـين يفكـر بـالعلم، يعني شيئاً كعلم الإحصاء وعلم الجراثيم. ويعرف كم مـن المـال والتقديـر منحـت الحكومة للعلم. أحب أبحاث السرطان بخاصة، ذلـك لأن والـدة مـات مـن مـرض

عضال، وافترض زيغلر أن هذا العلم، الذي كان قد أحـرز تقدمـاً كبيراً، لـن يسـمح بحدوث الشيء نفسه له.

في مظهره، حاول زيغلر أن يميز نفسـه ويصـرف علـى الثيـاب مـا هـو فـوق طاقته، ودائماً يجاري موضة العام. من ناحية أخرى، كان ينظر باستعلاء إلى موضة الشهر أو الفصل، ذلك أنـها ستفرض الكثير من الضرائب علـى جيبـه إذا أراد أن يجاريها، وهكذا نظر إليـها علـى أنـها تكلُّف أحمق. كـان يبـدي احترامـاً عظيمـاً للاستقامة ولم يخجل من لعن مديريه أو الحكومات - ولكن فقـط بـين الأصدقـاء وفي أمكنة يشعر فيها بالأمان. وبالفعل، يبدو كأنني أصـرف الكثير من الوقـت في وصفه. كان زيغلر حقاً شاباً فاتناً، وضياعه ضيـاعٌ لنـا. ولقـد جـاءت نهايتـه مبكـراً وبطريقة غريبة دمرت جميع خططه وآماله المستقبلية.

حالما وصل إلى مدينتنا قرر أن يمتع نفسه ويمضي يوم أحد كاملاً في نزهة من نوع ما. ولم يكن قد عثر بعد على رفاق لنزهته، ولم ينضم إلى ناد، لأنـه وجـد صعوبة في الوصول إلى قرار حول ما يناسبه. وليـس من الجيـد للرجـل أن يكـون وحيداً.

وهكذا لم يكن أمامه خيار سـوى أن يرتـاد الأمـاكن الـتي تستحق المشـاهدة بنفسه، وتحقق باجتهاد عن ما يستحق المشاهدة في المدينة. وبعد تدبر حريص قرر أن يزور متحف التاريخ وحديقة الحيوانات. كان الدخول إلى المتحف مجانياً صباح كل أحد، ولحديقة الحيوانات سعر مخفض بعد الظهر.

مرتدياً ملابسه الجديدة الخاصة بـالتجول مـع لفـاع كـان يحبـه كثيراً، ذهـب زيغلر إلى متحف التاريخ في صباح الأحد. أحضر معه عكـازه النحيـل والرشـيق -

عصا مربعة، مدهونة بالأحمر جعلته يبدو مميزاً ومهماً. ولقد أرعبه أن الحارس منعه من إدخال العصا إلى غرف المتحف، وأجبره على تركها في الخزانة.

كانت هناك كمية كبيرة للمشاهدة في الغرف الضخمة ذات السقف المرتفع، ولقد مدح الزائر الورع بوقار القوة الكلية للبحث الأكاديمي، التي كانت ميزاته معروضة هنا كذلك، كما أدرك زيغلر من المعلومات المطبوعة في علب العرض. ولقد حول ذلك الوصف، فعلاً، الخردة القديمة مثل المفاتيح الصدئة، والعقود النحاسية المكسورة، وأشياء أخرى، إلى مواد ممتعة تثير الدهشة. كان من الرائع مشاهدة كيف اعتنى العلم بكل هذا، كيف عرف أن يتحكم بكل شيء - آه، نعم، سيعثر بالتأكيد على علاج للسرطان حالاً وربما يقضي على الموت.

وعثر في الغرفة الثانية على علبة زجاجية تقدم نوافذها انعكاساً قوياً مكّنه من أن يفحص بذلته، وقصة شعره، وياقته، وطياته، وربطة عنقه بعناية ورضى لدقيقة كاملة. والآن يستطيع أن يأخذ نفساً عميقاً من الارتياح ويتابع تقديم الثناء للحطابين. اعتقد أنهم كانوا أشخاصاً منتجين جداً، رغم سذاجتهم. نظر إلى ساعة قديمة منتصبة بقدمين من العاج فيها أشكال ترقص دقيقة حين تدق الساعة ومنحها استحسانه. وفي الحال بدأت القضية كلها تضجره نوعاً ما. تثاءب وكان غالباً ما يخرج ساعته الجيبية، التي يستطيع بالتأكيد أن يقوم بعرضها. كانت ساعة ورثها من والده ومصنوعة من الذهب الثقيل.

لاحظ نادماً أن هناك الكثير من الوقت قبل الغداء فدخل إلى غرفة أخرى نجحت في إثارة وإعادة أسر فضوله. كانت تحوي أشياء قروسطية خرافية، وكتباً عن السحر، وتمائم، وأزياء ساحرات. وفي إحدى الزوايا مشغل سيميائي كامل فيه

خلٍّ، وهاون، وأنابيب اختبار، ومثانة خنزير مجففة، ومنفاخان، ومواد أخرى كثيرة. الزاوية مفصولة بحبل صوفي وهناك لافتة تشير إلى أن لمس تلك المواد ممنوع. ولم يقرأ الناس تلك اللافتات بانتباه كبير، على أي حال،وكان زيغلر وحيداً في الغرفة.

وهكذا وضع زيغلر يده فوق الحبل دون تفكير ولمس بعض الأشياء الغريبة. كان قد سمع وقرأ الكثير عن العصور الوسطى والخرافات الغريبة التي ساد الإيمان بها في ذلك الوقت. لم يقدر أن يفهم كيف كان بوسع الناس في تلك الحقبة أن يهتموا بأمور صبيانية كهذه ولماذا لم تحظر الساحرات وجميع تلك الأمور الجنونية. من ناحية أخرى، يمكن بالتأكيد أن تُعذر السيمياء، لأنها أدت إلى نشوء الكيمياء، التي أصبحت مفيدة جداً. يا إلهي، لو فكر المرء بالأمر، فربما كانت بوتقة صانع الذهب وكل الخردة السحرية ضرورية. وإلا لما كنا حصلنا على الأسبرين وقنابل الغاز اليوم!

ودون أن يفكر بما كان يفعله، أخذ زيغلر كرة صغيرة كحبة دواء، بيده. كانت مجففة ودون وزن. أدارها بين أصابعه، وبينما كان على وشك أن يعيدها إلى مكانها، سمع وقع خطوات خلفه. شعر زيغلر بالخجل لأنه يحمل الكرة ذلك أنه قرأ، دون شك، اللافتة التي منعت ذلك. وهكذا أطبق يده، وضعها في جيبه، وغادر الغرفة.

وما إن وصل إلى الشارع حتى تذكر أن الكرة لا تزال معه. أخرجها وفكر برميها بعيداً. ولكن قبل أن يفعل ذلك، رفعها إلى أنفه وشمّها. ورغم أنها امتلكت رائحة ضعيفة كالقار أمتعته، أعاد الكرة الصغيرة إلى جيبه.

وبعد ذلك على الفور اتجه إلى مطعم، طلب شيئاً يأكله، قلب بعض الصحف، عدّل ربطة عنقه، واسترق النظر إلى ضيوف آخرين، أحياناً باحترام، وأحياناً بكياسة ولطف، وذلك حسب طريقتهم في الملبس. وبما أن الوجبة تستغرق بعض الوقت، أخرج زيغلر كرة السيميائي التي سرقها دون قصد وشمّها. ثم خدشها بظفر سبابته. وأخيراً استسلم لرغبة طفولية ووضعها في فمه. خلال ثوان بدأت تذوب، وبما أن الطعم لم يكن يخلو من طيبة بلعها مع جرعة من البيرة. بعد ذلك تماماً أحضر له الخادم وجبته.

في الساعة الثانية قفز الشاب من عربة الترولي، ذهب إلى مدخل حديقة الحيوانات، واشترى بطاقة ليوم الأحد. دخل إلى منزل القردة وثمة ابتسامة ودودة على محيّاه ووقف أمام قفص شمبانزي كبير. رفت عينا القرد، هز له رأسه بفكاهة جيدة، ونطق الكلمات التالية بصوت عميق:" كيف الحال يا أخي العزيز؟"

ابتعد الزائر بسرعة نافراً ومرعوباً وسمع القرد يلعنه وهو يغادر.

" لا يزال هذا الشخص مغروراً! أيها الأبله! الأمسح القدمين!"

أسرع زيغلر إلى القردة ذات الأذيال الطويلة، التي كانت ترقص وتصرخ بانطلاق:" أعطنا بعض السكر أيها الرفيق!" ولكن بما أنه لا يحمل معه سكراً، غضبوا، سخروا منه، دعوه شيطاناً مسكيناً، وكشروا عن أسنانهم. لم يتحمل زيغلر ذلك. مذهولاً ومشوشاً، هرب من منزل القردة واتجه إلى قسم الموظ [1] والأيائل التي توقع أن يكون سلوكها أفضل بكثير.

---

[1] - حيوان ضخم من حيوانات أميركة الشمالية شبيه بالإلكة. - المورد.

نظر أيّلٌ ضخم ورائع يقف قرب السياج إلى الزائر. شعر زيغلر بالرعب، ذلك أنه منذ أن ابتلع الحبة السحرية بدأ يفهم لغة الحيوانات. وحدث الأمر نفسه مع الأيل الذي تحدث بعينيه - عينان بنيتان كبيرتان. عبرت نظرته الصامتة عن جلال وندب، وأظهر للزائر كيف يحتقره بشكل مريع وكم كان متفوقاً عليه. بالفعل، قرأ زيغلر في النظرة الملكية الصامتة للأيّل أنه لم يكن شيئاً سوى تراب، ووحش سخيف مقرف حتى بقبعته، وعصاه، وساعة جيبه، وبذلة يوم الأحد.

هرب زيغلر من الأيّل وذهب إلى الماعز الجبلي. ومن هناك إلى الشمواة[١] ، إلى اللامة، إلى النو[٢]، إلى الخنازير البرية، وإلى الدببة. لم يحقّره أي من هذه الحيوانات، لكنها أظهرت ازدراءها. أصغى إليها وتعلم من حديثها رأيها بالكائن البشري. كان مريعاً ما تفكر به. كانت مندهشة بشكل خاص، من بين جميع الأمور، أن يسمح لهذه المخلوقات الدميمة، المتعفنة، المنعدمة القيمة، ذات الرجلين، أن تتحرك بحرية في أقنعتها المنافية للطبيعة والعقل.

سمع حديثاً بين كوجر وجروه مليئاً بالكرامة والحكمة الموضوعية نادراً ما يُسمع بين البشر. سمع نمراً أنيقاً يعلق على مجموعة من زوار الأحد، وكان مختصراً ودقيقاً في كلامه الذي نطقه بطريقة أرستقراطية. نظر إلى عيني الأسد بشكل مباشر وعرف كم كان العالم البري ضخماً ورائعاً حيث لا توجد أقفاص أو كائنات بشرية. شاهد صقراً يقف على غصن ذاو، حزيناً ومتكبراً، في كآبة بليدة، وشاهد طيور أبي زريق تتحمل أسرها بكرامة، وهز كتفين، وفكاهة.

---

[١] - حيوان مجتر من الظباء.

[٢] -ثيتل أفريقي ذو رأس كرأس الثور، وقرنين معقوفين وذيل طويل.

يائساً، ومذهولاً وممزقاً من جميع طرقه العادية في التفكير، استدار زيغلر مرة أخرى إلى البشر. بحث عن نظرة تظهر فهماً لحالته وقلقه. أصغى للمحادثات وحاول أن يلتقط بعض الكلمات المعزّية، شيئاً قابلاً للفهم، شيئاً يكون جيداً له. لاحظ سلوك الزوار العديدين في حديقة الحيوانات،وحاول أن يحدد علامات كرامتهم، وشخصيتهم، ونبلهم، وتفوقهم.لكن أمله خاب. سمع أصواتهم وكلماتهم، وشاهد حركاتهم، وإيماءاتهم، ونظراتهم، وبما أنه شاهد كل شيء عبر عيني حيوان، لم يجد شيئاً سوى مجتمع من الكائنات دميم، كاذب ومدع بدا كأنه مزيج من الوحوش المختلفة الأنماط مناف للعقل والطبيعة.

تجول زيغلر باهتياج شديد، شاعراً بالعار من نفسه. كان قد رمى منذ مدة طويلة عصاه المربعة في الأدغال، وتبعها قفازاه. ولكن حين رمى قبعته، ونزع بوطه، ومزق ربطة عنقه، وضغط نفسه وهو يبكي على سياج إسطبل الأيّل، سبّب ضجة كبيرة، فوضع تحت الوصاية، وأخيراً نُقل إلى مشفى المجانين.

المدينة

نحن نتحرك إلى الأمام!" - قال المهندس بعد أن وصل القطار الثاني، مكتظاً بالركاب، والفحم،والأدوات، على السكك الجديدة التي نُصبت البارحة. توهجت المروج الباهتة في ضوء الشمس الأصفر وانتصبت الغابات الجبلية المرتفعة في ضباب الأفق الأزرق. وكانت كلاب برية وجواميس مدهوشة تراقب فيما بدأ النشاط الصاخب المندفع في البقعة المهجورة، وظهرت نتف الفحم والرماد والورق والقصدير في البلاد العذراء. زعقت الطائرة الأولى في البلاد المرعوبة. وطّنت طلقة البندقية الأولى وتردد صداها في الجبال. وسمع صوت السندان الأول بترديد عال من الضرب السريع للمطرقة. وانتصب منزلٌ مصنوعٌ من القصدير، وفي اليوم التالي ظهر آخر مصنوع من الخشب، وتبعته بيوت أخرى، وفي كل يوم كانت تبنى بيوت جديدة، ثم بنيت بيوت حجرية كذلك في الحال. بقيت الكلاب البرية والجواميس بعيداً. روِّضتْ المنطقة وأصبحت خصبة. وفي الربيع الأول كان هناك حقول خضراء مترامية ومثمرة. وأنشئت المزارع، والإسطبلات، والأهراء وشُقَّتْ الشوارع في البراري.

أنهيت سكة الحديد وافتتحت وتبعها البناء الحكومي والمصرف. ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى ترعرعت مدن شقيقة في الجوار. وجاء العمال، والمزارعون، وسكان المدن من جميع أنحاء العالم. وجاء رجال أعمال ومحامون وواعظون ومدرسون كذلك. أسست مدرسة، وثلاث جماعات دينية، وصحيفتان. اكتشف النفط

في الغرب وأصبحت المدينة الفتية غنية. بعد عام آخر انتشر النشالون، والقوادون، واللصوص، والمستودعات، و هيئات الوقاية، والحلاقون الباريسيون، وقاعة بيرة بافارية. ولقد زاد تنافس المدن المجاورة من السرعة والنشاط. لم ينقص شيء آخر من الصالات السينمائية إلى مؤسسات الروحانيين. ويستطيع المرء أن يشتري النبيذ الفرنسي، وسمك الرنكة النرويجي، والسجق الإيطالي، والنسيج الإنكليزي، والكافيار الروسي في المدينة. حتى مغنو الدرجة الثانية، الراقصون، والموسيقيون قاموا بعروضهم في هذا المكان.

وجاءت الثقافة بالتدريج أيضاً. والمدينة، التي كانت مستوطنة في البداية، بدأت تتطور إلى وطن له تقاليد. ثمة الآن طريقة خاصة في حياة شخص ما: أن تهز رأسك حين تصادف أحدهم، تتميز عن الطرق الأخرى في مدن أخرى ذات الأسلوب الخفيف واللطيف. والرجال الذين لعبوا دوراً في تأسيس المدينة تمتعوا بالاحترام والشهرة. طبقة نبلاء صغيرة شعّت بالكبرياء. نمى جيل شاب. بالنسبة إليه، بدت المدينة مسبقاً قديمة كأنها وجدت منذ الأبد. أما الوقت الذي سمعت فيه المطرقة الأولى، وارتكبت الجريمة الأولى، وقدمت الخدمة الكنسية الأولى، وطبعت الصحيفة الأولى، فقد كان هذا كله يرقد بعيداً في الماضي - لقد تحول مسبقاً إلى تاريخ.

ونهضت المدينة لتهيمن على المدن المجاورة وتصبح عاصمة مقاطعة كبيرة. أبنية إدارية ومصارف وقورة ومهيبة، مسارح وكنائس انتصبت في الشوارع العريضة المبتهجة، حيث المنزل الأول الذي صنع من أعمدة خشبية وقصدير انتصب قرب أكوام من الرماد والبرك.طلاب يسيرون الهوينى إلى الجامعة والمكتبة. وكانت

سيارات الإسعاف تنطلـق بحـذر إلى المستشـفيات. لوحظـت سيارة نـائب وحياهـا الناظرون. في عشرين مسكناً مدرسياً مصنوعاً من الأحجار والحديـد، كـان يحتفـل كل عام بيوم التأسـيس بالأغـاني والخطابـات. وغطيـت المـروج السـابقة بـالحقول، والمصانع، والقرى وعبرها عشـرون خطـاً مـن السـكك الحديديـة. اقـتربت الجبـال ووصلت بسكة ذهبت مباشرة إلى قلـب الوهـاد. في الجبـال أو بعيـداً علـى شـاطئ البحر، بنى الأغنياء منازلهم الصيفية.

بعد مائة عام من تأسيس المدينة، هزّها زلزال ودمرهـا. نـهضت مـرة أخـرى، على أي حال، وأصبحت جميع الأبنية الخشبية حجرية، وكل ما كان صغيراً أصبـح كبيراً، وكل ما كان ضيقاً اتسع. كانت محطة القطـار الأكـبر في البـلاد. وكـان سـوق البورصة الأكبر في العالم. زيّـن مهندسـون وفنـانون المدينـة المجـددة بأبنيـة عامـة، وحدائق، وينابيع وتذكارات. وفي مسار هذا القرن الجديـد حظيـت المدينـة بسـمعة كونها أجمل وأغنى ما في البلاد وأنـها جديـرة بالرؤيـة. السياسيون، والمهندسـون، التقنيون ورؤساء بلديات مـدن أجنبيـة قـاموا برحـلات كـي يدرسـوا الأبنيـة، ونظـام المياه، والإدارة، ومؤسسات أخرى في المدينة المشهورة. وفي تلك الفترة بنيت قاعـة المدينة- الجديدة، وهي من أهم وأعظم الصـروح في العـالم. وبمـا أن هـذا الزمـن الذي يتميز بالثروة الجديدة وكبرياء الاستقلال الذاتي تزامن بالمصادفـة مـع ارتفـاع مفاجئ في الذوق الشعبي، وبخاصـة الـذوق الفـني في العمـارة والنحـت، أصبحـت المدينة، التي نمت بسرعة، أعجوبة نحاسية رائعة. أحاط حزام أخضـر عريـض مـن الحدائق الرائعة المقاطعة الداخلية، التي كانت جميع أبنيتها من حجر أخضر متألق وأنيق، وفي الجانب الآخر من هذه الحلقة، امتدت خطوط الشوارع والمنازل إلى أن

ضاعت في البلاد الواسعة المفتوحة.وبني متحف ضخم لـه زواره ومعجبوه، تصور غرفه المائة، وساحاته، وصالاته، تاريخ المدينة منذ أصولها الأولى حتى تطورها الأخير. وكانت قاعة الدخول الأولى العملاقة لهذا المجمع تمتلك علب عرض ترصد المروج الأولى، بنباتات مزروعة بعناية شديدة وحيوانات ونماذج دقيقة عن المساكن الأولى البائسة، والأزقة، والمؤسسات. وكان شبان المدينة يطوفون عبر هذه الصالة ويلاحظون مجرى تاريخهم من الخيام والأكواخ الخشبية، من السكك الأولى غير المستوية إلى روعة الشوارع المحلية الضخمة. يقودهم ويرشدهم أساتذتهم، ولقد تعلموا عن جميع القوانين العظيمة للتطور والتقدم، كيف صنعت الأشياء الرائعة من مواد خام، وتطور البشر عن الحيوانات، وتطور المثقفون من برابرة، وكيف تشكلت الثقافة من الطبيعة.

في القرن التالي وصلت المدينة إلى نقطة عليا من مجدها الذي انكشف في وفرة غنية ونما بسرعة إلى أن وضعت ثورة دموية قامت بها الطبقات الأدنى جداً لتلك الرفاهية. بدأ الرعاع يشعلون النار في مشاريع النفط الكبيرة التي تبعد بضعة أميال عن المدينة، وهكذا احترق أو هجر ذلك القسم الكبير من البلاد الذي يحوي المصانع، والمزارع، والقرى. وجربت المدينة الذبح وجميع أنواع القسوة، لكنها تابعت وجودها ببطء وتعافت في عقود هادئة. لكنها لم تستطع أن تستعيد ثانية حياتها السعيدة. وفي أثناء فترة انحطاطها بدأت بلاد بعيدة وراء البحر تزدهر فجأة. صدّرتْ القمح والحديد، الفضة وكنوزاً أخرى كثيرة، وذلك نظراً لتربتها الخصبة التي لا تُستنفد التي قدمت كل شيء برغبة. كانت البلاد الجديدة جذابة بشكل هائل لسكان العالم القديم، الذين لم تُستخدم مواهبهم بشكل سوي، وراقت لرغباتهم

وأهدافهم. وازدهرت المدن هناك بين عشية وضحاها. اختفت الغابات وتم التحكم بالشلالات.

تدهورت المدينة الجميلة تدريجياً ولم تعد قلب العالم ودماغه، أو سوق وبورصة بلدان عدة. وكان عليها أن ترضى فحسب بأن تبقي نفسها حية كي لا تتلاشى في ضجيج الأزمنة الجديدة. ثم إن القوى الخلاقة للعمل والصناعة، التي لم تنتقل إلى العالم الجديد البعيد، لم تعد تملك ما تبنيه وتغزوه وقلّت تجارتها وكسبها. وبدلاً من ذلك، تأصّلتْ حياة فكرية في التربة الثقافية التي أصبحت قديمة. ولقد ولّدت هذه المدينة، التي أصبحت وقورة الآن، باحثين وفنانين ورسامين وكتاباً. وكان هؤلاء الأفراد ورثة أولئك الذين بنوا في إحدى المرات المنازل الأولى على التربة العذراء، ويمضون أيامهم الآن مبتسمين ومتفرغين لمتع وأهداف فكرية صرفة. رسموا الروعة الكئيبة للحدائق الطحلبية القديمة مع تماثيل أثر فيها الطقس ومياه خضراء وقرأوا أشعاراً رقيقة عن اضطراب الأزمنة البطولية القديمة وعن الأحلام الصامتة عن بشر متعبين في قصور قديمة. وبسبب أعمالهم، دوّى مرة أخرى اسم وشهرة المدينة في جميع أنحاء العالم. وإذا كان البشر خارج المدينة تهزّهم الحروب، أو ينشغلون بتنفيذ خطط وأعمال عظيمة، كان المرء يعرف أن السلام سائد في هذه البقعة الصامتة والمعزولة، وأن عظمة الأزمنة المندثرة ومضت باهتةً في الغسق: في الشوارع الهادئة التي تتدلى فوقها أغصان مزهرة، وفي واجهات المباني الضخمة ذات الألوان التي غيّرها الطقس، وفي الأحياء التي تخلو من الضجة، وفي قشور الينابيع التي يغطيها الطحلب الذي جرى مع الماء الذي يعزف موسيقى هادئة.

كانت المدينة الحالمة معرضة طيلة قرون كثيرة، وكانت مكاناً مفضّلاً للعالم الفتي، الذي تغنى به الشعراء وزاره العشاق. على أي حال، شعر البشر بإلحاح قوي يتنامى كي ينتقلوا إلى أجزاء أخرى من الأرض. وفي المدينة نفسها، بدأ ورثة الأسر القديمة الساذجة يموتون أو يحل بهم البؤس. فضلاً عن ذلك، كان الازدهار الفكري الأخير قد وصل منذ مدة طويلة إلى أوجه، ولم تبق إلا بنية تحتية متآكلة. ولقد اختفت المدن المجاورة والأصغر بشكل كامل وأصبحت أكوام حطام هاجعة، يسكنها أحياناً الغجر والمدانون الهاربون.

ومع حدوث زلزال ثان استثنى المدينة، تبدّل مجرى النهر وتحول قسم من الريف المخرب إلى مستنقع وتحول جزء آخر إلى صحراء. وفي الجبال، حيث تفتتت بقايا مقالع الحجارة والمنازل الصيفية، تسلقت الغابة – الغابة القديمة. شاهدت المنطقة الشاسعة تتمدد عارية، وبدأت تكسو هذه الأرض قطعة بعد قطعة، وهكذا أصبح كل شيء جزءاً من الدائرة الخضراء. ومرت في إحدى المناطق بسرعة عبر مستنقع من الخضرة الهامسة ثم عبر منطقة حجرية فيها أشجار صنوبر دبقة.

وفي النهاية لم يبق مواطنون يعيشون في المنازل، وإنما مجموعات من المشردين، وبشر أفظاظ وبرابرة لاذوا في القصور الغائصة والمائلة التي تنتمي إلى الأزمنة الغابرة وتركوا ماعزهم يرعى في الشوارع والحدائق السابقة. ومات هؤلاء السكان الأخيرون تدريجياً من المرض والجنون. ومنذ أن تشكّلت المستنقعات، أصيب الريف كله بالحمّى وأهمل.

وكانت بقايا قاعة المدينة، التي كانت كبرياء زمنها، لا تزال ضخمة وتنتصب طويلة. احتفل بها في الأغاني في جميع اللغات وفي حكايات أسطورية متعددة

للشعوب المجاورة، التي أهملت مدنها منذ زمن طويل والذين تآكلت ثقافتها. وظهر اسم المدينة ومجد ماضيها، اللذان شُوِّها بشكل مخيف، في حكايات الأطفال، وقصص الرعب، والأغاني الرعوية الكئيبة. وكان باحثو البلدان البعيدة، إبان عصرهم الذهبي، يأتون أحياناً إلى مركز الآثار في رحلات بحث خطيرة، وكان طلاب مدارس تلك البلدان البعيدة يناقشون بلهفة أسرار المدينة القديمة. كان من المفترض أن فيها بوابات من الذهب الخالص وقبوراً مليئة بالجواهر الكريمة، وأن القبائل البدوية القديمة في المنطقة تحفظ بقايا سحر عمره ألف عام من الزمن القديم الخرافي.

لكن الغابة تابعت زحفها من الجبال إلى المروج. نشأت البحيرات والأنهار وجفّت، وزحفت الغابة وتدريجياً احتلت البلاد كلها وغطت بقايا جدران الشوارع القديمة، والقصور، والمعابد، والمتاحف. وسكنت الثعالب، والدَّلَق، والذئاب والدببة المنطقة المعزولة.

انتصبت شجرة صنوبر فتية فوق قصر متهدم، لا يمكن أن يرى منه حجر واحد. كانت شجرة الصنوبر في أحد الأوقات الرسول والنذير الأكثر تقدماً للغابة النامية. الآن، على أي حال، كانت تطل على نمو الأشجار الفتية أمامها.

" نحن نتقدم إلى الأمام"- صاح نقّار خشب ينقر جذع شجرة وهو ينظر إلى الغابة النامية والتقدم الأخضر المجيد على الأرض بسعادة.

نهاية الدكتور نويجل

الدكتـور نويجـل، مـدرس ثانويـة سـابق، اسـتقال مبكـراً مـن مهنتـه وتفـرّغ للدراسـات الفيلولوجيـة الخاصـة، ولم يعـرف مطلقـاً النبـاتيين والنباتيـة إلا حـين أجبرته عوارض الربو والروماتيزم على إتباع حمية نباتية. وكـانت النتيجـة ناجحـة، مما جعل المدرس يمضي عدة أشهر كـل عـام في منتجـع صحـي نبـاتي أو فنـدق صغير، في الجنوب. ورغم مقته الشديد لكل ما هو غير عادي وغريب، بـدأ يختلـط مع دوائر وأفراد لم يتواصل معهم في الأحوال العادية. ولم تعجبه زياراتهم، الـتي لا يمكن تجنبها، إلى بلدته، رغم أنها كانت غير منتظمة.

طيلة سنوات كثيرة، كان الدكتور نويجل يمضي الربيع وأوائل الصيـف وحتـى أشهر الخريف في أحد الفنادق النباتية الكثيرة الواقعة على ساحل جنوب فرنسـا أو بحيرة ماجيوري. تعرف على بشر كثيرين مختلفين في تلـك الأمكنـة واعتـاد علـى أمور كثيرة، شاهد بشراً يسيرون حفاة، وحواريين بشعر طويل، ومتعصبين يصومون طول الوقت، ونباتيين شرهين.بنى صداقات جيدة، وخاصة بين الأخيرين، وهو، الذي منعته أمراضه من التمتع بالوجبات الثقيلـة، تطـور إلى أبيقـوري معتـدل في مملكـة الخضار والفاكهة. ولم يكن هناك طريقة لإشباعه بسلطة الهندباء العادية، ولم يخطئ مطلقاً في التمييز بين برتقالة من كاليفورنيا وأخرى إيطالية. على العكس، لم يظهر اهتماماً كبيراً بالنباتية، ذلك أنها كانت مجرد علاج بالنسبة إليه، وإذا حـدث وراقـت له، يكون السبب في هذا أحياناً هو الابتكارات الألسنية في هذه المنطقـة، الـتي كـان

يعتبرها مهمة نظراً لأنه عالم بفقه اللغة. كان هناك نباتيون وتنويعات أخرى كعلماء نبات، محبو الخضار، الطاهرون، آكلوا الخضار غير المطبوخة،والوعاظ، والنباتيون المختلطون.

وحسب الاستخدام الألسني للخبراء، كان الطبيب نفسه ينتمي إلى النباتيين المختلطين، لأنه لا يأكل خضاراً وطعاماً نيئاً فحسب وإنما خضاراً مطبوخة وحتى منتجات الملبنة في الوقت نفسه. ولم تفت ملاحظته أن هذه الحمية كانت شيئاً بغيضاً للنباتيين الحقيقيين، وفضلاً عن ذلك للطاهرين، الذين يطيعون قوانين صارمة في تناول الطعام. على أي حال، ابتعد عن المجادلات التعصبية التي يديرها حواريو النباتية الحقيقية، وعرض موقعه كنباتي مختلط فقط من خلال أفعاله، بينما تباهى معارف كثيرون - بالتحديد النمساويون - بموقعهم الخاص على بطاقات أعمالهم.

وكما قلت، لم يتماش الدكتور نويجل مع هؤلاء الناس. وبدا بوجهه الأحمر المسالم وجسده العريض، مختلفاً عن حواريي النباتية المحضة، الذين كانوا أنماطاً هزيلة ومتقشفة، وغالباً ما يرتدون ملابس فنتازية. كان لكثير منهم شعر يتدفق فوق أكتافهم، ويواصلون حياتهم كمتعصبين، وأتباع دين، وشهداء لمثلهم الخاصة. وكان الدكتور نويجل عالماً في فقه اللغة ووطنياً. لم يدعم أفكارهم عن الإنسانية والإصلاح الاجتماعي، ولم يشترك في نمط حياة شركائه النباتيين. كان حمالو الفنادق الكزموبوليتية، الذين ينتظرون في محطات السكك الحديدية، وعلى أرصفة الموانئ في لوكانو وبالانزا، والذين يستطيعون شم جميع أنواع "حواريي رأس الملفوف" من بعيد، يزكون فنادقهم له بكل ثقة بالنفس، عارفين نوعه من شكله.

وغالباً ما كانوا يعبرون عن دهشة غير عادية حين يقدم الرجل، الذي يبدو محترماً، متاعه لحمال فندق ثاليثيا أو سيريس، أو إلى الحمار السيد لمونت فيريتا.

مع ذلك، أصبح الدكتور نويجل معتاداً تدريجياً على المحيط الغريب وشعر بالارتياح هناك. كان متفائلاً، تقريباً فناناً في طريقة حياته، وعثر على كثير من الأصدقاء محبي الهدوء وذوي الخدود المحمرة بين آكلي النباتات من مختلف البلدان. فضلاً عن ذلك، استطاع أن يجلس إلى جانبهم، ويتناول سلطته الطازجة ودراقه بهدوء، ويحظى بحديث مائدة يلائمه، دون أن يعرض نفسه لملاحظة قاسية من متعصب يوبخه بسبب حميته المختلطة، ودون أن يصادف بوذياً يمضغ الرز يوبخه من أجل لامبالاته الدينية.

في إحدى المرات سمع الدكتور نويجل عن تأسيس الجمعية النباتية الكونية، أولاً من خلال الصحف ثم من خلال الاتصال المباشر مع دائرة معارفه. ولقد حصلت الجمعية على قطعة أرض ضخمة في آسيا الوسطى ودعت جميع المريدين النباتيين من العالم لكي يستقروا هناك باستمرار أو يزوروا المكان مقابل أسعار معقولة. ولقد استهل هذا المشروع جماعة من النباتيين الألمان والهولنديين والنمساويين، الذين شكلت تطلعاتهم نوعاً من الصهيونية النباتية، ذلك أنهم هدفوا إلى تطويع أتباع ومؤمنين بدينهم في العالم الذي كان له مسبقاً الأوضاع الطبيعية لحياتهم التي تخيلوها كمثال. كانت المستوطنة في آسيا الوسطى هي بداية مهمتهم، ذلك أن خطابهم كان موجهاً " إلى جميع أصدقاء نمط الحياة النباتي والخضاري، ثقافة العري، وحركة إصلاح الحياة"، ولقد وعدوا بالكثير وبدا كلامهم رائعاً إلى

درجة أن الدكتور نويجل لم يستطع أن يقاوم الموسيقا النوستالجية القادمة من الفردوس. فأرسل طلب اشتراكه ليحل هناك ضيفاً في الخريف القادم.

وكان من المفترض أن تقدم الأرض كثيراً من الفاكهة والخضار. وكان يدير مطبخ المنزل الرئيسي مؤلف الطريق إلى الفردوس، وشعر كثيرٌ من الناس أنه من الممتع أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياتهم هناك دون أن يخضعوا لسخرية العالم الفج. وكان مسموحاً بجميع أنواع الإصلاح النباتي والملابسي، ولم تكن هناك ممنوعات عدا اللحوم والمشروبات الكحولية.

جاء لاجئون غريبون من جميع أنحاء العالم، بحثاً عن الهدوء والراحة في حياة مناسبة لطبيعتهم في آسيا الوسطى، ولكي يكسبوا رزقهم وفائدة من أولئك البشر المتلهفين للخلاص. جاء الكهنة والمعلمون الهاربون من جميع أنواع الكنائس، الهندوسيون الدجالون، والمؤمنون بالقوى الخفية، مدرسو اللغة، محترفو التدليك والتنويم المغنطيسي، السحرة، ومعالجو الإيمان. وكان عدد المخادعين والماكرين في هذه المجموعة الصغيرة من البشر الغرباء أقل من عدد الفنانين المتملقين والتافهين الذين لا يؤذون، ولم تكن هناك فوائد كبيرة تجنى وكان معظمهم ينشدون وسيلة لكي يكسبوا رزقهم - الذي لن يكون كثيراً لنباتي يعيش في بلاد جنوبية.

وغالبية البشر الذين خرجوا من أوروبا وأميركا حملوا معهم رذيلة واحدة امتلكها جميع النباتيين وهي مقت العمل. لم يرغبوا بالذهب أو المتعة، بالسلطة أو التسلية. ما كانوا يريدونه أكثر من غيره هو أن يعيشوا حياتهم المتواضعة دون عمل ومضايقات. قطع كثيرون منهم أوروبا سيراً على الأقدام مرات عدة كمنظفي مقابض

أبواب متواضعين في منازل بشر ميسورين يشاركونهم أفكارهم، أو كأنبياء واعظين وأطباء معجزات. وحين وصل الدكتور نويجل إلى كويسيسانا، قابل كثيراً من المعارف السابقين الذين كانوا يزورونه بين فينة وأخرى إلى لايبزغ كشحاذين لا يؤذون.

ولكن قبل كل شيء، التقى بالأفراد والأبطال والعظام من جميع الفئات النباتية المختلفة. وهم رجال لوحتهم الشمس، شعرهم طويلٌ ومتموج، وملتحون، وقد وصلوا وهم يرتدون عباءات بيضاء وينتعلون أخفافاً، وكأنهم خرجوا لتوهم من العهد القديم. كان آخرون يرتدون ملابس رياضية مصنوعة من الكتان المتألق. وسار بعض الرجال الموقّرين عراة بستائر عورة - مئزر- مصنوعة من الصوف نسجوها بأنفسهم. ولقد شكلت مجموعات وحتى نواد منظمة. كان الوعّاظ يجتمعون في أماكن محددة، ويجتمع الصائمون المتقشفون في بقع أخرى، أما الثيوصوفيون[1] وعبدة الشمس فقد رتبوا لقاءاتهم في أمكنة أخرى كذلك. بني معبد بأزهار النبي الأميركي ديفس، بينما استخدم السويدنبورغيون الجدد قاعة من أجل خدماتهم الدينية.

في البداية شعر الدكتور نويجل ببعض الاستياء وهو يتنقل بين الحشد الغريب. حضر محاضرات معلم سابق من بادن يدعى كلابر، شرح للمستمعين بألمانية نقية عن مصير الأتلانتيس، ونظر إلى اليوغاني[2] فيشينادا، الذي كان اسمه

---

[1] - المؤمنون بالثيوصوفية، أي معرفة الله من طريق الكشف الصوفي والتأمل الفلسفي. معتقدات حركة حديثة نشأت في الولايات المتحدة الأميركية ١٨٧٥ وبنيت في المقام الأول على أساس من التعاليم البوذية والبراهمية.

[2] - ممارس اليوغا.

بالفعل هو بيبو سيناري، والذي بعد عقود من الجهد خفَّض نسبة نبضات القلب إلى الثلث من خلال قوة إرادته.

كانت مستعمرة كهذه ستترك في أوروبا انطباعاً بأنها مشفى للمجانين أو ملهاة فنتازية جرت بين حوادث سياسية ومهنية. أما في آسيا الوسطى، على أي حال، بدا كل شيء معقولاً وغير مستحيل على الإطلاق. أحياناً كان وافدون جدد يتجولون بأوجه روحانية متوهجة ويعبرون عن سرورهم من تحقق أحلامهم الأعز على قلوبهم. ويمكن رؤية آخرين وفي عيونهم دموع الفرح وفي أيديهم أزهار، يمنحُون كل من يصادفونه قبلة سلام.

وكانت المجموعة الأكثر لفتاً للنظر مؤلفة من وعاظ، لقد تخلوا عن حقهم في تشييد معبد، أو منزل، أو مؤسسة من أي نوع ولم يبدوا أية رغبة سوى أن يصبحوا أكثر طبيعية.وكما صرحوا بأنفسهم، فقد أرادوا " أن يقتربوا من التربة". عاشوا في العراء ولم يأكلوا أي شيء سوى ما يمكن كسره من الأشجار والأدغال. ولقد احتقروا بشكل كامل جميع النباتيين الآخرين، وأخبر أحدهم الدكتور نويجل في وجهه أن تناول الخبز والأرز شيء يثير القرف كالتمتع باللحوم، وأنه ليس هناك فرق حقيقي بين ما يدعى بنباتي يشرب الحليب وأي عجوز سكير ومدمن.

وبين الوعاظ اعتلى الحواري الموقر جوناس فوق الجميع، لأنه كان الممثل الأكثر تماسكاً ونجاحاً لهذه الفئة. كان يرتدي قطعة قماش تستر عورته، لكنها لا تكاد تميز عن جسده البني المشعر. كان يعيش في منطقة غابية صغيرة، حيث يمكن أن يُشاهد متدلياً بين الأغصان برشاقة وسرعة. وكان إبهاماه وأصابع قدميه الضخمة متقلصة إلى الخلف في شكل بدائي معجز، ويمثل نمط حياته ووجوده

العودة الأكثر تماسكاً ونجاحاً إلى الطبيعة. سخر منه البعض بين أنفسهم وسموه الغوريلا. مع ذلك، كان جوناس يحظى بإعجاب واحترام المنطقة كلها.

وهذا النباتي العظيم شجب استخدام اللغة. وحين كان أتباعه من الأشقاء والشقيقات يناقشون الأمور على حافة غاباته، كان يجلس أحياناً على غصن فوق رؤوسهم، مبتسماً بتشجيع أو يضحك غير موافق، لكنه لا يتفوه مطلقاً بكلمة. بدلاً من ذلك، يحاول من خلال الإيماءات أن يشير بأن لغته هي لغة الطبيعة التي لا تخطئ وستصبح في المستقبل اللغة العالمية لجميع النباتيين وأبناء الطبيعة. كان أصدقاؤه المقربون يرافقونه كل يوم، يتمتعون بدروسه في فن مضغ وكسر الجوز، ويراقبون برعب كيف يكمل نفسه بشكل متعاقب. مع ذلك، كانوا متضايقين لأنه كان من المفترض أن يذهب إلى براري الجبال المحلية كي يتوحد مع الطبيعة، وأن هذا سيحدث في القريب العاجل.

أراد بعض المتعصبين أن يضفوا صفات مقدسة على هذا الكائن الهام الذي أكمل دورة الحياة وعثر على طريق عودته إلى نقطة بداية التطور الإنساني. ولكن في الصباح، حين خرجوا كي يبحثوا عنه في غاباته كي يبجلوه ويبدأوا تأسيس عبادتهم له بأغنية، ظهر جوناس المحتفى به على غصنه الكبير المفضل، نزع ما يستر عورته في الجو بسخرية، وقذف المؤمنين بأكواز الصنوبر.

عميقاً في روحه الجبانة، لم يشعر الدكتور نويجل إلا بمقت كامل لجوناس، الغوريلا. وكل ما آمن به دائماً في أعماق قلبه ضد إفراط وجهة النظر النباتية، والسلوك التعصبي الجنوني، تجسد بشكل مرعب في تلك الشخصية. بدا جوناس كأنه يسخر بفظاظة من نباتيته المعتدلة، والدكتور نويجل، المعلم المتواضع، شعر،

بطريقة ما، أن جوناس، الكامل، يـهين الكرامـة الإنسـانية. وفي الحقيقـة، لم يسـتطع الدكتور نويجل، الذي سامح كثيراً من البشر الذين يمتلكون آراء مختلفة عن رأيـه، أن يسير عابراً مسكن الكامل دون أن يشعر بالكراهيـة والغضـب. بطريقـة مماثلـة، شـعر الغوريـلا الـذي رصـد، وهـو جـالس علـى غصنـه بـاتزان، جميـع أنـواع التابعين،والمعجبين، والنقاد، شعر بمرارة بهيمية من هذا الرجل، الذي شـم كراهيتـه غريزياً. وكلما صادف واقترب الدكتور من الغابات، كان ينظـر إلى سـاكن الشـجرة بتوبيخ، وبنظرات مهينـة، وكـان جونـاس يـرد عليـها مكشـراً عـن أسـنانه وبهسـيس غاضب.

كان الدكتور نويجل قد قرر مسبقاً أن يغـادر المنطقـة في الشـهر القـادم لكـي يعود إلى وطنه.ولكن في إحدى الليالي، حين طلع البدر، قـام بنزهـة وسـيق تقريبـاً ضد إرادته إلى قرب الغابات. بحزن فكر بالأزمنة القديمة حـين كـان لا يـزال آكـلاً للحوم وإنساناً سوياً بصحة ممتازة، يعيش بين أبناء نوعه. وفيمـا كـان يتذكـر تلـك السنوات الأكثر هدوءاً، صفر بشكل تلقائي أغنية طلابية قديمة.

فجأة ظهر جوناس من بين الأدغال، مصدراً صـوت صريـر مرتفعـاً، ذلـك أن الأغنية أثارته بشكل وحشي. وقف مهدداً أمام السائر، مؤرجحاً هراوة وحشية. كـان الدكتور المفاجئ غاضباً وساخطاً، على أي حال، ولذلك لم يهرب أو يبتعد، وإنمـا شعر بأن الوقت قد حان لتصفية الحسابات مع هذا العدو. ضاحكـاً بتجـهم، انحنـى وقال بسخرية وإهانة:" اسمح لي أن أقدم نفسي. أنا الدكتور نويجل."

ثم رمى الغوريلا هراوته بعيداً بصرخة غاضبة، قفـز علـى الدكتـور الضعيـف، وخنقه بسرعة بيديه المريعتين. عثر علـى الدكتـور نويجـل في اليـوم التـالي. اشـتبه

كثيرون بما حدث، لكن لم يجرؤ أحد على القيام بـإجراء ضـد الغوريـلا جونـاس، الذي يكسر الجوز بهدوء على أغصان شجرته. والأصدقاء القليلون الذين حظي بهم الغريب في أثناء إقامته في الجنة دفنوه في الجوار ووضعوا شاهدة بسيطة على قـبره ونقشوا عليها:" الدكتور نويجل، نباتي يتناول جميع الأصناف،وهو من ألمانيا."

الحلم الجميل

حين توفي طالب الثانوية مارتن هابرلاند في سن السابعة عشرة من مرض ذات الرئة تحدث الجميع عنه وعن موته الذي جاء في غير أوانه. وتأسفوا، بخاصة، أنه لم يكن قادراً على الاستفادة من مواهبه الوفيرة أو أن يجرب النجاح.

وصحيح أنني شعرتُ أنا بالأسف على موت الشاب الموهوب والأنيق، وفكرت، بأسى، كم هناك من المواهب العظيمة في العالم التي تقذفها الطبيعة بشكل اعتباطي بعيداً! لكن الطبيعة لا تأبه بما نفكر به، وفيما يتعلق بالموهبة، ثمة إفراط في وجودها إلى درجة أن فنانينا سيصبحون في القريب العاجل هم جمهورهم الخاص، وسيغيب من الوجود الجمهور المؤلف من الناس العاديين.

ونتيجة لهذا، لا أستطيع أن أندب موت الشاب بالطريقة التي يمكن أن أقوم بها لو أن أذى لحق به أو جُرِّدَ بقسوة من أفضل وأجمل الأمور في العالم التي منحت له. إن كل من يصل إلى سن السابعة عشرة بسعادة وبصحة جيدة ووالدين ظريفين يمتلك الجزء الأفضل من حياته. فلو انتهت حياته باكراً جداً ولم تأخذ شكل سيمفونية لبيتهوفن لأنه لم يعش الكثير من المعاناة أو التجارب القاسية أو يمر في مراحل صعبة، فإنه يمكن أن ينظر إليها على أنها كونشيرتو حجرة لهايدن، وليس بوسعك أن تقول شيئاً كهذا عن حياة كثير من البشر.

أما في حالة مارتن هابرلاند، أنا متأكد جداً من الظروف. لقد جرب الشاب بالفعل الأمور الأكثر جمالاً في الحياة وكان متاحاً له أن يجربها. لقد امتص

إيقاعات تلك الموسيقى غير الأرضية مما جعل موته ضرورياً لأن حياته بعد ذلك كان من الممكن أن تنتهي في تنافر ونزاع وحسب. وحقيقة أن الطالب لم يستمتع بهذه السعادة إلا في حلم ينبغي ألا تضفي مسحة غموض على الأمر، ذلك أن معظم البشر يجربون أحلامهم بمزيد من التوتر أكثر مما يمارسون حياتهم. وهكذا الأمر مع مارتن، الذي حلم الحلم التالي في اليوم الثاني من مرضه حين ارتفعت الحمى، وقبل موته بثلاثة أيام.

وضع والده يده على كتفه وقال:" أفهم جيداً أنك لا تستطيع أن تتعلم أكثر من هذا هنا. يجب أن تصبح رجلاً عظيماً وصالحاً وتتابع نوعاً خاصاً من السعادة لا يمكن العثور عليها في عشك المنزلي. انتبه:أولاً يجب أن تتسلق جبل المعرفة، ثم ينبغي أن تقوم ببعض الأفعال، وأخيراً يجب أن تعثر على الحب وتصبح سعيداً."

وبينما كان والده يتفوه بهذه الكلمات، بدت لحيته أكثر طولاً، وعيناه أكثر اتساعاً.ثم قبل ولده على جبينه وأمره أن يغادر. وهكذا هبط مارتن درجاً عريضاً وجميلاً كذلك الذي في قصر، وبينما هو يعبر الشارع وعلى وشك أن يغادر المدينة الصغيرة، قابل والدته التي نادته:" ماذا يا مارتن، هل تريد أن ترحل دون أن تودعني؟"

نظر إليها نظرة مرتعشة وشعر بالعار لأنه ظنها ميتة منذ وقت طويل. ولكنه استطاع أن يراها تقف حية وبصحة جيدة أمامه، أكثر جمالاً وشباباً من الحالة التي كان يتذكرها بها. وفي الحقيقة، كان هناك شيء صبياني فيها، وحين قبلته احمرّ ولم يجرؤ على رد القبلة. حدقت في عينيه بنظرة واضحة متألقة شعّت كضوء في داخله، وهزّت رأسها له فيما كان يغادر مرتبكاً.

لم يندهش خارج المدينة حين وجد ميناء بدلاً من الوادي والطريق الريفي الذي يحفه شجر الدردار، وكانت هناك سفينة ضخمة عتيقة الطراز بأشرعة بنية ترتفع في السماء الذهبية، كما في لوحته المفضلة لكلود لوران. وحالاً بدأ يبحر إلى جبل المعرفة.

ولكن السفينة والسماء الذهبية تلاشتا من الرؤية ووجد الطالب الشاب هابرلاند نفسه يتجول على الطريق الريفي بعيداً عن المنزل. اقترب من جبل توهج باحمرار كالغروب في المسافة وبدا أنه لا يقترب كلما تابع مسيره. ولحسن الحظ كان البروفيسور سيدلر يرافقه وقال بنبرة أبوية:" ليس هناك بناء يستخدم هنا سوى ablativus absolutus. اتبع مارتن هذه النصيحة على الفور وتذكر ablativus absolutus الذي إلى حد ما، كان ماضيه كله. تضمن العالم ومحا جميع أنواع الماضي بطريقة شاملة فتألق كل شيء وامتلأ بالحاضر والمستقبل. وفجأة وقف على الجبل، وكان البروفيسور سيدلر إلى جانبه كذلك، وعلى الفور بدأ يتحدث معه بطريقة مألوفة. مارتن، بدوره، تحدث بشكل مألوف مع البروفيسور ووثق به كأنه والده الحقيقي. وبالفعل، وبينما كان البروفيسور يتحدث، أصبح شيئاً فشيئاً كوالده. وعلى الفور تدفق حب هابرلاند لوالده وحبه للمنحة سوية وامتزجا فيه، أكثر قوة وجمالاً،وبينما كان يجلس ويفكر، لا يحيط به شيء سوى الأعجوبة المنذرة، همس له والده:"انظر حولك الآن!"

لم يستطع أن يرى أي شيء سوى وضوح شاسع حوله، وكان كل شيء في العالم في أفضل نظام وواضحاً كالشمس. فهم تماماً في قلبه لماذا كان الناس مختلفين في المظاهر، والعادات، واللغات ومع ذلك جاؤوا من كينونة واحدة وكانوا

أخوة. فهم بشكل جيد أن الحاجة والمعاناة والقذارة كانت ضرورية ومرغوبة ومقدرة من الله وأصبحت جميلة ومتألقة وتحدثت بصوت مرتفع عن نظام العالم ومتعته. وقبل أن يتأكد بشكل كامل أنه كان على جبل المعرفة وأنه أصبح حكيماً، شعر أنه دعيَ كي يؤدي عملاً، ورغم أنه فكر باستمرار بمهن مختلفة لمدة عامين ولم يقرر بتاتاً أيها سيختار، عرف الآن، بشكل مؤكد، أنه كان مهندساً معمارياً، وكان رائعاً أن يعرف هذا وأن لا يمتلك أدنى شك بالمسألة بعد الآن.

وعلى الفور،توضعت الأحجار الرمادية والبيضاء على الأرض. وظهرت ألواح طويلة وآلات يقف كثير من الناس حولها لا يعرفون ماذا يفعلون. على أي حال، قدم التعليمات بيديه وشرح وأصدر أوامر. كانت لديه خطط ويحتاج فقط إلى أن يومئ ويشير، وكان الناس يركضون بسعادة ليقوموا بأعمال معقولة. رفعوا الحجارة ودفعوا العربات، نصبوا الأعمدة ونقشوا زنود الخشب. كانت إرادة المهندس في أعين الجميع وأيديهم. حالاً شيّدَ البناء وأصبح قصراً عرض جمالاً واضحاً، بسيطاً، وممتعاً بجملوناته وردهاته، بساحاته ونوافذه المطلة على الخليج. وكان واضحاً أن أشياء قليلة كهذه يجب أن تبنى كي تتلاشى الحاجة، والمعاناة، والسخط، والغضب من العالم.

بعد إكمال البناء، نعس مارتن ولم يعد يستطيع الانتباه إلى جميع التفاصيل. سمع شيئاً كالموسيقى والأصوات الاحتفالية تزأر حوله واستسلم لتعب عميق ورائع باطمئنان عميق ونادر. والآن، بعد جميع تلك التجارب، بدأ وعيه يزداد للمرة الأولى، ثم وقفت أمه أمامه وأخذته من يده. وعلى الفور عرف أنه تريد أن تذهب معه إلى أرض الحب، فأصبح هادئاً، مليئاً بالتوقع، ونسي كل ما جربه في السابق

وفعله إبان رحلته. في الوقت نفسه، كان هناك ضوء رائع شع وراءه من جبل المعرفة وقصره وكذلك من ضمير صفا بشكل كامل.

ابتسمت أمه وأخذته من يده. هبطا منحدر الجبل إلى مشهد طبيعي ليلي. كان فستانها أزرق،وبينما كانا يسيران، تلاشت. وما كان زرقة فستانها أصبح زرقة للـوادي العميق والبعيد، وبينما تعرف على ذلك ولم يعد يعرف إن كانت أمه بـالفعل معـه، غلبه الحزن. جلس في المرج وبدأ يبكي، دون ألم، مؤمنـاً ومخلصـاً كمـا كـان مـن قبل،حين استخدم دوافعه الإبداعية كي يبني القصـر ثـم استراح مـن الإعيـاء. شـعر، وهو يبكي، أنه من المفترض الآن أن يقابل أعذب شيء يستطيع أن يجربه شـخص، وحين حاول أن يتـأمل ذلـك، عـرف جيـداً مـا حقيقـة الحـب، لكنـه لم يستطع أن يتصوره بدقة وانتهى شاعراً أن الحب كالموت.إنه تحقق وليل لا يتبعه شيء.

كان ما يزال يفكر بكل هذا حين أصبح كـل شـيء مختلفـاً مـرة أخـرى. وفي المسافة استطاع أن يسمع موسيقى ممتعـة في الـوادي الأزرق، وجـاءت ابنـة رئيـس بلدية الوادي تسير على المرج، وعرف فجأة أنه يحبها. بدت كما كانت دائماً، لكنها ترتدي فستاناً في غاية البساطة والأناقة مثل إلاهة يونانية. وما إن وصلت إلى هنـاك حتى خيم الليل، وكان من المستحيل رؤية أي شيء عدا سماء مليئة بنجوم ضخمـة مضيئة.

وقفت الفتاة ثابتة أمام مارتن وقالت:"إذن أنت هنا؟" قـالت ذلـك بـود، وكأنـها كانت تنتظره.

قال:"نعم، دلتني أمي على الطريق. لقد انتهيت مـن كـل شـيء الآن، حتـى مـن المنزل الضخم الذي كان علي أن أبنيه. يجب أن تعيشي هناك."

ابتسمت وبدت أمومية جداً، ذات سيادة، وحزينة قليلاً، كبالغة.

"ماذا ينبغي أن أفعل الآن؟" سأل مارتن، ووضع يديه على كتفي الفتاة. انحنت إلى الأمام وحدقت في عينيه عن قرب مما أخافه قليلاً، ولم يـر شيئاً سوى عينين كبيرتين وهادئتين ونجوم عدة فوقها في ضباب ذهبي. بدأ قلبه يخفق بألم.

قرّبتْ الفتاة شفتيها من شفتي مارتن وعلى الفور ذابت روحه وفقد كامل إرادته. وفي الظلمة الزرقاء بدأت النجوم تصدح بنعومة. وشعر مارتن حينئذ أنه ذاق الحب والموت وأعذب ما يمكن أن يجربه المرء. سمع العالم حوله يتحرك ويرن كلازمة متكررة ومتقنة، ودون أن ينزع شفتيه عن شفتي الفتاة، ودون أن يرغب أو يريد أي شيء غير ذلك في العالم، شعر أنه هو الفتاة، وأن اللازمة المتكررة امتصت كل شيء. أغمض عينيه واندفع عبر شارع أبدي مقدر تدوّي فيه الموسيقى، وشعر بالدوار. والآن لم تكن تنتظره معرفة أو فعل أو أي شيء أرضي.

شجرات الزيزفون الثلاث

منذ أكثر من ثلاثمائة عام، انتصبت ثلاث أشجار زيزفون رائعة فوق الأعشاب الخضراء المجاورة لمشفى الروح القدس في برلين. كانت ضخمة إلى درجة أنها شكّلت قوساً فوق المقبرة كلها، كسقف ضخم، ذلك أن أغصانها تشابكت وتحولت إلى تاج عملاق. ويعود أصل أشجار الزيزفون الجميلة ثلاثمائة عام إلى الوراء، وغالباً ما رويت قصتها كالتالي.

عاش ثلاثة أخوة في برلين وطوروا صداقة حميمة وإخلاصاً لبعضهم بعضاً، من نوع نادراً ما شوهد في هذا العالم. وحدث في مساء أحد الأيام أن ذهب الأخ الأصغر وحيداً ولم يخبر أخوته بالأمر لأنه أراد أن يقابل فتاة في جزء آخر من المدينة ويقوم بنزهة معها. وبينما كان يسير الهوينى إلى مكان اللقاء، مستغرقاً في أحلام جميلة، سمع أنيناً خافتاً وشهقات تأتي من زقاق بين منزلين حيث المكان مظلم ومهجور. على الفور ذهب إلى الزقاق ليستطلع ما حدث، لأنه اعتقد أن حيواناً أو ربما طفلاً تعرض لحادث ويستلقي هناك منتظراً النجدة. وحين دخل المكان المعزول المظلم، دب فيه الرعب حين رأى رجلاً ملطخاً بالدم. وحين انحنى فوقه وسأله، مشفقاً، عما حدث لم يتلق سوى أنة ضعيفة وغصة، ذلك أن المصاب تعرض لطعنة سكين في قلبه، وبعد لحظات توفي بين ذراعيه.

لم يعرف الشاب ماذا يجب أن يفعل، وبما أن المقتول لم يظهر أية إشارة حياة، عاد الشاب، مرتبكاً ومصعوقاً، بخطوات متذبذبة إلى الشارع. وفي تلك

اللحظة تماماً جاء خفيران، وبينما كان الشاب لا يزال يفكر في أن يطلب النجدة أو يغادر المكان دون أن يلفت الانتباه، لاحظ الخفيران خوفه فاقتربا منه. وحالما شاهدا الدم على حذائه وكميه، قبضا عليه بالقوة، دون أن يعيرا أدنى انتباه إلى توضيحاته وتوسلاته. وبالفعل، حالما عثرا على الجثة، التي كانت قد بردت، أخذا المجرم المشتبه به إلى السجن مباشرة، حيث قيد بالسلاسل وشددت عليه الحراسة.

في اليوم التالي استجوبه القاضي، وعند نقطة ما من التحقيق أحضرت الجثة إلى الغرفة. وفي وضح النهار تعرف الشاب على الميت وعرف أنه مساعد حداد جمعته معه صداقة عابرة منذ مدة.على أي حال، قبل هذا شهد أنه لا يعرف القتيل أو أي شيء يمت إليه بصلة.نتيجة لذلك، اشتبه به أكثر بأنه طعن الميت، وخاصة بما أن الشهود الذين عرفوا الميت أقروا بأن الشاب كان صديقاً للمعاون منذ مدة، لكنهما افترقا بسبب نزاع على فتاة.ولم يكن هذا الكلام صحيحاً، لكن كان هناك ما يكفي من جوهر الحقيقة بحيث أن الرجل البريء أقر ذلك، مؤكداً طول الوقت براءته طالباً العدالة لا العفو.

اعتقد القاضي أنه كان المجرم وأنه سيعثر في القريب العاجل على دليل لكي يحكم عليه ويسلمه للجلاد. وكلما كان السجين ينكر كل شيء ويلح أنه لا يعرف أي شيء عن الجريمة، كان ينظر إليه على أنه المذنب.

في غضون ذلك كان أحد أخوته - كان الكبير لا يزال مسافراً ويقوم بعمل - ينتظر عبثاً أخاه الأصغر كي يأتي وأخيراً انطلق لكي يبحث عنه. وحين سمع الأنباء بأن شقيقه مسجون ومتهم بارتكاب جريمة ينكرها بعناد، ذهب إلى القاضي مباشرة.

قال له:" سيدي ! لقد اعتقلتم رجلاً بريئاً، ويجب أن تُطلق سراحه،أنا هو المجرم، ولا أريد أن يعاقب رجل بريء من أجل جريمة ارتكبتها أنا. كنت أنا والحداد عدوين، وكنت أكمن له. رأيته البارحة وهو يدخل ذلك الزقاق لكي يستريح، فتبعته وطعنته بسكين في قلبه."

أصغى القاضي إلى الاعتراف مندهشاً، ثم أمر بسجن الأخ وإحكام المراقبة عليه إلى أن يتوضح اللغز.وهكذا سجن الشقيقان مكبلين بالحديد في السجن نفسه. على أي حال، لم يمتلك الأخ الأصغر أي تلميح بأن أخاه يحاول إنقاذه وتابع إصراره الشديد على أنه بريء.

مر يومان دون أن يقدر القاضي على اكتشاف أي جديد، وبدأ يعتقد أن الأخ الذي اعترف بالجرم هو المجرم.ثم عاد الأخ الأكبر إلى برلين بعد أن أنهى رحلة عمله، ولم يعثر على أحد في البيت، وعرف من جيرانه ما حدث لأخيه الأصغر وبأن الأخ الثاني أخبر القاضي بأنه هو المجرم الحقيقي.

في الليلة نفسها، ذهب الأخ الأكبر إلى القاضي، وأيقظه، وركع أمامه." أيها القاضي النبيل، لقد سجنت رجلين بريئين وكبلتهما بالحديد، وكلاهما يعاني من جريمة ارتكبتها أنا. لم يقتل أي من شقيقيَّ معاون الحداد. في الحقيقة، أنا ارتكبت الجريمة. لم أعد أستطيع تحمل أن يسجن الآخرون من أجلي دون ذنب. أتوسل إليك أن تطلق سراحهما وتعتقلني. أنا مستعد أن أضحي بحياتي من أجل جريمتي."

وازداد ذهول القاضي ولم يعرف ما يفعله سوى أن يعتقل الأخ الثالث.

وفي الصباح الباكر، حين سلم السجان بعض الخبز للأخ الأصغر من الباب، قال له:" أحب أن أعرف الحقيقة، من منكم هو المجرم الحقير؟" وحين سأله الأخ الأصغر عن ما يعنيه من ذلك، رفض السجان أن يقول أي شيء. على أي حال، استنتج السجين من كلماته أن شقيقيه جاءا كي يضحيا بحياتهما من أجله. وعلى الفور، انهار، وبدأ يبكي، وطالب ملحاً بأن يمثل بين يدي القاضي. وحين مثل بين يديه مكبلاً بالحديد، بدأ يبكي وقال:" سامحني يا سيدي، لأنني رفضت أن أقر بذنبي لوقت طويل. اعتقدت أن لا أحد شاهد جريمتي أو برهن على ذنبي. وأدرك الآن أن العدالة يجب أن تُطبّق. لم أعد أستطيع مقاومتها وأريد أن أعترف أنني قاتل مساعد الحداد. أنا من يجب أن يدفع حياته ثمناً لفعلته."

اتسعت عينا القاضي من الدهشة ظاناً أنه يحلم. كانت دهشته لا توصف، وارتجف قلبه من هذه القضية الغريبة. أمر بأن يسجن السجين مرة أخرى ويوضع تحت الحراسة، كشقيقيه الآخرين، وجلس مستغرقاً في التفكير وقتاً طويلاً. وبالفعل، أدرك أن أحد الأشقاء يمكن أن يكون المجرم وأن اثنين منهم راغبان بأن يعدما ويضحيا بحياتهما بسبب الشهامة والحب الأخوي.

لم يستطع القاضي أن يصل إلى نتيجة، لكنه أدرك أنه سيكون من المستحيل اتخاذ قرار بتفكير عادي. نتيجة لذلك وضع السجناء تحت حراسة مشددة، وفي اليوم التالي، ذهب إلى الأمير وقدم صورة حيوية عن هذه القضية الغريبة.

أصغى الأمير وكان أكثر ذهولاً ثم قال:" هذه قضية غريبة ونادرة!" عميقاً في قلبي، أعتقد أن الثلاثة أبرياء. وأعتقد أن الأصغر نطق بالحقيقة. ولكن بما أننا

معنيون بجريمة خطيرة لا نستطيع أن نطلق سراح المشتبه بهم بسهولة. بالتالي، سأطلب من الله نفسه أن يكون قاضي الأخوة الثلاثة المخلصين ويقرر مصيرهم."

وهذا ما حدث. كان الفصل ربيعاً، واقتيد الأخوة الثلاثة إلى حقل أخضر في يوم مضيء دافئ. منح كل واحد منهم شجرة زيزفون قوية وفتية كي يزرعها. على أي حال، يجب على كل واحد منهم أن يضع شجرة الزيزفون بحيث يدخل تاجها في الأرض وجذورها نحو السماء. وحسب مرسوم القاضي، كل من تهلك شجرته وتذوي في البداية سيعتبر المجرم وسوف يعدم.

فعل الأخوة كما أمروا، وزرع كل منهم شجرته الصغيرة في الأرض بعناية كبيرة. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الأشجار الثلاث تمد جذورها وتشكل تيجاناً جديدة، مشيرة إلى أن الأخوة الثلاثة كانوا أبرياء. تابعت أشجار الزيزفون نموها إلى حجم كبير جداً وانتصبت طوال مئات السنين في مقبرة مشفى الروح القدس في برلين.

أغسطس

فقدت شابة تُدعى إليزابيث، تعيش في شارع موستاك، زوجها في حادث بعد زواجهما بوقت قصير، وهي تجلس الآن فقيرة ويائسة في غرفتها الصغيرة، على وشك أن تنجب طفلاً سيكون محروماً من الأب. ولأنها وحيدة تماماً، تابعت تفكيرها بالطفل الذي كانت تنتظره، وتحولت أفكارها إلى أمنيات وأحلام حول جميع الأمور الجميلة، والرائعة والمرغوبة التي أرادتها للطفل. منزل حجري بنوافذ بلّورية ونافورة في الحديقة بدا كافياً للصغير،أما بالنسبة لمستقبله، فينبغي أن يصبح بروفيسوراً أو ملكاً على الأقل.

وإلى جانب منزل إليزابيث كانت يعيش عجوز نادراً ما يظهر. كان صغير القامة يعتمر قبعة مزيّنة بشرابات على شعره الشائب ويحمل مظلة خضراء بأضلاع من عظم فك الحوت، كما في الأيام القديمة. كان الأطفال يخافون منه، واعتقد الكبار أن له، على الأرجح، أسبابه كي يعيش معزولاً. ولم يره أحد كثيراً فترات طويلة، ولكن أحياناً، وفي المساء، كانت تُسمع موسيقى غريبة تخرج من منزله الصغير الخرب، وكأن أدوات موسيقية صغيرة وحساسة تعزف. وحين يقترب الأطفال من المنزل، كانوا يسألون أمهاتهم فيما إذا كانت الملائكة أو الأرواح المائية تغني في الداخل. وعلى أي حال، لا يعرفن شيئاً عن ذلك وكن يجبن:" كلا، كلا، لابد أن هذا صندوق الموسيقى."

وهذا الرجل الصغير القامة، الذي كان جيرانه يدعونه السيد بينسسوانجر، جمعته صداقة غريبة مع إليزابيث. لم يتحدثا مطلقاً مع بعضهما بعضاً، ومع ذلك كان العجوز يحييها بود كلما عبر نافذتها، وكانت تهز له رأسها بامتنان، ذلك أنها أحبته كثيراً. وفكر كل منهما: إذا حدث ويئستُ واحتجتُ إلى المساعدة، سأذهب بالتأكيد إلى جاري التماساً للنصيحة. حين اسودّت الأيام، جلست إليزابيث إلى نافذتها وحيدة. كانت تندب زوجها الميت، وتفكر بطفلها الصغير، أو تنزلق في حلم يقظة.عندها يفتح السيد بينسسوانجر نافذته البابية بهدوء، فتتدفق الموسيقى الهادئة من غرفته المظلمة هادئة وفضية كضوء القمر عبر شق في الغيوم. بدورها، كان إليزابيث تعتني بنباتات إبرة الراعي للسيد بينسسوانجر عند نافذته الخلفية، وكان دائماً ينسى أن يسقيها. كانت خضراء دوماً ومزهرة ولم تذبل مطلقاً لأن إليزابيث كانت تعتني بها بحرص كل صباح.

وفي مساء أحد الأيام حينَ هبّت ريح عنيفة، وكان الخريف يجعل حضوره محسوساً ولا يمكن أن يرى أحد في شارع موستاك، أدركت المرأة المسكينة أن وقتها حان وكانت خائفة لأنها وحيدة.حين خيم الليل، على أي حال،وصلت عجوز، تحمل قنديلاً، إلى بابها، دخلت المنزل، غلت الماء، وضعت البياضات في ترتيب ملائم. فعلت كل ما ينبغي فعله من أجل ولادة طفل، وتركتها إليزابيث تقوم بكل شيء دون أن تتفوه بكلمة. وحين ولد الطفل وكان يستمتع بإغفاءته الأولى على الأرض، وقد وضع له حفاض جديد، سألت إليزابيث المرأة العجوز من أين أتت.

" أرسلني السيد بينسسوانجر" – قالت العجوز، ثم غفت إليزابيث المتعبة. حين استيقظت في الصباح، وجدت أن الحليب قد غُليَ وجهز لها. نظف كل شيء في

الغرفة ورتّب، وإلى جانبها كان يستلقي ابنها الصغير، الـذي كـان يبكـي معبراً عـن جوعه. لكن العجوز ذهبت فشدت الأم طفلها إلى صدرها وشعرت بالسعادة لأنـه جميل المنظر وقويٌّ. فكرت بوالده، الذي لم يعش لـيرى ولـده واغرورقـت عيناهـا بالدموع. ثم ضمت الطفل الصغير وأجبرت على الابتسام حين نـامت هـي وولدهـا مرة أخرى. حين استيقظت، لم يكـن هنـاك حليـب. طبـخ بعـض الحسـاء، وحفّـض الطفل من جديد.

وحالاً استعادت الأم صحتها وقوتها وتمكنت من الاعتنـاء بنفسـها بأغسـطس الصغير. وتدريجياً خطر لها أن طفلها يجب أن يُعمّد ولكن لم يكن هنـاك عـراب. وفي المساء حين كانت الظلمـة علـى وشـك أن تغطـي الشـوارع ودوّت الموسـيقى العذبة مرة أخرى من المنزل الصغـير المجـاور، ذهبـت لرؤيـة السـيد بينسسـوانجر ودقت بخوف على الباب الأسود.

" ادخلي"،- ناداها بصوت ودود،وحين اتجه نحوها، توقفت الموسـيقى فجـأة. كانت هناك في الداخل طاولة صغيرة وقديمة عليها مصباح وكتاب، وكان كل شيء آخر كما في منازل البشر الآخرين.

قالت إليزابيث: « جئت لأشكرك، لأنك أرسلت العجوز الطيبة إليَّ. سأدفع لها حالما أبدأ العمل من جديد وأكسب بعض النقود. ولكن الآن هناك شـيء آخـر في ذهني. يجب أن يُعمَّد الطفل، وأريد أن أسميه أغسطس على اسـم والـده. لكنـني لا أعرف أحداً هنا ولا أملك له عراباً .»

قال الجار وهو يداعب لحيته الشائبة:" نعم، أعرف، كنت أفكـر بذلـك أيضـاً"، سيكون جيداً إذا حصل على عراب لطيـف وغـني يمكـن أن يعتـني بـه إذا سـاءت

أمورك. لكنني مجرد عجوز وحيد، وأصدقائي قليلون في هذه الحارة. بالتالي، لا أستطيع أن أزكي لك أحداً إلا إذا قبلت أن كون عرابه."

ارتاحت الأم المسكينة حين سمعت هذا وشكرت الرجل الصغير القامة، الذي اختارته بالفعل كعراب. في يوم الأحد التالي حملا الطفل إلى الكنيسة وعمّداه. ظهرت المرأة العجوز كذلك مرة أخرى وأهدت الطفل طالراً - قطعة نقد فضية - حين رفضت إليزابيث قبوله، قالت العجوز:" من فضلك خذيه. أنا عجوز وأملك كل ما أحتاجه. ربما سيحضر له الطالر الحظ. إنها متعة لي أن أعمل معروفاً هذه المرة للسيد بينسسوانجر. نحن صديقان قديمان."

ثم عادوا سوية إلى المنزل، وأعدت إليزابيث القهوة لضيوفها. كان السيد بينسسوانجر قد أحضر كعكة وهكذا استمتعوا بوليمة تعميد حقيقية. حين أنهوا تناول الكعك وشرب كل شيء ونام الطفل، قال السيد بينسسوانجر بوقار: « والآن أنا عراب الصغير أغسطس، وأرغب بأن أقدم إليه هدية، قلعة ملكية أو كيساً مليئاً بالقطع الذهبية، لكنني لا أملك هذه الأشياء. أستطيع أن أقدم له طالراً فحسب، كما فعلت صديقتي الجيدة. في هذه الأثناء، سأفعل ما أستطيعه من أجله. ربما تمنيت يا إليزابيث كثيراً من الأمور الجميلة والجيدة لولدك. الآن، فكري بما تعتقدين أنه سيكون الشيء الأفضل له، وسوف أتأكد أن أمنيتك ستتحقق. تملكين أمنية واحدة مجانية لولدك، مهما أردت - ولكن واحدة فحسب. فكري بها جيداً، وحين تسمعين صندوق موسيقاي يعزف الليلة، يجب أن تهمسي أمنيتك في أذن صغيرك اليسرى، وسوف تتحقق».

وبعد ذلك غادر السيد بينسوانجر الغرفة بسرعة، وغادرت معه المرأة العجوز. بقيت إليزابيث وحدها، محتارة بشكل كامل. ولو لم يكن الطالران في مهد الصبي والكعكة على الطاولة لشعرت أنها في حلم. ثم جلست إلى جانب المهد وهدهدت طفلها فيما كانت تفكر وتتأمل أمنيات كثيرة وجميلة. أرادت في البداية أن يصبح أغسطس غنياً وأنيقاً أو قوياً جداً. ثم فكرت أنه ربما من الأفضل لو كان ذكياً ومتفوقاً، لكن الهواجس كانت تعتريها باستمرار.وفكرت أخيراً:" آه، لا بد أن العجوز الصغير يمزح معي."

كان الظلام قد خيّم، ونامت على كرسيها قرب المهد، منهكة من تسلية ضيوفها وقلقها وتفكيرها بأمنيات عدة، هذا إن لم يكن من أصوات الموسيقى الرائعة التي تنبعث من المنزل المجاور. كانت الموسيقى جميلة ومتقنة لا يستطيع أي صندوق موسيقى آخر أن ينتج الأصوات نفسها. حين سمعتها إليزابيث استعادت حواسها بسرعة وتذكرت كل ما حدث. وعادت إلى تصديق جارها بينسوانجر وهديته مرة أخرى. ومع ذلك كلما فكرت، تتشوش أفكارها.ونتيجة لذلك لم تستطع أن تقرر أي شيء فاكتأبت واغرورقت عيناها بالدموع. ثم بدأت الموسيقى تخفت وترق، وفكرت أنها إذا لم تتمن أمنية على الفور سيضيع كل شيء.

وهكذا تنهدت، انحنت فوق طفلها، وهمست في أذنه اليسرى، « يا طفلي الصغير، أتمنى - أتمنى»، وحين شارفت الموسيقى الجميلة على الانتهاء، خافت وقالت بسرعة:«أتمنى أن يحبك الجميع.»

توقفت الموسيقى وعمّ الغرفة هدوء مميت. قذفت نفسها على المهد وقد امتلأت بالخوف والقلق."آه،لقد تمنيت لك أفضل ما أعرفه، ولكن أشعر أنه ليس بالشيء الصحيح. حتى لو أحبك الجميع، فلن يستطيع أحد أن يحبك كأمك."

في السنوات التالية كبر أغسطس كالأطفال الآخرين. كان فتى جميلاً أشقر الشعر بعينين ناريتين متألقتين، ولقد دللته أمه وأحبه الجميع. وأدركت إليزابيث حالاً أن أمنيتها التعميدية لولدها قد تحققت. وبالفعل، ما إن تمكن الفتى الصغير من السير في الشوارع حتى وجده كل من صادفه جميل المنظر، وأنيقاً، وغير عادي، ولقد صافحه الجميع، وحدقوا في عينيه، وأرادوا أن يسدوا له معروفاً. ابتسمت له الأمهات الشابات وقدمت له العجائز التفاح، وحين كان يقوم بعمل شرير، لا يصدق أحد أنه فعل ذلك، و إذا تبيّن أنه المذنب، كان الناس يهزون أكتافهم قائلين: «حقاً لا نستطيع أن نلوم ذلك الفتى الصغير والظريف.»

والناس الذين انجذبوا إلى الفتى اللطيف جاؤوا لرؤية أمه كذلك. وحتى ذلك الوقت، لم يعرفها أحد، ولم تحصل إلا على بعض أعمال الخياطة.

على أي حال، أصبحت معروفة جيداً كأم أغسطس وصار لها مزيد من الزبائن أكثر مما تمنت. وسار كل شيء على ما يرام بالنسبة للفتى، أيضاً، وأينما ذهبا سوية، كان الجيران يُسرّون ويقدمون التحية وتلاحق أعينهم الاثنين السعيدين.

وأمضى أغسطس أفضل أيامه مع عرابه، الذي كان يدعوه أحياناً إلى المنزل في المساء حين يخيم الظلام. وكان الضوء الوحيد في الغرفة ينتج عن ألسنة لهبْ حمراء تشتعل في الفتحة السوداء للموقد. كان العجوز الصغير القامة يشد الفتى إليه على سجادة فرو على الأرض وينظر إلى اللهب ويروي له الحكايات. ولكن أحياناً

حين تنتهي قصة وينعس الصغير وينظر إلى النار بجفنين متهدلين في صمت الظلمة، تنبعث من الظلمة موسيقى عذبة متعددة النغمات، وحين يصغي الاثنان إليها وقتاً طويلاً، غالباً ما تمتلئ الغرفة فجأة بأطفال صغار متوهجين، يطيرون غدواً ورواحاً في دوائر بأجنحة ذهبية متوهجة، ويرقصون برشاقة حول بعضهم بعضاً في أزواج. كانوا يغنون أيضاً كأن مائة صوت يبتهج بحماسة وهدوء. كان هذا من أجمل ما سمعه أغسطس أو رآه، وحين فكر بطفولته فيما بعد كان ما صعد إلى ذاكرته هو غرفة عرابه المريحة المظلمة وألسنة اللهب الحمراء في الموقد مع الموسيقى والطيران الاحتفالي والذهبي للمخلوقات الملائكية.

في غضون ذلك كبر الفتى وجاءت أوقات حزنت فيها أمه وأجبرت على التفكير بليلة التعميد تلك بندم. كان أغسطس يجري في الحارة خالياً من الهموم ويلقى الترحيب في جميع الأمكنة. قدم له الناس الجوز، والحلويات، والدمى، وطعاماً وشراباً، وكان يلعب عند ركبهم، ويقطف الأزهار من حدائقهم. وكان غالباً ما يعود إلى المنزل ويدفع حساء أمه جانباً غير راغب بتناول الطعام. وحين تتضايق أو تبكي، كان يضجر من الأمر ويذهب إلى الفراش بمزاج سيئ. أما إذا وبخته أو عاقبته فقد كان يصرخ بكامل قوته ويقول إن الجميع لطفاء معه عدا أمه. وغالباً ما مرّت الأم في أوقات غم وغضب من ابنها. وفيما بعد، حين ينام واضعاً رأسه على المخدة وتلقي الشمعة شعاعاً على براءة وجهه الطفولي، تتلاشى المرارة من قلبها، فتقبله، وتحرص على ألا توقظه. كان خطأها هو أن الجميع يحبون أغسطس، وفكرت، في بعض الأحيان، بأسى وبعض الفزع، أنه كان الأفضل لو أنها لم تتمن تلك الأمنية.

وفي أحد الأوقات، وبينما كانت واقفة قرب نافذة السيد بينسسوانجر،وتقطع الأزهار الذابلة لنباتات ابنة الراعي بمقص، سمعت فجأة صوت ابنها في الساحة خلف المنزلين، ونظرت لترى ما يحدث. كان مستنداً إلى حائط بوجهه المتكبر الأنيق،وأمامه فتاة أكبر منه. نظرت إليه متوسلة وقالت:" هيا، كن ظريفاً وامنحني قبلة."

" لا أريد"- قال أغسطس، ووضع يديه في جيبه.

قالت مرة أخرى:" من فضلك، سأمنحك شيئاً رائعاً إذا فعلت ذلك."

"ماذا؟" - قال الصبي.

قالت بخجل:" لدي تفاحتان."

لكنه استدار مكشراً.

" لا أحب التفاح"- قال بقرف، وكان على وشك أن يجري.

لكن الفتاة أمسكت ذراعه بشدة وتوسلت إليه أكثر:" لدي أيضاً خاتم."

أرته الخاتم، ففحصه بانتباه. ثم نزعه من إصبعها، وضعه في إصبعه، رفعه في الضوء، وقرر أنه يحبه.

"حسناً، تستطيعين الحصول على قبلتك الآن" قال فجأة، وقبلها قبلة سريعة على فمها.

" ما رأيك أن تلعب معي الآن؟" طلبت منه بثقة، ووضعت ذراعها في ذراعه.

لكنه دفعها بعيداً وصرخ بمكر:" توقفي عن إزعاجي! اتركيني وحدي! أريد أن ألعب مع بعض الأصدقاء الآخرين."

بدأت الفتاة تبكي وتركت الساحة، بينما كان أغسطس ينظر إليها وثمة تعبير ضجر واستياء على وجهه. ثم أدار الخاتم في إصبعه وفحصه. وعلى الفور بدأ يصفر وسار مبتعداً عن المكان.

على أي حال، أمه التي كانت تقف هناك والمقص في يدها، ارتعبت من القسوة والاحتقار اللذين عامل بهما ولدها حب الفتاة. تركت الأزهار في مكانها، وهزت رأسها، وكررت:" إنه فعلاً شرير. لا يمتلك قلباً على الإطلاق!"

فيما بعد، حين جاء أغسطس إلى المنزل وبّخته، لكنه ضحك فحسب ونظر إليها بعينين زرقاوين، دون أن يبدي إشارة خطيئة. ثم بدأ يغني ويداهنها، وكان مضحكاً وظريفاً ورقيقاً معها مما أضحكها وجعلها تدرك أن الأطفال يجب ألا يعاملوا بجدية في جميع أمورهم.

في غضون ذلك لم ينج الفتى من العقاب بشكل كامل بسبب سوء تصرفه. وكان عرابه بينسسوانجر الوحيد الذي احترمه أغسطس، وحين ذهب إلى غرفة العجوز في المساء، قال العراب:" ليس هناك نار تشتعل الليلة، ولا موسيقى. الأطفال الملائكيون الصغار حزانى لأنك تصرفت بشكل سيئ." عندئذ ذهب أغسطوس إلى المنزل دون أن يتفوه بكلمة، قذف نفسه على الفراش وبدأ يبكي. فيما بعد، حاول جاهداً أن يكون جيداً ولطيفاً.

مع ذلك، قل اشتعال ألسنة اللهب في الموقد شيئاً فشيئاً، وصعبت رشوة العراب بالدموع والعناق. وحين وصل أغسطس إلى سن الثانية عشرة ، أصبح الطيران الملائكي في غرفة عرابه حلماً أكثر بعداً من أي شيء آخر. ومرة حين رأى

حلماً في غرفته ليلاً كان في اليوم التالي أكثر وحشية وصخباً بمرتين، وكجنرال في الجيش أمر زملاءه العديدين أن يقوموا بأفعال طائشة.

كانت أمه قد تعبت منذ مدة طويلة من سماع مديح الجميع لابنها ووصفهم له بأنه رائع وساحر. وفي الحقيقة، كان كل ما فعلته هو أنها قلقت عليه. وفي أحد الأيام، حين جاء أستاذه إليها وأخبرها أنه يعرف شخصاً عرض أن يرسل ولدها إلى مدرسة داخلية من أجل تعليمه، استشارت السيد بينسسوانجر. بعد ذلك بوقت قصير، في صباح ربيعي، جاءت عربة إلى المنزل، وأغسطس الذي ارتدى بذلة رائعة، صعد إليها بعد أن ودعَ أمه، وعرابه، والجيران لأنه كان ذاهباً إلى العاصمة كي يعيش ويدرس. فرقت أمه شعره الأشقر بأناقة للمرة الأخيرة وباركته. انطلقت الأحصنة وسار أغسطس في رحلته إلى عالم جديد ومجهول.

بعد مرور أعوام كثيرة وبعد أن أصبح أغسطس طالب كلية يعتمر قبعة حمراء وله شارب، عاد إلى المنزل لأن عرابه كتب إليه أن أمه لن تعيش طويلاً بسبب المرض. وصل الشاب في المساء، وراقبه الجيران مندهشين وهو يخرج من العربة، يتبعه سائقها حاملاً حقيبة جلدية ضخمة إلى داخل المنزل، حيث كانت أمه تستلقي وهي تحتضر في الغرفة القديمة ذات السقف الواطئ.وحين شاهد الشاب الأنيق وجهها الشاحب والذاوي على المخدات البيضاء وأنها لا تكاد تقدر على أن تحييه بعينين صامتتين، غاص على الأرض قرب فراشها وبدأ يبكي. قبل يدي أمه المترهلتين وركع إلى جانبها الليلة كلها إلى أن بردت يداها وانطفأت عيناها.

بعد أن دفنت أمه أمسكه عرابه بينسسوانجر من ذراعه ودخل معه إلى المنزل، الذي بدا للشاب كأنه أصبح أكثر صغراً وظلاماً. وبعد أن جلسا مدة طويلة وكانت

النوافذ الصغيرة تومض بشكل باهت في الظلام، داعب العجوز الصغير لحيته الشائبة بأصابعه النحيلة وقال لأغسطس: « أريد أن أشعل ناراً في الموقد وعندئذ لن نحتاج إلى المصباح. أعرف أنك يجب أن تغادر في الغد، وبما أن والدتك ماتت لن تعـود في القريب العاجل.»

حين قال ذلك، أشعل ناراً صغيرة في الموقد وقرّب كرسيّه المريـح منـه. مـرة أخرى جلسا مدة طويلة وراقبا العيدان المتوهجة إلى أن تلاشى اللهب. عندئـذ قـال العجوز بنعومة: « وداعاً يا أغسطس، أتمنى لك الخير. كانت لـك أم رائعـة، فعلـت من أجلك أكثر مما تعرف. كنتُ أودُّ أن أعزف لك الموسيقى مرة أخـرى وأريـك المخلوقات الصغيرة المباركة، لكن هذا لم يعد يعمل. مع ذلك، يجب ألا تنسـاهم، ويجب أن تتذكر أنهم لا يزالون يغنون وأنك يمكن أن تكون قادراً على سماعـهم مرة أخرى إذا حدث وشعرت بتوق عميق إليهم بقلب وحيد. أعطني يدك، يـا ابـني. أنا عجوز، ويجب أن أذهب إلى النوم.»

صافحه أغسطس ولم يستطع أن يتفـوه بكلمـة. سـار بحـزن عـبر الطريـق إلى المنزل الصغير المهجور واستلقى كي ينام للمرة الأخـيرة في منزلـه القديـم. ولكـن قبل أن ينام، ظن أنه سمع الموسيقى الناعمة العذبة لطفولته مـرة أخـرى مـن بعيـد. في صباح اليوم التالي غادر، ولم يُسمع عنه أي شيء فترة طويلة.

وحالاً نسيَ أغسطس حتى العراب بنسـوانجر وملائكتـه. دفعتـه بعيـداً حيـاةُ ترف، امتطى أمواجها. لم يستطع أحد أن يضاهي الطريقة التي سار بها في الشوارع الصاخبة، يحيي الفتيات المنتبهات بنظرة احتقار. لم يستطع أحد أن يرقص برشـاقة وبهجة كما فعل، ويسوق عربة بنعومة ورشاقة، أو يسرف في شرب الخمر بصخب

وتباه في حديقة في ليلة صيفية. وبالإضافة إلى ذلك أصبح أغسطس عاشقاً لأرملة غنية كانت تقدم له النقود، والملابس، والأحصنة، وكل ما يحتاجه أو يريده. سافر معها إلى باريس وروما ونام تحت أغطيتها الحريرية. وكان حبه الحقيقي، على أي حال، هو للابنة الناعمة الشقراء لمواطن مستقيم، وجازف بحياته لكي يزورها ليلاً في حديقة والدها. وكانت تتابع تواصلها معه كاتبة رسائل هيام طويلة ترسلها إلى أي مكان يذهب إليه.

ولكنه لم يعد في إحدى المرات. عثر على أصدقاء في باريس، وبما أنه تعب من الأرملة الغنية وعامل دراساته منذ فترة طويلة كشيء مزعج، بقي بعيداً جداً في فرنسا واستمتع بحياة المجتمع الرفيع. ربى الأحصنة، الكلاب، والنساء. ربح وخسر مبالغ كبيرة من المال، وكان البشر يطاردونه في جميع الأمكنة، يقدمون حياتهم لحاجاته، وكانوا في خدمته. ولقد ابتسم وقبل كل شيء، كما قبل منذ مدة طويلة خاتم الفتاة حين كان صبياً. كان سحر الأمنية في عينيه وعلى شفتيه. غمرته النساء بالرقة، وتحمس له أصدقاؤه بعنف، ولم ير أحد - هو لم يكد يلاحظ ذلك - كيف أصبح قلبه فارغاً وجشعاً وكيف كانت روحه مريضة وتتخبط في الألم. أحياناً كان يتعبه أن يحبه الجميع فيذهب وحيداً ومتنكراً إلى مدن أجنبية. ومع ذلك، في جميع الأمكنة التي كان يذهب إليها، وجد أن البشر حمقى ومن السهل التغلب عليهم. وفي الحقيقة، وجد أن الحب أصبح سخيفاً وهو يتابع مطاردته بحماسة ومع ذلك كان راضياً بالقليل. وغالباً ما كان يشمئز من النساء والرجال لأنهم لا يظهرون المزيد من الكبرياء، ويمضي أيامه كلها مع الكلاب يصطاد في أقاليم الجبال

الجميلة. وإذا حدث وطاف بحثاً عن الطرائد واصطاد أيّلاً كان يجعله أكثر سعادة من أن يتودد إلى امرأة جميلة مدللة.

في إحدى المرات، وبينما كان في رحلة بحرية، شاهد زوجة سفير شابة، وهي سيدة صارمة ورائعة من طبقة النبلاء الجرمانية الشمالية، تقف بين سيدات أخريات متميزات كثيرات ورجال عالميين. وكان واضحاً أنها أكثر إثارة بينهم، متكبرة وهادئة، ولا نظير لها. وبينما كان يترصدها، لاحظ أنها تسترق النظر إليه كذلك، بشكل عابر ولا مبال. وبدا الأمر كأنه شعر للمرة الأولى أن الحب موجود، وصمم على أن يحظى بحبها. ثم بدأ يقترب منها ويقف في مدى نظرها، ولأنه هو نفسه كان محاطاً بالنساء والرجال المعجبين به دائماً والذين ينشدون صحبته، كان هو والسيدة الصارمة يوضعان منفصلين في مركز انتباه المسافرين الآخرين، كأمير وأميرة. حتى زوج السيدة الشقراء عامله بانتباه وحاول أن يسرّه.

وكان عملياً من المستحيل على أغسطس أن يكون وحيداً مع هذه المرأة الهامة إلى أن تبحر السفينة إلى ميناء مدينة جنوبية، وينزل جميع المسافرين لبضع ساعات كي يسيروا في المدينة الأجنبية ويشعرون ببعض التراب تحت أقدامهم مرة أخرى. لم يتزحزح أغسطس من جانب محبوبته وأخيراً نجح في جرها إلى محادثة في ضجيج سوق. كان هناك العديد من الأزقة الصغيرة المظلمة متصلة بالسوق،لكنه لم يقدها إلى أحد هذه الأزقة، ذلك أنها لا تمتلك سبباً يجعلها تثق به. مع ذلك، حين وجدت نفسها فجأة وحيدة معه، ودون رفاقها، جبنت، بينما أمسك أغسطس، بلهفة، يديها المترددتين بيديه وتوسل إليها أن تبقى على اليابسة وأن تهرب معه إلى مكان ما.

شحبت الشابة وأبقت عينيها مثبتتين على الأرض وقالت: «آه، ليس هذا تصرف سادةٍ».

رد أغسطوس:« لستُ سيداً! أنا عاشق، والعاشق لا يعرف أي شيء سوى حبيبته ولا يشغله أي شيء سوى أن يكون معها. يا لك من امرأة جميلة! هيا معي، وسوف أجعلك سعيدة.»

نظرت إليه بجدية وتوبيخ بعينيها الزرقاوين المتألقتين وهمست بحزن: «كيف تعرف أنني أحبك. لا أستطيع أن أكذب - أنا أحبك وغالباً ما تمنيت أن تكون زوجي، لأنك كنت أول رجل أحببته من كل قلبي. آه كيف يضيع الحب بسرعة ويضل طريقه! لم أعتقد أبداً أنه من الممكن بالنسبة إلي أن أحب رجلاً ليس نقياً أو جيداً. لكنني أفضل ألف مرة أن أبقى مع زوجي على أن أذهب معك، رغم أنني لا أحبه كثيراً. إنه سيد وفي غاية الشرف والفروسية، وهي صفات لا تتوفر فيك. والآن لا تقل لي كلمة واحدة، وإنما أعدني إلى السفينة، وإلا سأنادي بعض الناس كي يحموني من سلوكك التطفلي».

وعلى الرغم من توسل أغسطس واحتجاجه، ابتعدت عنه، وكانت ستسير وحدها لو لم يركض خلفها ويرافقها صامتاً إلى السفينة. وحالما وصل إلى هناك، طلب إحضار حقائبه إلى الشاطئ ولم يودِّع أحداً.

ومنذ ذلك الوقت بدأت ثروات ذلك الرجل المحبوب جيداً تنحدر. بدأ يكره الفضيلة والشرف وداسهما بقدميه، وكان يستمتع بإغواء النساء الفاضلات مستخدماً جميع الخدع السحرية التي بحوزته، ولقد استغل الرجال الذين لم يشتبهوا به والذين كسبهم كأصدقاء بسرعة، فقط كي يطرحهم باحتقار. دفع النساء والفتيات

إلى البؤس، ثم أنكر أية علاقة له بسقوطهن، ونشد شباناً من أسر نبيلة، ضللهم وأفسدهم. جرّب جميع أنواع المتع إلى حد الإعياء، ولم يكن هناك رذيلة إلا وتعلمها ثم هجرها. ولكن لم تعد هناك متعة في قلبه، ولم يستجب شيء في روحه إلى ذلك الحب الذي كان يجذبه أينما ذهب.

عاش كئيباً وموسوساً في منزل ريفي جميل قرب البحر، وكان يعذب النساء والأصدقاء الذين يزورونه إلى هناك بنزواته الوحشية وأفعاله الماكرة. كان يستمتع بإذلال الناس وبأن يظهر لهم كم يحتقرهم. وبعد أن أشبع، شعر بالمرض وتعب من زيارة الآخرين، من حاجتهم إليه، ومنح حبهم له، ولم يعد يهتم بالأمر. أحس أنّ حياته الفاسقة والمنحطة بلا جدوى، وكذلك الطريق الذي سلكه دائماً ولم يمنح أي شيء مطلقاً. أحياناً كان يصوم لبعض الوقت، فقط لكي يقدر أن يشعر برغبة نهمة مرة أخرى ويرضي شهواته.

انتشرت الأنباء بين أصدقائه أنه مريض ويحتاج إلى الهدوء والراحة. جاءت الرسائل، لكنه لم يقرأها مطلقاً، والناس الذين قلقوا عليه سألوا خدمه عن صحته. كان يجلس وحيداً، على أي حال، متضايقاً جداً، في منزله الذي يطل على البحر. واستلقت حياته مخربة وفارغة خلفه، كانت عارية دون أي أثر للحب، كماء البحر الرمادي غير المتموج. وبدا كريهاً وهو يجلس محنياً في كرسيه عند النافذة ويفكّر. كانت النوارس البيضاء تندفع في الريح على الشاطئ. تبع مسار طيرانها بنظرة فارغة، تخلو من المتعة والاهتمام. افترت شفتاه عن ابتسامة قاسية وماكرة وحسب، وحين أنهى أفكاره وقرع الجرس ليستدعي خادمه، أمره أن يوجه دعوات إلى أصدقائه لكي يحضروا حفلة سيقيمها في يوم محدد. كان ينوي أن يرعبهم ويسخر

منهم وذلك بأن يتحداهم حين يصلون ليشاهدوا منزله الفارغ وجثته. وبالفعل قرر أن ينهي حياته بالسم قبل مجيئهم.

وفي المساء المقرر للحفلة، أرسل جميع الخدم من المنزل، فعم الهدوء التام غرفه الكبيرة. ثم دخل غرفة النوم، وضع سماً قوياً في كأس من النبيذ القبرصي، ورفعه إلى شفتيه. وبينما كان على وشك أن يشربه، سمع قرعاً على الباب. وحين لم يفتح، انفتح الباب، ودخل رجل عجوز صغير القامة. اتجه مباشرة إلى أغسطس، أخذ الكأس من يده بحرص، وقال بصوت مألوف جداً:" مساء الخير يا أغسطس. كيف حالك؟"

ابتسم أغسطس مندهشاً، ومتضايقاً، ونوعاً ما شاعراً بالعار، وقال:" لماذا، هل ما تزال حياً يا سيد بينسسوانجر؟ لقد مر وقتٌ طويل، وفي الحقيقة لا يبدو أنك تقدمت في السن. لكنك تزعجني في هذه اللحظة، يا عزيزي. أنا متعب وكنت على وشك أن أتناول جرعة للنوم."

أجاب عرابه بهدوء: « فهمت، تريد أن تتناول جرعة منومة، وأنت على صواب. إنه آخر نوع من أنواع الخمرة يمكن أن يساعدك. ولكن قبل أن تتناوله دعنا نتحدث قليلاً يا ولدي. وبما أنني سافرت مسافة طويلة، لن تغضب مني إذا أنعشت نفسي بكأس صغير».

حين قال ذلك أخذ الكأس ورفعه إلى شفتيه،وقبل أن يستطع أغسطس منعه، كان قد رفع الكأس عالياً وشربه بجرعة واحدة سريعة.

بدا على أغسطس شحوب الأموات. اندفع إلى عرابه، هزه من كتفيه وصرخ بصوت حاد: « أيها العجوز أتعرف ما الذي شربته الآن؟»

هز السيد بنسسوانجر رأسه الحكيم الشائب وابتسم. « إنه نبيـذ قـبرصي، وهـو ليس سيئاً. لكنني أملك وقتاً قليلاً فحسب، ولا أريد أن أحجزك طويلاً إذا أصغيـت إلي فحسب».

مرتبكاً، تابع أغسطس النظر إلى عرابه وثمة رعب في عينيه اللامعتين، متوقعاً أن ينهار في أية لحظة. في غضون ذلك، جلـس عرابـه بارتيـاح علـى كرسـي وهـز رأسه بلطف لصديقه الشاب.

" هل أنت متضايق من أن كأس النبيذ سيؤذيني؟ استرخ فحسب! ظريف منـك أن تقلق عليَّ - ما كنت لأتوقع هذا مطلقاً. لكن دعنا نتحدث الآن كمـا كنـا نفعـل سابقاً! يبدو لي أنك شبعت من الحياة المريحة. أستطيع أن أفهم هذا، وحين أغـادر، بوسعك أن تملأ كأسك من جديد وتشربه. ولكن قبل ذلك، يجب أن أطلعك علـى أمر ما."

استند أغسطس على الحائط وأصغى إلى الصوت اللطيف والظريـف للعجـوز قصير القامة. وأحضر الصوت المألوف من طفولته إلى الحياة ظـلال المـاضي الـتي استطاع أن يتخيلها في ذهنه. قبض عليه الأسى والخجل العميق، وكأنه كـان بـالفعل يشاهد طفولته البريئة.

تابع العجوز:"شربت سمّك لأنني أنا المسؤول الوحيد عـن بؤسـك. فحـين تم تعميدك تمنت أمك أمنية، ولقد حققتها رغم أنها كانت حمقاء. ليسـت لـك حاجـة لمعرفتها. لقد أصبحت لعنة، كما عرفت بنفسك. أنا آسف أن الأمور سـارت علـى هذا النحو، وسأكون سعيداً لو أستطيع أن أحيا كـي أراك تجلس معـي في المـنزل قرب الموقد مرة أخرى وتصغي إلى الملائكة وهي تغني. لـن يكـون الأمـر سـهلاً،

وفي هذه اللحظة يمكن أن يبدو مستحيلاً لك أن يصبح قلبك مـرة أخـرى معـافى، ونقياً، ومبتهجاً.لكن هذا ممكن، وأطلب منك أن تحاول ذلك.لقد كلفتك أمنية أمك المسكينة كثيراً يا أغسطس. كيف سيكون الأمر لو منحتك أمنية أخـرى، أيـة أمنيـة تريد؟ لا أعتقد أنك تتمنى النقود والأملاك أوالسلطة أو حب النسـاء. لقـد حصلـت على ما يكفي من هذا كله. فكر بـالأمر جيـداً، وحـين تعتقـد أنـك عرفـت السـحر الصحيح الذي سيجعل حيـاتك المحطمـة أفضـل وجميلـة ويجعلـك سـعيداً مـرة أخرى، عندئذ لك أن تتمنى لنفسك؟"

جلس أغسطس مستغرقاً في تفكير عميق ولم يجب. كان متعباً ويائسـاً جـداً، ولكنه قال بعد برهة:" شكراً لك أيها العراب بنسسوانجر. على أي حـال، أعتقـد أن حياتي متشابكة وليس هناك مشط في العالم يقدر أن يحلها. مـن الأفضـل أن أفعـل ما نويت أن أفعله حين دخلت. ولكنني مع ذلك أريد أن أشكرك على قدومك."

قال العجوز باحتشام:" نعم، أستطيع أن أفهم أن هذا ليس سهلاً بالنسبة إليك يا أغسطس. لكن ربما لا تزال قادراً على إعادة التفكير وتذكر ما كنت تفتقد إليه أكثر من أي شيء آخر. أو ربما تستطيع أن تتذكر الأيام الأولى حـين كـانت والدتـك لا تزال حية وكنت تأتي إلي أحياناً في المساء. ألم تكن سعيداً أحياناً آنذاك؟"

«نعم، لكن هذا حدث منذ وقـت طويـل.» هـز أغسـطس رأسـه،وجـاءت إليـه صورة شبابه المتألق من بعيد، كانعكاس ضعيف، وكأنه قادم من مرآة أثرية. «ولكن هذا لا يستطيع العودة. ولا أقدر أن أتمنى أن أكون طفلاً من جديـد. لمـاذا، عندئـذ سيبدأ كل شيء من جديد!».

" أنت مصيب تماماً. لن يكون لهذا أي معنى. ولكن فكر مرة أخـرى بـالوقت الذي كنا فيه سوية في المنزل، وبالفتاة المسكينة التي كنت تزورها ليـلاً كطـالب في حديقة والدها، وبالسيدة الشقراء الجميلة التي سافرت معها مرة علـى ظـهر سـفينة،

فكّر بجميع تلك اللحظات التي كنت فيها سعيداً، حين بدت الحياة جيدة وثمينة. ربما تستطيع أن تتعرف على ما جعلك سعيداً في أثناء تلك الأيام وتتمناه. افعل ذلك أيها الفتى. افعل ذلك من أجلي!"

أغمض أغسطس عينيه وتذكر حياته كما ينظر المرء من ممر مظلم إلى نقطة ضوء بعيدة من حيث جاء المرء، وشاهد مرة أخرى كيف كان كل شيء متألقاً وجميلاً حوله في إحدى المرات ثم أصبح تدريجياً أكثر سواداً إلى أن وقف في الظلمة المدلهمة ولم يعد بوسعه أن يكون سعيداً حيال أي شيء. وكلما تأمل وتذكر، تبدو بقعة الحياة الصغيرة والبعيدة الأكثر جمالاً ورغبة وحباً كأنها تتلألأ له، وأخيراً يتعرف عليها،وتندفع الدموع من عينيه.

قال لغرابه:" سأجرب ذلك. خذ السحر القديم. لم يساعدني مطلقاً. وبدلاً منه امنحني قوة على حب الناس!"

باكياً ركع أمام صديقه العجوز،وشعر بحبه للعجوز يشتعل في داخله وصارع كي يعبّر عنه في كلمات وإيماءات منسية. لكن عرابه العجوز صغير القامة حضنه بلطف بين ذراعيه وحمله إلى السرير. هناك مدده ودلك شعره من جبينه الساخن.

وهمس بنعومة لأغسطس:" كل شيء على ما يرام يا ولدي. كل شيء سيصبح جيداً."

وشعر أغسطس بأنه منهك من الإعياء وكأنه كبر سنوات طويلة في لحظة. غرق في نوم عميق، وترك العجوز المنزل المهجور بصمت.

في اليوم التالي، أيقظ أغسطس صخب وحشي دوّى في المنزل كله، وحين نهض وفتح باب غرفة النوم، وجد أن القاعة وجميع الغرف امتلأت بأصدقائه السابقين، الذين جاؤوا إلى الحفلة ووجدوا المنزل مهجوراً. كانوا غاضبين وخائبي الأمل، وحين خرج إليهم كي يتملقهم كالعادة بابتسامة أو نكتة، شعر فجأة أنه فقد

القدرة على القيام بذلك. وما إن شاهدوه حتى بدأوا يصرخون به بشكل متزامن، وحين ابتسم يائساً ومد يديه دفاعاً عن النفس، هجموا عليه غاضبين.

صاح أحد الأشخاص: «أيها الأخرق. أين المال الذي أقرضتك إياه؟» وأضاف آخر: « أين الحصان الذي استعرته مني؟» وقالت امرأة جميلة غاضبة: «يعرف العالم كله الآن أسراري التي ثرثرت عنها. آه، كم أكرهك أيها الوحش!» وصرخ شاب مجوف العينين بوجه مشوه: «أتعرف ماذا جعلت مني؟ إنك شيطان، مفسد الشباب!».

واستمر الأمر هكذا، وصبَّ الجميع إهانات ولعنات عليه،وكان الجميع على حق،وضربه كثيرون، وتركوا مرايا محطمة خلفهم حين رحلوا وأخذوا مواد كثيرة ثمينة. نهض أغسطس عن الأرض، مضروباً ومهاناً،ثم دخل إلى غرفة النوم ونظر في المرآة كي يغسل نفسه، ونظر إلى وجهه المجعد والدميم، وإلى العينين الحمراوين اللتين تنزان دموعاً، وإلى الدم الذي ينزف من جبينه.

«أستحق ذلك،» قال لنفسه وغسل الدم عن وجهه. وما إن صحا ذهنه قليلاً حتى سمع الصخب يبدأ مرة أخرى في المنزل، ودخل البشر يقتحمون الدرج: المرابون الذين يملكون رهن المنزل، زوج قام بإغواء زوجته، آباء دفع أبناءهم إلى حياة الرذيلة والبؤس، خدم وخادمات طردهم، شرطي ومحامون. بعد ساعة، جلس مقيد اليدين في سيارة دورية وأخذ إلى السجن. وخلف السيارة كان البشر يصرخون ويغنون ساخرين منه. ومن نافذة زنزانته رمى غلام من غلمان الأزقة حفنة تراب على وجهه.

امتلأت المدينة بتقارير عن جرائم مشينة ارتكبها هذا الرجل الذي كان يعرفه ويحبه كثير من البشر. اتهم بكل ما يخطر على الذهن من ذنوب ولم ينكر واحداً.والناس الذين نسيهم منذ وقت طويل وقفوا أمام القضاة واتهموه بأمور قام بها

منذ أعوام كثيرة. والخدم الذين قدم إليـهم الهدايـا والذيـن سـرقوا منـه، كشـفوا عـن رذائله السرية. امتلأت جميع الوجـوه بـالقرف والكراهيـة ولـم يدافـع أحـد عنـه، أو يمدحه، أو يبرئه. وفي الحقيقة، لم يذكر أحد شيئاً جيداً عنه.

ترك جميع الأمور تحدث، وترك نفسه يقاد إلى الزنزانة وخارجها أمام القضاة والشهود. مشوشاً وحزينـاً، حـدق بعينـين مريضـتين إلى الوجـوه الكثـيرة الغاضبـة، المنزعجة، والمحتقرة، ورأى في كل منها سحراً مخبأ وشرارة عطف تومـض تحـت الكراهية والتشوه. لقد أحبه جميع هؤلاء البشر في إحـدى المرات، ولـم يحـب أيـاً منهم. والآن توسل من أجل صفحهم ونشد أن يتذكر شيئاً ما جيـداً عـن كـل واحـد منهم.

وفي النهاية سجن ولم يسمح لأحد بزيارته. وهكذا تحدث في أحلام محمومة مع أمه، وعاشقته الأولى، ومع العراب بنسسوانجر، والسيدة الجرمانية الشمالية على السفينة. وحين استيقظ وجلس وحيداً وضائعاً في أثناء تلـك الأيـام المريعـة، عـانى من جميع آلام الحنين والهجر، وحنَّ إلى رؤية البشر وكأنه لم يحنّ مطلقـاً إلى أي نوع من أنواع المتعة طيلة حياته.

وحين أطلق سراحه من السجن، كان مريضاً وعجوزاً، ولم يعد يتعـرف عليـه أحد. كان العالم لا يزال يتابع طريقه والبشر يقودون ويركبون في الشوارع. وكـانت الثمار والأزهار، والألعاب والصحف تُباع في جميع الأمكنة. لكـن لم يلتفت أحـد كي يتحدث مع أغسطس. كانت النساء الجميلات اللائي عانقهن مرة وهـو يسـتمتع بالشمبانيا والموسيقى يعبرن قربه في عرباتهن ويتركنه خلفهن في الغبار.

مع ذلك، لم يعد يشعر بالفراغ والعزلة المريعة التي خنقته حـين عـاش حيـاة ترف. وحين كان يتوقف لحظة عند بوابة منزل لكي يحتمي من حرارة الشـمس، أو

حين يطلب ماء للشرب في ساحة أحد الأبنية، كان يدهشه أن يرى كم البشر متضايقون وغير مضيافين، وهم الذين استجابوا سابقاً لكلماته المتعجرفة والقاسية بامتنان وأعين متألقة. مع ذلك، فتنه منظر جميع الأشخاص وأثر به. أحب الأطفال الذين رآهم يلعبون ويذهبون إلى المدرسة، وأحب العجائز الذين يجلسون على المقاعد أمام منازلهم الصغيرة يدفئون أيديهم ذات التجاعيد تحت الشمس. وإذا حدث وشاهد شاباً صغيراً يتبع فتاة بعينين مشتاقتين، أو عاملاً يحضن أولاده بذراعيه حين يعود إلى المنزل في نهاية النهار، أو طبيباً ذكياً ورائعاً يقود سيارته بصمت وسرعة ويفكر بمرضاه، أو عاهرة، بسيطة اللباس تنتظر عند عمود مصباح في المساء على حافة المدينة وحتى تقدم له، هو المنبوذ، حبها - عندئذ يصبح جميع هؤلاء الناس أخوته وشقيقاته. يحمل كل واحد منهم ذكرى أم محبوبة وماض أفضل، أو علامة سرية عن مصير أكثر جمالاً ونبلاً، وكان الجميع عزيزين عليه ومهمين ويمنحونه شيئاً يفكر به. وبالفعل، شعر أن لا أحد أكثر سوءاً مما كان عليه.

قرر أغسطس أن يتجول في جميع أنحاء العالم ويبحث عن مكان يستطيع فيه أن يفيد الناس بطريقة ما وأن يظهر لهم حبه. واعتاد على حقيقة أن مظهره لم يعد يسعد البشر، وتجوف خداه وكانت ثيابه كثياب شحاذ. وحتى صوته ومشيته فقدا السحر الذي كان يسرّ الناس. وكان الأطفال يخافونه بسبب لحيته الطويلة والخشنة التي تتدلى على ذقنه. وكان الناس الذين يرتدون ملابس جيدة يبتعدون عنه لأنهم سيشعرون بالقلق والاتساخ إذا اقتربوا منه. ولم يثق به الفقراء لأنهم اعتبروه متطفلاً يمكن أن يسرق قطعاً من طعامهم. بالتالي، وجد من الصعوبة أن يخدم أحداً، لكنه تعلم كيف يساعد ولم يُحبط. في إحدى المرات شاهد طفلاً يمد يده عبثاً ليصل إلى قبضة باب مخبز فرفعه. كان هناك أحياناً بشر أمورهم أكثر سوءاً من أموره،

عميان أو مرضى، وكان يساعدهم ويقوم بعمل جيد لهم. وحين لا يستطيع أن يساعدهم يمنحهم بفرح القليل الذي يملكه - نظرة متألقة لطيفة وتحية أخوية، إيماءة فهم وتعاطف. وطول الطريق تعلم أن يعرف من ملامح البشر ما يتوقعونه منه وما سيجعلهم سعداء. كان البعض يحتاج إلى تحية تلقائية مرتفعة، وآخرون إلى نظرة صامتة، بينما آخرون يريدون أن يُتركوا لوحدهم، دون أن يزعجهم أحد. وكان يذهل كل يوم حين يرى حجم البؤس في العالم ومع ذلك كان البشر قانعين، ووجد أنه من الملهم والرائع أن يجرب مرة بعد أخرى كيف يعقب الأسى ضحك ممتع، وتتبع ناقوس الموت أغنية الأطفال، أو يتبع كل مأزق وعمل قذر، عمل لطيف وبسيط، نكتة، كلمة مريحة، أو ابتسامة.

بدا كأن البشر يرتبون حياتهم في طرق مميزة.حين ينعطف عند زاوية ويرى مجموعة من طلاب المدارس مندفعة نحوه، كان يتعجب من شجاعتهم وحماستهم للحياة وجمال الشباب الذي يتلألأ في أعينهم. وإذا أثاروه أو ضايقوه قليلاً، لا يكون ذلك سيئاً - يستطيع حتى أن يفهمه. وحين رأى صورته منعكسة على زجاج مخزن أو نافورة ماء، وجد أنه يبدو رث الثياب ومليئاً بالتجاعيد. كلا، بالنسبة إليه لم تعد المسألة مسألة إمتاع الناس أو استخدام القوة. لقد جرب ما يكفي من ذلك. واكتشف أنه شيء رائع وعظيم أن يرى كيف يصارع البشر الآخرون ويتلمسون طريقهم على تلك الممرات التي سلكها مرة وكيف يلاحق الجميع أهدافهم بحماسة، وقوة، وكبرياء، ومتعة. كان هذا بالنسبة إليه مسرحية رائعة.

في غضون ذلك جاء الشتاء وذهب وحل الصيف. استلقى أغسطس مريضاً فترة طويلة في مشفى خيري، وهناك استمتع بصمت وامتنان بمتعة رؤية البشر الفقراء والمداسين يتمسكون بالحياة بكامل قوتهم وهيامهم ويتغلبون على الموت. كان عجيباً رؤية صبر أولئك المصابين بأمراض مريعة.ثم هناك الهيام القوي بالحياة

والتألق في أعين أولئك البشر الذين كانوا يتماثلون للشفاء. وكان جميلاً كذلك رؤية الوجوه الصامتة والجليلة للموتى. وما أعجبه أكثر هو حب وصبر الممرضات الجميلات. لكن هذه الفترة انتهت أيضاً. هبّت رياح الخريف، وانطلق أغسطس في تجواله فيما كان الشتاء يقترب. وهيمن عليه فقدان للصبر غريب حين رأى كم كان مسيره بطيئاً، وهو لا يزال يريد أن يسافر ويلتقي بكثير من البشر وجهاً لوجه. شاب شعره وكانت عيناه تبتسمان بخجل خلف جفنيه الحمراوين والمصابين، وتدريجياً بدأ يفقد ذاكرته بحيث بدا له كأنه لم ير العالم مختلفاً عما كان عليه في ذلك اليوم الخاص. لكنه اقتنع ووجد العالم أكثر عظمة وجديراً بالحب.

وفي مستهل الشتاء وصل إلى مدينة، وكان الثلج متراكماً في الشوارع المظلمة. ورغم أن الوقت متأخر، كان هناك بعض الصبية يتجولون ويرمون كرات الثلج على المتجول. فيما عدا ذلك، كان حجابٍ من الصمت يلف المدينة. كان أغسطس متعباً جداً. جاء إلى شارع ضيق بدا مألوفاً جداً له، ثم إلى آخر. توقف فجأة أمام منزل والدته، وإلى جانبه كان منزل عرابه. كلاهما صغير وقديم، ومغطى بالثلج البارد. كان هناك ضوء يومض في إحدى نوافذ منزل العراب توهج بالأحمر وبدا هادئاً في ليل الشتاء.

دخل أغسطوس وقرع باب حجرة الجلوس. فجاء إليه الرجل الصغير وقاده إلى الغرفة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كانت الغرفة دافئة وهادئة، وثمة نار صغيرة متألقة تشتعل في الموقد.

"هل أنت جائع؟" - سأله العرّاب. لكن أغسطس لم يكن جائعاً. ابتسم فحسب وهزّ رأسه.

"لكنك متعب بالتأكيد." تحدث عرّابه مرة أخرى وفرش سجادته الفرائية القديمة على الأرض. جلس العجوزان إلى جانب بعضهما بعضاً ونظرا إلى النار.

" لقد قطعت مسافة طويلة." قال العراب.

" آه، كانت جميلة جداً، لكنني تعبت قليلاً. هل تسمح لي بالنوم هنا؟ سوف أذهب غداً."

"نعم، تستطيع. لكن ألا تحب أن ترى الملائكة يرقصون مرة أخرى؟"

" الملائكة؟ آه، نعم، بالتأكيد أريد ذلك، إذا أصبحت طفلاً مرة أخرى."

قال العراب:" لم نر بعضنا منذ زمن طويل. أنت أنيق جداً. عيناك لطيفتان ورقيقتان مرة أخرى، كما كانتا في الأيام القديمة حين كانت أمك على قيد الحياة. إنه لطف منك أن تزورني."

تداعى المتجول، الذي يرتدي ثياباً ممزقة،وهو يجلس إلى جانب صديقه. لم يكن مصاباً بالإعياء هكذا من قبل، وجعله دفء النار وتوهجها الظريفان مشوشاً بحيث لم يعد يستطيع أن يميز بوضوح بين اليوم وأمس.

قال:" أيها الأب بنسسوانجر. لقد صرت شريراً مرة أخرى، وأمي صرخت في المنزل. يجب أن تتحدث معها وتقول لها إنني سأصبح جيداً. هل ستفعل ذلك؟"

قال العراب:" سأفعل. لا تقلق. إنها تحبك كثيراً."

تضاءلت النار وحدق أغسطس في التوهج الباهت بعينين مخدرتين وكبيرتين، كما فعل في أثناء طفولته منذ وقت طويل. وضع العراب رأس أغسطس في حضنه، ودوّتْ موسيقى هادئة ومرحة في الغرفة ثم عامت ألف روح نورانية في الجو ودارت برشاقة حول بعضها بعضاً في أزواج. وراقب أغسطس وأصغى بحساسية حادة وانفتاح طفل للفردوس المستعاد.

بدا له في نقطة ما كأنه سمع أمه تناديه، لكنه كان متعباً ولا يستطيع أن يرد، وكان عرابه قد وعد أن يتحدث معها. وحين نام، طوى عرابه يديه وأصغى إلى قلبه إلى أن توقف، وكانت الغرفة مغلفة بالظلمة بشكل كامل.

الشاعر

هناك قصة تُروى عن شاعر صيني يدعى هان فوك، استحوذت عليه حين كان شاباً رغبةٌ عجيبةٌ في تحصيل المعرفة وذلك لكي يصبح كاملاً في كل شيء يتعلق بفن الشعر. في ذلك الوقت كان لا يزال يعيش في بلدته الواقعة على النهر الأصفر، ولقد أحب فتاة شابة من أسرة جيدة وخطبها بمساعدة والديه اللذين كانا يحبانه كثيراً. وكان موعد الزفاف سيحدد في الحال في يومٍ قيلَ بأنه ميمون. كان الشاعر شاباً أنيقاً ومتواضعاً، حسن السلوك وذا ثقافة رفيعة. ورغم أنه شاب، فقد صنع لنفسه اسماً بعد أن كتب كثيراً من القصائد الممتازة، واشتهر في الدوائر الأدبية لهذه المنطقة. ورغم أن وضعه المادي لم يكن جيداً، كان يتوقع الحصول على ما يكفي من النقود كي يعيش حياة مريحة، وأن تزداد هذه النقود من خلال مهر عروسه. وبما أن العروس جميلة جداً وفاضلة، لم يبد أنه هناك شيئاً مفقوداً كي يكمل سعادة الشاب. لكنه لم يكن قانعاً بشكل كامل، ذلك أن رغبته العميقة هي أن يصبح شاعراً عظيماً.

في مساء أحد الأيام بينما كان يُحتفل باحتفال المصابيح على ضفة النهر، حدث أن كان هان فوك يتجول وحيداً على الجانب الآخر. انحنى فوق جذع شجرة ناتئ فوق المياه ونظر إلى آلاف الأضواء التي تنعكس متلألئة على صفحة النهر. شاهد رجالاً ونساء في الزوارق والمراكب يحيّي بعضهم بعضاً. كانوا يرتدون ملابس احتفالية ويتوهجون كأزهار جميلة. سمع التمتمة الباهتة للمياه المضيئة،

ألحان المغنين، طنين القانون، والألحان العذبة لعازفي الفلوت. وعالياً فوق هذا كله، شاهد الليل الأزرق يحوم كقوس معبد. قفز قلب الشاب وهو يقف هناك كمشاهد وحيد، وأبهجه إلى أقصى حد كل ذلك الجمال. وبقدر ما تاق إلى عبور النهر والانخراط في كل ما يجري، وإلى أن يكون قرب عروسه وأصدقائه ويستمتع بالاحتفالات، رغب أيضاً، بهيام مماثل، أن يتشرّب، من خلال الرصد الدقيق، زرقة الليل ولعب الضوء على المياه،وكذلك متعة الناس وتوق المشاهد الصامت المتكئ على جذع الشجرة التي على ضفة النهر، ويعبّر عن هذا كله في قصيدة ممتازة. وأحس أنه لن يكون هناك مطلقاً مناسبة احتفالية أو أية متعة في العالم ستجعله يشعر أنه مرتاح أو مبتهج بشكل كامل. سيبقى منعزلاً حتى في خضم الحياة، وسيظل، إلى حد ما، مشاهداً وغريباً.وشعر، بين أمور أخرى، أن روحه صيغت بطريقة أجبرته أن يشعر بجمال الأرض وبالتوق الغريب للامنتمي في آن. وحزنَ من الأمر، وفيما كان يفكر بهذه المسألة، استنتج أن بوسعه الوصول إلى السعادة والتحقق الكامل إذا نجح مرة واحدة في أسر العالم في قصائده وفي التعبير عن نقائه وأبديته.

ولم يكد فان هوك يعرف فيما إذا كان مستيقظاً أو نائماً حين سمع حفيفاً خفيفاً وشاهد رجلاً غريباً يقف إلى جانب جذع الشجرة. كان الرجل عجوزاً مهيباً يرتدي عباءة بنفسجية. انتصب هان فوك وحياه بالاحترام اللائق بالرجال الحكماء والمميزين. لكن الغريب ابتسم فحسب وألقى بعض الأشعار التي عبّرت عن كل ما شعر به الشاب لتوه بشكل كامل وجميل يتواشج مع قواعد الشعراء العظام إلى درجة أن قلب الشاب توقف من الدهشة.

قال منحنياً باحترام:" من أنت؟ أنت يا من تستطيع أن تحدق في روحي وتلقي قصائد أكثر جمالاً من أية قصائد سبق أن سمعتها من أساتذتي؟"

ابتسم الغريب مرة أخرى ابتسامة رجل قام بإنجاز عظيم وقال:" إذا أردت أن تصبح شاعراً تعال إليَّ. ستعثر على كوخي عند منبع النهر العظيم في الجبال الشمالية الغربية. واسمي هو معلم الكلمة التامة."

وبعد أن قال هذا، خطا العجوز في ظل الشجرة الضيق واختفى. بحث عنه فان هوك، وحين لم يعثر له على أثر، اقتنع تماماً أن كل شيء كان حلماً سبّبه إعياؤه. اندفع إلى الزوارق في الجانب الآخر من النهر وانضم إلى الاحتفال، لكن بين الأحاديث وصوت الفلوتات، واصل سماع الصوت الغامض للغريب. بدا وكأن روح فان هوك قد غادرته وذهبت مع العجوز، ذلك أنه جلس هناك بعينين حالمتين، منقطعاً عن البشر المبتهجين الذين ضايقوه بمزاحهم عن وقوعه في الحب.

بعد بضعة أيام، استعد والد هان فوك كي يستدعي أصدقاءه وأقرباءه كي يحدد موعد الزفاف. ولكن العريس عارض ذلك قائلاً:" سامحني إذا بدوت أنني أهمل الواجب الذي يدين به الابن لأبيه. لكنك تعرف كم هي رغبتي كبيرة في أن أميّز نفسي في فن الشعر، ورغم أن بعض أصدقائي يمكن أن يمدحوا قصائدي أعرف تمام المعرفة أنني لا أزال مبتدئاً وأمامي طريق طويل. ولهذا أتوسل إليك أن تتركني أذهب وحيداً، لبعض الوقت، كي أكرس نفسي لدراساتي. يبدو لي كأنني سأبتعد عن القيام بأمور كهذه حين أضطر إلى تولي مسؤولية زوجتي ومنزلي. أما الآن فلا أزال شاباً حراً من الالتزامات، وأود أن أعيش برهة من أجل شعري فحسب، الذي آمل أن أستمد منه المتعة والشهرة."

أدهش الكلام والد هان فوك فأجاب:" لا بد أنـك تحـب الشـعر أكـثر مـن أي شيء آخر إذا كنت تريد تأجيل زفافك من أجله. أم هـل حصـل شـيء بينـك وبـين خطيبتك؟ إذا كان الأمر هكذا، أخبرني، فأنا أستطيع أن أصالحك معها أو أن أبحث لك عن عروس أخرى."

على أي حال، أقسم الابـن أنـه لا يـزال يحـب عروسـه كمـا أحبـها مـن قبـل وسيواصل حبه لها في المستقبل. وهما على الأقل لم يتخاصما. ثم أخبر هـان فـوك والده أن معلماً ظهر له في حلم يوم احتفال المصابيح، وأعظم رغبـة لديـه الآن هـي أن يصبح طالباً له.

قال الأب:" حسنٌ، سأمنحك عاماً. أثناء هذا الوقت يمكنـك أن تتبـع حلمـك، الذي ربما أرسله الله إليك."

أجاب فان هوك بتردد:" يمكن أن يستغرق الأمر سنتين. من يعرف؟"

ورغم أن هذا أحزنه فقد سمح له والده بالذهاب. في غضون ذلك كتب الشاب رسالة وداع لعروسه وغادر.

وبعد أن تجـول وقتـاً طويـلاً، وصـل إلى منبـع النـهر وعـثر علـى كـوخ مـن الخيزران في بقعة معزولة. أمام الكـوخ كـان العجـوز يجلـس وينسـج حصـيراً. إنـه الرجل العجوز نفسه الذي رآه قرب جـذع الشـجرة علـى ضفـة النـهر.كـان جالسـاً ويعزف على المزهر، وحين شاهد الضيـف يقـترب باحـترام، لم يقـف ولم يحيِّـه. ابتسم فحسب وترك أصابعه الرشيقة تتنقل على الأوتار فعامت الموسيقى السـحرية مثل سحابة فضية عبر الوادي. وقف الشاب مبهوراً ونسي كل شيء في دهشـة عذبـة

إلى أن وضع سيد الكلمة المكتملة مزهره الصغير جانباً ودخل الكوخ. فتبعه فان هوك برهبة وبقي معه كخادم له وطالب عنده.

مرّ شهرٌ، وصار فان هوك يزدري جميع الأغاني التي ألفها سابقاً، ومحاها من ذاكرته. وبعد بضعة شهور، محا الأغاني التي كان قد تعلمها من أساتذته في الوطن. نادراً ما كان المعلم يتحدث إليه.علّم فان هوك فن العزف على المزهر وهو صامت إلى أن أشبع الشاب بالموسيقى. وفي إحدى المرات ألف فان هوك قصيدة قصيرة تصف تحليق طائرين في مساء خريفي، ولقد أعجبته. لم يجرؤ على إطلاع المعلم عليها، لكنه غناها في مساء أحد الأيام إلى جانب الكوخ. سمعها المعلم بوضوح، لكنه لم يتفوه بكلمة عنها. فقط عزف بنعومة على مزهره، وحالاً برد الجو، وهبط الغسق بسرعة. هبت ريحٌ عنيفة، ورغم أن الوقت منتصف الصيف، كان الطائران ينويان الهجرة، فطارا عبر السماء، التي كانت قد أصبحت رمادية. وكل هذا كان أكثر جمالاً وكمالاً من أشعار الطالب مما أحزن فان هوك ودفعه إلى الصمت وإلى الشعور بأنه بلا قيمة. وكلما كتب فان هوك قصيدة، يفعل العجوز الأمر نفسه. وبعد مرور عام، أتقن فان هوك العزف على العود، رغم أنه استمر في النظر إلى فن الشعر على أنه أكثر سمواً وصعوبة.

مرَّ عامان، وشعر الشاب بحنين ملح لرؤية والديه، وطلب من المعلم إذناً كي يسافر إلى الوطن.

ابتسم المعلم وهز رأسه قائلاً:" أنت حر، بوسعك الذهاب متى شئت. يمكنك العودة أو البقاء بعيداً كما تشاء."

وهكذا انطلق الطالب في رحلته وسافر دون أن يرتاح إلى أن وقف في صباح أحد الأيام وراقب شروق الشمس على ضفة النهر المألوف ونظر عبر الجسر المقوس إلى مدينته الأصلية. دخل دون أن يراه أحد إلى حديقة والده، الذي كان لا يزال نائماً، وسمع والده يتنفس من خلال نافذة حجرة النوم. ثم تسلل إلى البستان قرب منزل عروسه. وبعد أن تسلق إلى قمة شجرة كمثّرى، شاهدها تقف في غرفتها وتسرّح شعرها. وحين قارن كل ما يراه الآن مع الصورة التي رسمها لها في حنينه، أدرك أنه من المقدر عليه أن يصبح شاعراً، ورأى أن أحلام الشاعر تنطوي على جمال وسحر لا يوجدان في أشياء العالم الواقعية. فنزل من الشجرة وهرب من الحديقة عبر الجسر وخرج من مدينته الأصلية. وحين عاد إلى وادي الجبل المرتفع، كان المعلم العجوز يجلسِ كما رِآه من قبل، أمام الكوخِ على حصيره المتواضع، ويعزف على المزهر بأصابعه. وبدلاً من أن يحيي فان هوك، ألقى المعلم قصيدتين عن بركات الفن، فامتلأت عينا الطالب بالدموع لدى سماعه شعراً عميقاً ومتناغماً كهذا.

مرة أخرى، بقي فان هوك مع معلم الكلمة المكتملة، الذي بدأ منحه دروساً على آلة القانون بعد أن أتقن المزهر، ولقد ذابت الشهور كالثلج أمام الريح الغربية. وتغلب الحنين على فان هوك مرتين أخريين. في إحدى المرات غادر الجبال ليلاً، وفي الخفاء، ولكنه قبل أن يصل إلى المنعطف الأخير في الوادي، هبت الريح الليلية عبر آلة القانون المعلقة قرب باب الكوخ وطارت الألحان خلفه ونادته كي يعود بطريقة لم يستطع مقاومتها. وفي المرة الثانية حلم أنه يغرس شجرة صغيرة. كانت زوجته تقف قربه وأطفاله يسقون الشجرة بالنبيذ والحليب. حين استيقظ كان القمر

يضيء غرفته، فنهض في اهتياج ونظر إلى المعلم النائم إلى جانبه ولحيته الشائبة والناعمة ترتجف. وفي البداية هيمنت على فان هوك كراهية شديدة لهذا الرجل الذي، كما بدا، دمر حياته وسرق مستقبله.كان على وشك أن يقفز على المعلم ويقتله، لكن العجوز الحكيم فتح عينيه وابتسم على الفور بلطف حزين ورائع جرد التلميذ من أسلحته.

قال العجوز بصوت ناعم:" تذكر يا فان هوك بأنك حر في أن تفعل ما تشاء . يمكنك العودة إلى وطنك وأن تزرع الأشجار. يمكنك أن تكرهني وتقتلني. هذا لا يهم."

قال الشاعر في تأثر بالغ:" آه، كيف أستطيع أن أكرهك! سيكون الأمر مثل كراهية السماء نفسها."

ثم بقي وتعلم العزف على القانون، بعد المزهر، وفيما بعد بدأ يكتب قصائد بإرشاد من المعلم. وببطء قبض على الفن الغامض وتعلم كيف يقول أموراً بسيطة وواضحة ظاهرياً بطريقة تثير روح المستمع كما تؤثر الريح بوجه الماء. وصف مجيء الشمس وهي تتردد على حافة الجبال، والحركة الصامتة للأسماك حين تهرب كظلال تحت الماء، وتأرجح صفصافة فتية في ريح الربيع. وحين كان الناس يسمعون كلماته، لم يكن فقط مجيء الشمس، لعب الأسماك، أو همس الصفصافة هو ما رصدوه. بدا وكأن السماء والأرض تآلفتا للحظة واحدة في تناغم تام، وسيفكر المستمعون بمتعة أو ألم بشيء يكرهونه أو يحبونه - الطفل بألعابه، الشاب بعشيقته، والعجوز بالموت.

وفقد فان هوك مسار الأعوام التي قضاها مع المعلم عند منبع النهر الكبير. وغالباً ما بدا له كأنه دخل إلى الوادي البارحة فحسب واستقبله العجوز الذي يعزف على المزهر. وبدا أيضاً كأن جميع أزمنة وعصور البشرية تلاشت وفقدت واقعيتها.

وفي صباح أحد الأيام استيقظ وحيداً في الكوخ ولم يعثر على العجوز في كل مكان بحث فيه عنه أو ناداه. وبدا كأن الخريف جاء بين عشية وضحاها، وهزّت ريحٌ قوية الكوخ القديم. وطارت أسراب كبيرة من الطيور المهاجرة فوق حافة الجبال رغم أنه لم يحن وقت قيامها بذلك.

أخذ فان هوك المزهر الصغير معه وعاد إلى مسقط رأسه. وكلما قابل بشراً، كان يسلمون عليه بطريقة لائقة بالرجال الكبار والمميزين. وحين وصل إلى مدينته عرف أن والده وعروسه وأقرباءه ماتوا، وأن بشراً آخرين يعيشون في منازلهم. وفي ذلك المساء كان يحتفل بمهرجان المصابيح على ضفة النهر، ووقف الشاعر فان هوك على الضفة المظلمة متكئاً على جذع الشجرة القديمة، وحين بدأ يعزف على المزهر، تنهدت النساء ونظرن عبر الليل، مستمتعات وقلقات، ونادت الشابات عازف المزهر، الذي لم يستطعن العثور عليه في أي مكان. لم تسمع أي منهن أصواتاً كهذه من مزهر من قبل، فصحن بصوت مرتفع. في غضون ذلك، ابتسم فان هوك. نظر في النهر الذي تعكس مياهه آلاف المصابيح، وعندما لم يقدر على التمييز بين الانعكاسات والمصابيح الحقيقية، لم يجد في روحه فرقاً بين هذا الاحتفال والاحتفال الأول، حين وقف هناك كشاب وسمع في البداية كلمات المعلّم الغريب.

حلم الفلوت

" تفضّل " - قال أبي وقدم لي فلوتاً مصنوعاً من العاج، ثم أضاف:" خذ هذا، ولا تنس والدك العجوز حين تمتع الناس في البلدان البعيدة بموسيقاك. حان الوقت كي ترى العالم وتتعلم شيئاً ما. لقد أمرت بصنع هذا الفلوت لك لأنك لا تحب القيام بأي نوع من الأعمال وتريد فقط أن تغني طول الوقت. لكنني أريدك أن تتذكر وتغني معظم الوقت أغاني جميلة وممتعة. إذا لم تفعل ذلك سيلحق العار بالهدية التي منحها لك الله."

كان أبي العزيز لا يفهم في الموسيقى إلا قليلاً. كان باحثاً. واعتقد أن كل ما علي أن أفعله هو أن أنفخ في الفلوت الصغير والجميل، وسيكون كل شيء رائعاً. وبما أنني لم أرغب بمعارضته، شكرته، ووضعتُ الفلوت في جيبي، ثم ودعته.

كنت أعرف وادينا حتى طاحونة البلاط التي في الأعلى. فيما وراء ذلك، كان العالم مجهولاً بالنسبة إلي، ولقد أحببته كثيراً. حطّت على يدي نحلة متعبة من التحليق، فحملتها معي، لكي أحصل فيما بعد على رسول يحمل تحياتي إلى الوطن من مكان استراحتي الأول.

رافقتني الغابات والمراعي في طريقي، وكان النهر فوّاراً طول الطريق. وأدركت أن العالم لا يختلف كثيراً عن موطني. وتحدثت معي الأشجار والأزهار، قرون الذرة وأشجار البندق. غنيّتُ أغانيها معها، وفهمتني، كما كانت تفعل في الوطن.

وعلى الفور خرجت فتاة من الغابات. كانت تحمل سلة وتعتمر قبعة قشية عريضة فوق شعرها الأشقر.

قلت لها:" نهارك سعيد. إلى أين أنت ذاهبة؟"

قالت وهي تسير إلى جانبي:" يجب أن أحضر للحصادين طعامهم. وإلى أين أنت ذاهبٌ اليوم؟"

" أنا ذاهبٌ كي أرى العالم. أرسلني والدي بعيداً. يعتقد أنني يجب أن أعزف للناس على الفلوت. لكنني لا أستطيع ذلك حتى الآن. ينبغي أن أتعلم في البداية."

"حسناً، حسناً. لكن ما الذي تستطيع القيام به حقاً؟ يجب أن تكون قادراً على القيام بشيء ما."

" لا شيء خاصاً. أستطيع أن أغني."

"أي نوع من الأغاني؟"

"جميع أنواع الأغاني، التي تعرفينها. أستطيع أن أغني أغاني للصباح والمساء، ولجميع أنواع الأشجار والحيوانات والأزهار. مثلاً، أستطيع أن أغني الآن أغنية جميلة عن فتاة شابة تخرج من الغابات وتحضر الطعام إلى الحصادين."

" هل فعلاً تستطيع القيام بذلك؟ حسناً، إذن، غنّ لي."

" حسناً، لكن أخبريني عن اسمك أولاً."

"بريغيتي."

عندئذ غنّيتُ أغنية عن الجميلة بريغيتي التي تعتمر قبعة قشية، وعن ما تحمله في سلتها،وكيف اعتنت بها الأزهار، ووصل إليها النبات الأزرق المعترش الذي على السياج، ووظّفتُ كل ما يلائم المشهد في أغنيتي. انتبهت جيداً وقالت إن

أغانيَّ جيدة. وحين أخبرتها أنني جائع، فتحت غطاء السلة وأخرجت من أجلي قطعة خبز. وحين أكلتُ لقمة وتابعت السير بخطو سريع، قالت:" يجب ألا تأكل وأنت تسير. ينبغي أن تقوم بشيء واحد وحسب كل مرة." وهكذا جلسنا على الأعشاب، وأكلتُ خبزي، ولفّت يديها المدبوغتين حول ركبتيها ونظرت إليَّ.

" هل تريد أن تغني لي أغنية أخرى؟" - طلبت مني حين انتهيت من تناول الطعام.

" بالتأكيد. ماذا أغني؟"

" ما رأيك بأن تغني عن فتاة هرب حبيبها، وهي حزينة."

"كلا، لا أقدر أن أفعل ذلك. لا أعرف كيف يكون هذا، ولا أحب الأمور الحزينة. طلب مني أبي أن أغني فقط أغاني ظريفة وممتعة. وهكذا سأغني عن الوقواق أو الفراشة."

"ألا تعرف أي شيء عن الحب؟"

"عن الحب؟ آه نعم، إنه أجمل شيء في الوجود."

وحالاً بدأت أغني عن شعاع الشمس الذي أحب أزهار الخشخاش الحمراء وكيف لعب معها وانتشى من المتعة، وعن أنثى الحسون التي انتظرت ذكرها، وحين جاء، طارت بعيداً متظاهرة بالخوف. وتابعتُ الغناء عن الفتاة ذات العينين البنيتين، وعن الشاب الذي جاء وغنى وتلقى قطعة من الخبز مقابل غنائه. لكنه الآن لم يعد يريد خبزاً وإنما قبلة من العذراء وأن يحدق في عينيها، وواصل الغناء فترة طويلة إلى أن ابتسمت وأغلقت فمه بشفتيها.

ثم انحنت بريغيـتي وأغلقـت فمـي بشـفتيها وأغمضـت عينيـها ثـم فتحتـهما، ونظرت إلى النجوم البنية الذهبية ورأيت نفسي وعـدداً مـن أزهـار المـرج منعكسـة فيهما.

قلت:"العالم جميـلٌ جـداً. كـان أبـي علـى صـواب. الآن سأسـاعدك في حمـل الطعام إلى قومك."

حملت سلتها وتابعنا السير. ترافق صوت خطواتها مع خطواتي، ضاهى حـس الفكاهة الجيد عندهـا حـس الفكاهـة عنـدي كذلـك. تحدثـت الغابـة معنـا بنعومـة وبرودة من قمة الجبل. لم أكن قد استمتعت مطلقاً بالتجوال هكذا، وغنيّـتُ بابتـهاج لبعض الوقت إلى أن انفجرتُ تقريباً من الفرح. كانت هنـاك أمـور كثيرة تخـرج من الوادي والجبل، من الأعشاب، والأوراق، والنهر، والأدغال، وكلها روت قصصاً.

عندئذ كان علي أن أفكر: إذا كنت أستطيع أن أفهم وأغني الآلاف المؤلفة من أغاني العالم في الوقت نفسه، عن الأعشاب والأزهار والنـاس والغيـوم وكـل شـيء، عن الأدغال وغابات الصنوبر وكذلك عن الحيوانات، بالإضافة إلى أغان عن البحار والجبال والنجوم والأقمار البعيدة، وحين يقدر كل هذا أن يدوّي ويغـني في الوقـت نفسه في داخلي، عندها سأكون الإله العزيز نفسه، وكـل أغنيـة ستتوهج كفرقـد في السماء.

ولكن وفيما كنت أفكر بكل هذا، هيمـن علـيَّ هـدوءٌ شـديدٌ وشـعرت بـأنني غريب لأن لا شـيء مـن هـذا خطـر في ذهـني مـن قبـل. في غضـون ذلـك، كـانت بريغيتي تقف هادئة وتمسك يدي بشدة على قبضة السلة.

قالت:" يجب أن أذهب الآن إلى تلك الهضبة، قومي هناك في الحقـل. وأنـت؟ إلى أين أنت ذاهب؟ هل تريد أن تأتي معي؟"

"كلا، لا أستطيع. يجب أن أرى العالم. شكراً جزيلاً لك يا بريغيتي مـن أجـل القبلة. سأفكر بك دائماً."

أخذت سلة الطعام، ومالت عيناها نحوي فوق السلة في الظل البـني، وتعلقـت شفتاها بشفتي ، وكانت قبلتها جيدة ورقيقة فحزنت لأنني شعرتُ بالتحسن. لكنني ودعتها بسرعة وتابعت سيري على الطريق.

صعدت الفتاة الهضبة ببطء، ووقفت تحت الأوراق المتدلية من شـجرة برقـوق على حافة الغابة ونظرت إليَّ. وحين لوَّحْتُ لها بقبعتي وميّلتها على رأسـي، هـزَّتْ رأسها لي مرة أخرى واختفت بصمت كصورة في ظلال شجرة البرقوق.

وهكذا تابعت طريقي بهدوء وغرقت في التفكير إلى أن قـادني الطريـق حـول زاوية حيـث تنتصـب طاحونـة، وإلى جـانب الطاحونـة كـان هنـاك زورق في المـاء ورجل يجلس في القارب، وبدا كأنه ينتظرني، لأنني حـين نزعـت قبعـتي وصعـدتُ إلى القارب، بدأ يبحر حالاً منحدراً في النهر. جلست وسط الزورق، وجلس الرجل في الخلف عند دفة المركب، وحين سألته إلى أين نحـن ذاهبـان، نظـر إلى الأعلـى وتفحصني بعينين رماديتين محجبتين.

قال بصوت مسيطر:" حيـث تحـب. عـبر النـهر ثـم إلى البحـر، أو إلى المـدن الكبيرة. بوسعك أن تختار. كل هذا لي."

"كل هذا لك؟ إذن أنت الملك."

قال:" ربما. وأنت شاعر، كما يبدو لي. إذن غنِّ لي أغنية عن الإبحار."

جمعت نفسي. كنت نوعاً ما خائفاً من الرجل الوقور، وأسرع زورقنا بصمت في النهر. غنيّتُ عن النهر الذي حمل السفن وانعكست عليه أشعة الشمس واندفع على الضفاف الصخرية بقوة، ثم تابع رحلته بمتعه.

لم يتغير وجه الرجل، وحين توقفت هز رأسه كحالم. وفجأة، لشدة دهشتي، بدأ هو نفسه يغني، فغنى أيضاً عن النهر ورحلة النهر عبر الوديان، لكن أغنيته كانت أجمل وأقوى من أغنيتي وبدت مختلفة جداً. ومن طريقته في الغناء، اندفع النهر من الجبال كمدمر مترنّح، شرير وبربري. وشعر التيار المدوّي بأنه مقيد بالطواحين ومغطى بالجسور. كره جميع المراكب التي يجب أن يحملها، وفاحت رائحة منه كأنه مسكون وهزته جثث بيضاء من الناس الغرقى في أمواجه ونباتاته الخضراء الطويلة.

لم يسرني شيء من هذا، ومع ذلك كان الصوت جميلاً وغامضاً مما أربكني بشكل كامل. ولم أتفوه بكلمة بسبب الخوف. إذا كان كل ما غناه هذا المغني العجوز، الرائع، والذكي بصوته الساحر صحيحاً، إذن فإن جميع أغانيَّ مجرد ألعاب صبيانية حمقاء. ولم يكن العالم جيداً ومتألقاً كقلب الله، وإنما مظلم وسقيم، شرير وفاسد، وحين تمتمت الغابات، لم يكن بسبب المتعة وإنما التعذيب.

تابعنا الإبحار، وطالت الظلال، وكلما بدأت الغناء، خف التألق، وأصبح صوتي أكثر نعومة، وكان المغني الغريب يستجيب كل مرة بأغنية تجعل العالم أكثر إلغازاً وألماً، ولقد ازداد قلقي وحزني.

تأذت روحي، وندمت لأنني لم أبق على الأرض مع الأزهار ومع بريغيتي الجميلة. ولكي أعزي نفسي في الغسق المتنامي، غنيّت مرة أخرى عن بريغيتي وقبلاتها، بصوت مرتفع وعبر الوميض الليلي.

وفيما كان الظلام يزداد، لجأت إلى الصمت، وبدأ الرجل الذي على الدفة يغني. هو، أيضاً، غنى عن الحب والمتعة، عن الأعين البنية والأعين الزرقاء، والشفاه الحمراء المنداة. كان غناؤه جميلاً وجذاباً، مليئاً بالأسى والحزن عن النهر الذي يظلم. لكن في أغنيته أصبح الحب كذلك مظلماً، قلقاً، ولغزاً مهلكاً جعل الناس يتلمسون طريقهم ويرتبكون، إلى أن عذبوا وقتلوا بعضهم بعضاً وهم في ألمهم، وحاجتهم، وتوقهم.

أصغيتُ، وأصبحتُ متعباً وكئيباً، وكأنني كنتُ أسافر طيلة أعوام ولم أخض إلا في العوز والبؤس. وشعرت بأن الغريب يدخل إلى قلبي باستمرار جدولاً لطيفاً وبارداً من الحزن والقلق الروحي.

وصرخت أخيراً بمرارة:"إذن ليست الحياة الشيء الأكثر جمالاً وسمواً في العالم. إنه الموت، حسناً، أتوسل إليك، أيها الملك الحزين، أن تغني لي أغنية عن الموت."

غنى الرجل الذي يجلس عند مقبض الدفة عن الموت، بصوت جميل لا يضاهيه فيه أحد من الذين سمعتهم. برغم ذلك، حتى الموت لم يكن الشيء الأكثر جمالاً وسمواً في العالم، ولم يعتبره عزاء. الموت كان الحياة، والحياة كانت الموت، يتشابكان في صراع أبدي عنيف بفعل الحب، وكانت هذه الكلمة المطلقة ومعنى العالم. من هناك جاء وميض رفع من شأن البؤس، ومن هناك جاء ظل يرمي كآبة

على المتعة والجمال ويغمرهما بالظلمة. لكن المتعة اشتعلت من خارج الظلمة بشكل أكثر توتراً وجمالاً، وتوهج الحب بشكل أكثر عمقاً في أثناء تلك الليلة.

أصغيت وأصبحتُ هادئاً جداً. ولم تكن لي مشيئة سوى مشيئة الغريب. استقرت نظرته عليّ. كانت صامتة وتمتلك لطفاً حزيناً مؤكداً، وكانت عيناه الرماديتان مليئتين بالأذى والجمال الموجودين في العالم. ابتسم لي، حينها تشجعت وتوسلت:" هل بوسعنا العودة؟ أنا خائف هنا في الليل. أريد أن أعود وأذهب إلى حيث أستطيع العثور على بريغيتي أو العودة إلى الوطن، إلى والدي."

نهض الرجل وأشار في الليل، وتوهج قنديله على وجهه النحيل الصارم.

قال بود وإخلاص:"ليس هناك طريق للعودة، يجب أن تتحرك دوماً إلى الأمام إذا أردت أن تسبر العالم. لقد حصلت مسبقاً على الأفضل والأكثر جمالاً من الفتاة ذات العينين البنيتين، وكلما كنت بعيداً عنها، ازداد جمالها وأصبح أفضل. تابع السفر حيث تشاء. سأمنحك مكاني على الدفة."

انتابني جزع عميق، ومع ذلك أدركت أنه كان على صواب. مليئاً بالحنين، فكرت ببريغيتي، والوطن، وكل ما كان قريباً مني وعزيزاً عليَّ وكل ما فقدته. والآن أريد أن أحتل مكان الغريب وأجلس على الدفة. هكذا ينبغي أن يتم الأمر. نتيجة لذلك، وقفت صامتاً واتجهت إلى الدفة، واتجه الرجل نحوي صامتاً. حين أصبحنا إلى جانب بعضنا بعضاً، نظر مباشرة في عيني ومنحني قنديله.

وحين أخذت مكانه عند مقبض الدفة والقنديل إلى جانبي، أدركت مذعوراً أن الرجل قد اختفى. لكنني لم أخف. لقد أحسست بذلك. بدا وكأن يوم تجوالي

الجميل وبريغيتي ووالدي والوطن كانوا حلماً فحسب، وأنني كنت عجوزاً وحزيناً وأبحر إلى الأبد في هذا النهر الليلي.

وأدركت أنه من غير المسموح لي أن أنادي الرجل، وحالما فهمت ذلك، شعرت بقشعريرة سرت إلى عظامي وأردت أن أعرف إن كان ما أحسست به في السابق صحيحاً. وهكذا انحنيت فوق الماء ورفعت القنديل ورأيت وجهاً حاداً وجاداً بعينين رماديتين منعكساً في المياه المظلمة - وجه عجوز وعارف - وكان أنا.

وبما أنه ليست هناك رجعة، تابعت رحلتي عبر الليل.

حلم عن الآلهة

سرتُ وحيداً وبائساً وشاهدت أن كل ما حــولي أصبح مظلمــاً وفقـد شـكله. وهكذا بدأت البحث والجري كي أعرف ما حدث للضوء كله. وعلى الفور شاهدت بناء جديداً بنوافذ متلألئة وضوءاً متوهجاً كالنهار يشرق فوق الأبواب، فدخلت عبر بوابة إلى قاعة مضاءة ومتألقة، تجمَّع فيها كثير من البشر وجلسوا صامتين، في انتباه كامل، ذلك أنهم جاؤوا كي يعزيهم وينورهم كهنة العلم.

وأمام الناس، على منصة مرفوعة، يقف كاهن علم، وهو رجل كئيـب يرتـدي ثوباً أسود، عيناه ذكيتان ومتعبتان، ويتحدث بصوت واضح، ناعم، ومقنع مـع العـدد الكبير من الجمهور. هناك خرائط متوهجة أمامه وصور كثيرة للآلهة. خطـا إلى إلـه الحرب وقال للمستمعين كيف تأصل هذا الإله منذ وقت طويل في الأيــام القديمـة، بسبب حاجات وأمنيات بشر ذلك الزمن، الذيـن لم يكونـوا قـد تعرفـوا بعـد علـى وحدة جميع قوى العالم. كلا، كان أولئك الناس البدائيون، يشـاهدون دائمـاً الشـيء المفرد والمؤقت وحسب،ولذلك احتـاجوا إلى أن يخلقـوا لكـل شـيء إلهـاً خاصـاً. فخلقوا إلهاً للبحر والأرض، وإلهاً للصيد والحرب، وإلهاً للمطر والشـمس. وهكـذا جاء إله الحرب إلى الوجود. والمحاضر الذي كـان يخـدم الحكمـة قـال للجمـهور باحترام ووضوح أين نصبت التماثيل الأولى لهـذا الإلـه وأيـن قدمـت لـه الأضـاحي الأولى، إلى أن أصبح هذا الإله فيما بعد غير ضروري بسبب انتصار المعرفة.

وحين حرك يده ليطفئ الضوء الذي يضيء هذه الخريطة، تلاشى إله الحرب واختفى. وظهرت مكانه صورة إله النوم. شرحت هذه الصورة بسرعة كبيرة، إذ كنت أحب أن أسمع أكثر عن هذا الإله النبيل. وحالاً بعد أن تلاشت صورته، ظهرت أخرى - إله الشراب وإله الحب الممتع وإلاهة الزراعة، والصيد، والمنزل. وتوهّجت هذة الآلهة في شكلها الفريد وجمالها كتحية وانعكاس من المرحلة الأولى البعيدة للحضارة. شُرحتْ كلها، وقُدمت أسباب أوضحتْ لماذا أصبحت غير ضرورية. وأطفأ المحاضر الصور واحدة بعد أخرى فاختفت، وفي كل مرة كان يُسجّل انتصارٌ صغيرٌ ومصقول للذهن فينا، مع تعاطف خفيف وندم في قلوبنا.

لكن بعض الناس كانوا يضحكون أثناء ذلك ويصفقون ويصيحون:" خذها بعيداً!"حتى قبل أن تنتهي كلمات الكاهن ويطفئ الصور.

وحين أصغينا بانتباه، عرفنا أنه ليس الولادة والموت لا يحتاجان الآن إلى رموز خاصة وحسب وإنما الحب، والحسد، أو الغضب في الوقت نفسه، ذلك أن البشرية تعبت مؤخراً من جميع هذه الآلهة، وأدركت أن القوى والصفات الفردية لم توجد في أرواح البشر أو في أعماق الأرض والبحر. إذ لم يكن هناك إلا قوة أصلية، والمهمة التالية العظيمة للعقل البشري هي استكشاف هذا الجوهر.

في غضون ذلك، ازدادت عتمة القاعة، ولم أكن متأكداً إن كان السبب هو إطفاء الصور أو أسباب أخرى مجهولة. ومهما كان السبب، أدركت أن المصدر الأبدي والنقي لجميع الأشياء لن يُضاء في هذا المعبد، فقررت أن أهرب من هذا المنزل بحثاً عن أمكنة أكثر تألقاً.

ولكن قبل أن أقدر على تنفيذ قراري، رأيت أن الفجر في القاعة يصبح أكثر دمامة، فقلق الناس وبدأوا يصرخون ويدفعون بعضهم بعضاً كما تفعل الخراف حين تهب عاصفة فجأة وتخيفها. لم يعد أحد يرغب بالإصغاء إلى كلمات الحكيم. وتغلب على الحشد خوف مريع ودب فيه الهياج. سمعت تنهدات وصرخات، وشاهدت بشراً يشقون طريقهم بالقوة إلى البوابات. امتلأ الجو بالغبار وأصبح كثيفاً كالكبريت. كان كثيباً بشكل كامل، ولكن خلف النوافذ المفتوحة يستطيع المرء أن يشاهد توهجاً عنيفاً وخفقاناً أحمر باهتاً كما في النار.

فقدت وعيي. استلقيت على الأرض. هرب كثير من البشر وداسوا علي.

حين استيقظت وانتصبت متكئاً على يدي الداميتين، كنتُ وحيداً بشكل كامل في بناء فارغ ومدمر، كانت جدرانه تتداعى وتنشق وتهدد بالانهيار فوقي. وفي المسافة سمعت ضجة ورعداً وأصواتاً عشوائية تزأر بخفوت. والهواء الذي دخل من الجدران المهدمة خرج مدوِّماً من نيران كأنه خرج من سيماء نازفة مؤلمة. لكن الجو الخانق تلاشى.

وحين زحفت خارج معبد المعرفة المهدم، رأيت نصف المدينة وسط ألسنة اللهب والسماء المدلهمة ترفرف عبر أعمدة نارية وذيول دخان. كان الموتى يتمددون هنا وهناك في حطام المباني. وكان الجو هادئاً حولي، برغم أنني استطعت أن أرصد طقطقة وهمس بحر ألسنة اللهب البعيد. وخلفه سمعت زئيراً وحشياً مقيتاً جاء من بعيد، وكأن جميع الناس على الأرض رفعوا أصواتهم في صرخة أو نشيج لانهائي.

كان العالم يغوص، وكنت بالكاد مندهشاً. بدا الأمر وكأنني أنتظر ذلك منذ وقت طويل.

ورأيت طفلاً يخرج من وسط ألسنة اللهب والمدينة المنهارة. كان يضع يديه في جيبيه وينزلق ويرقص من قدم إلى أخرى. بدا مرناً ومليئاً بالحياة. فجأة وقف هادئاً وصفر بطريقة خاصة. كانت صفرة صداقتنا من أيام دراستي الثانوية، وكان الصبي صديقي جوستاف، الذي أطلق النار على نفسه فيما بعد حين كان طالباً في الجامعة. وعلى نحو مفاجئ، أصبحت مثله، مرة أخرى، صبياً في الثانية عشرة، والمدينة المشتعلة والرعد البعيد والعاصفة التي تصفر من جميع زوايا العالم بدت ممتعة بشكل رائع لأذني المتيقظتين. آه، كل شيء الآن جيد، والكابوس الأسود الذي كنت أعيشه طول سنوات كثيرة يائسة تلاشى.

بضحكة، أشار جوستاف إلى قلعة وبرج مرتفع انهارا لتوهما على بعضهما بعضاً. إنه انهيار تافه! إنه ليس خسارة حقيقية. يستطيع المرء أن يبني أشياء جديدة وأكثر جمالاً. شكراً لله أن جوستاف كان هناك! الآن تمتلك الحياة معنى مرة أخرى.

عندئذ، حرر شكلٌ ضخم نفسه من سحابة عملاقة ارتفعت فوق انهيار المبنى المهيب. بدهشة، حدقنا إليه صامتين. وببطء ظهر رأس إله، وذراعان عملاقتان، تمدد الشكل في الجو، وسار بانتصار إلى العالم المليء بالدخان. كان إله الحرب، تماماً كما رأيته مصوراً في معبد المعرفة. لكنه كان حياً وبالغ الضخامة، وابتسم وجهه الملتهب المضاء بكبرياء، كطفل معنوياته جيدة. وعلى الفور، ودون أن نتفوه بكلمة،

اتفقنا أن نتبعه، وطاردناه وكأن لنا أجنحة، ونحن نطير بسرعة وعنف فوق المدينة المشتعلة في الليل العريض العاصف فيما قلوبنا تقفز من الإثارة.

توقف إله الحرب على قمة جبل. كان مرحاً وهز درعه الدائري - وشاهدنا، في المسافة أشكالاً مقدسة ضخمة ترفع نفسها من جميع حواف دائرة الأرض وتتقدم نحوه. كانت ضخمة وعظيمة، هذه الآلهة والإلاهات، العفاريت وأنصاف الآلهة. جاء إله الحب عائماً، أما إله النوم فقد أتى مهرولاً، وكانت إلاهة الصيد نحيلة وقاسية. تابعوا المجيء، دون نهاية في مدى النظر. وبما أن أشكالها النبيلة أعمتني، خفضت عيني، وحالاً أدركتُ أنني لم أعد وحيداً مع صديقي العزيز. ووقف حولنا نوع جديد من البشر، وسوية انحنينا على ركبنا أمام الآلهة الذين كانوا يعودون إلى وطنهم.

أنباء غريبة من كوكب آخر

في إحدى المقاطعات الجنوبية على كوكبنا الجميل حلّتْ كارثة مريعة. حدث زلزال، رافقته عواصف رعدية وطوفانات مريعة، سببت دماراً هائلاً لثلاث قرى كبيرة بجميع حدائقها، وحقولها، وغاباتها، ومزارعها. قتل الكثير من الناس والحيوانات، وكان الأمر الذي سبب حزناً أكبر هو أن القرويين لم يعد عندهم أزهار كافية لكي يصنعوا أكاليل للموتى ويزينوا قبورهم بطريقة ملائمة.

وطبعاً، قام الناس بجميع الأمور الأخرى التي يجب أن تُنجز. وعلى الفور، بعد الحدث المريع، اندفع الرسل عبر الأقاليم المجاورة يحملون توسلات من أجل المساعدة وأعمال البر، ومن على جميع أبراج المقاطعة كلها، كان يمكن سماع المغنين وهم يغنون تلك الأشعار المثيرة والمؤثرة بعمق والتي عرفت لقرون بـ "تحية إلى إلاهة الرأفة". وكان من المستحيل لأي شخص يصغي لهذه الأناشيد أن يقاومها. وعلى الفور جاءت مجموعات كبيرة من المنقذين والمساعدين من جميع البلدات والمدن، وأولئك الناس سيئو الحظ، الذين فقدوا السقوف التي فوق رؤوسهم غمرتهم الدعوات اللطيفة ولاذوا في مساكن الأقرباء، والأصدقاء، والغرباء. ومن جميع الأمكنة جاء الطعام واللباس، والعربات والخيول، والأدوات، والأحجار، والخشب، وأشياء أخرى كثيرة ومفيدة. ولقد ارتاح الرجال العجائز، والنساء والأطفال، واقتادتهم أيد لطيفة إلى ملاجئ فشعروا بالعزاء. أما المصابون فقد غُسلوا بعناية وضمدوا. وفيما كان بعض البشر لا يزالون يبحثون عن ضحايا الزلزال تحت

الأنقاض، بدأ آخرون بإزالة السقوف المنهارة، ودعم الجدران المتمايلة بالألواح، وإحضار كل ما هو ضروري لكي يعيدوا بناء القريتين بسرعة.

لكن سحابة رعب من الحادثة لا تزال عالقة في الجو، وكان الموتى تذكاراً للجميع بأن هذا وقت ندب وصمت صارم. لكن، مع ذلك، يمكن رصد استعداد مرح ومزاج احتفالي معيّن في جميع أوجه وأصوات البشر، ذلك أن ما ألهمهم هو فعلهم المشترك وحماسهم، واعتقادهم بأنهم يقومون بشيء غير عادي، وضروري، شيء جميل ويستحق الشكر. وفي البداية اشتغل البشر بصمت وهيبة، لكن الأصوات المبتهجة والغناء الخفيف سمع حالاً هنا وهناك. وكما يمكن أن يتخيل المرء بشكل جيد، كان هناك مثلان قديمان فُضِّلا في الغناء:" مباركون أولئك الذين يساعدون المحتاجين. ألا يشربون الفعل الحسن كما تشرب الحديقة الظامئة المطر الأول، ثم ألا ينبغي أن يُستجاب لهم بالأزهار والامتنان؟" و" وصفاء الله يتدفق من الفعل المشترك."

على أي حال، عندئذ فحسب اكتشفوا أنهم لا يملكون أزهاراً كافية للدفن. ذلك أن الأجساد الأولى التي وجدت دفنت وزيّنتْ بالأزهار والأغصان التي جمعت من الحدائق المدمرة. ثم بدأ الناس يحضرون جميع الأزهار من الجوار. ولكن كما يقتضي الحظ، كانوا في ورطة خاصة لأن القرى الثلاث المدمرة كانت هي التي تحتوي على أجمل وأضخم حدائق الأزهار في هذه الفترة من العام. وكان الزوار يأتون إليها كل عام لرؤية النرجس والزعفران لأنه لا يمكن العثور عليهما في أي مكان آخر بتلك الكميات الضخمة. فضلاً عن ذلك، كانت هذه الأزهار تزرع دائماً بعناية كبيرة في ألوان مختلفة بشكل ملحوظ. لكن هذا كله قد دمر الآن وسحق.

وهكذا وقع الناس في ورطة - لم يعرفوا كيف يتبعون الشعائر المعتادة في دفن الأموات. كانت التقاليد تقتضي أن جميع البشر والحيوانات يجب أن تُزَيَّن بالأزهار بإسراف قبل الدفن، وأن يكون طقس الدفن أكثر غنى وتألقاً، كلما كان الموت مفاجئاً ومفجعاً.

ووجد كبير المقاطعة، الذي كان أول من ظهروا للمساعدة في عربته، نفسه مغموراً بالأسئلة، والطلبات، والشكاوى بحيث أنه وجد صعوبة في السيطرة على هدوئه. لكنه تشجع. بقيت عيناه متألقتين وودودتين، وكان صوته واضحاً ومحترماً، وتحت لحيته البيضاء لم تفقد شفتاه مطلقاً الابتسامة الصامتة، اللطيفة للحظة واحدة - وهذا شيء ناسبه كعضو مجلس.

قال:" يا أصدقائي، لقد حلت بنا كارثة من المحبذ جداً أن الله أرسلها لكي يختبرنا. بالطبع، كل ما دُمِّر هنا، يجب أن نعيد بناءه لأخوتنا ونعيده كله إليهم، وأشكر الآلهة أنني كنت قادراً على أن أشهد، في شيخوختي، كيف أوقفتم كل ما تقومون به وجئتم لتقديم المساعدة. لكن أين نجد الأزهار كي نزين جميع الموتى ونحتفل بتحولهم بأسلوب جميل ومحترم؟ وطالما نحن أحياء وبخير، ينبغي أن نتأكد أن لا أحد من هؤلاء الحجاج المنهكين يدفن دون تقدمة عادلة من الزهور. ألا توافقون جميعاً؟"

فصرخوا جميعاً:"نعم. نوافق جميعاً."

قال إلدر بصوته الأبوي:" كنت أعرف ذلك. والآن أريد أن أخبركم، يا أصدقائي، ما ينبغي أن نفعله. يجب أن نحمل جميع البقايا التي لا يمكن أن تدفن اليوم إلى المعبد الصيفي الكبير عالياً في الجبال، حيث لا يزال الثلج على الأرض.

سيكونون هناك بأمان ولن يتحللوا قبل أن نحضر لهم الأزهار. يستطيع إنسان واحد وحسب أن يساعدنا في الحصول على أزهار كثيرة في هذا الوقت من العام، وهو الملك. بالتالي يجب أن يُرسل أحدنا إلى الملك ويلتمس مساعدته."

ومرة أخرى وافق الرجال وصاحوا:"نعم، نعم، إلى الملك."

تابع إلدر الكلام، وسر الجميع من رؤية الابتسامة الظريفة تتلألأ تحت لحيته البيضاء: "حسناً، لكن من نرسل إلى الملك؟ يجب أن يكون شاباً وقوياً لأنه يجب أن يسافر بعيداً على أفضل حصان لدينا. علاوة على ذلك، يجب أن يكون أنيقاً ولطيفاً ويمتلك عينين متألقتين، كي لا يقدر قلب الملك على مقاومته. لا يحتاج إلى قول الكثير لكن عينيه يجب أن تكونا قادرتين على النطق. بوضوح، سيكون من الأفضل أن نرسل طفلاً، أكثر أطفال الجماعة أناقة. لكن كيف يمكن أن يقوم بهذه الرحلة؟ يجب أن تساعدوني يا أصدقائي وإذا كان هنا أي شخص يريد أن يتطوع ويكون رسولاً، وإذا كنتم تعرفون شخصاً ملائماً للمهمة، من فضلكم أخبروني."

توقف كبير القوم ونظر حوله بعينين متألقتين، لكن لم يخط أحد إلى الأمام. لم يُسمع صوت واحد. حين كرر سؤاله مرة ثانية وثالثة، بزغ فجأة شابٌ من الحشد. كان في السادسة عشرة، لا يزال طفلاً عملياً، وثبت عينيه على الأرض واحمر وهو يحيي كبير القوم.

حالما نظر إليه كبير القوم، أدرك أن الشاب هو الرسول الكامل فابتسم وقال:" رائع أن تكون رسولنا. ولكن لماذا أنت الوحيد الذي تطوع من بين الحشد؟"

رفع الشاب عينيه إلى العجوز وقال:" إذا لم يكن هنا شخص آخر يريد الذهاب، إذن سأكون الشخص الذي يجب أن يذهب."

صاح شخص من الحشد:" أرسله يا كبير القوم. نحـن نعرفـه. إنـه مـن قريتنـا، ولقد دمر الزلزال حديقة أزهاره التي كانت أجمل حدائق هذه المنطقة."

خص كبير القوم الشاب بنظرة ود وسأله:" هل أحزنك ما حدث لحديقتك؟"

استجاب الشاب بنعومة فائقة:"نعم، أنا حزين، لكن ليس هـذا سـبب تطوعـي. كان لدي صديق عزيز وحصان رائع، المفضـل بالنسـبة لي، وكلاهمـا قتلـه الزلـزال وهما الآن ممددان في صالوننا، ويجب أن نحصل على الأزهار كي يدفنا."

بارك كبير القوم الشاب واضعاً يده على رأسه، وعلى الفور أحضروا له أفضـل حصان. امتطى الشاب ظهر الحصان، صفعه على عنقه وودع الناس بهزة من رأسـه. ثم انطلق خارج القرية واتجه مباشرة عبر الحقول الرطبة الخربة.

سار الشاب طول النهار، ومن أجل أن يصل إلى العاصمة البعيدة ويرى الملك بالسرعة الممكنة، سلك ممراً فوق الجبال. وفي المساء، وفيما كان الظلام يخيّم، قاد حصانه من العنان فوق ممر منحدر عبر الغابة والصخور.طائر أسود كبير، من النوع الذي لم ير الشاب مثله من قبل مطلقاً، طار أمامه، وتبعه إلى أن حـط الطـائر علـى سقف معبد صغير مفتوح. تـرك الشـاب حصانـه وسـار عـبر الأعمـدة الخشـبية إلى الملاذ. وهناك وجد مذبحاً للأضاحي، ولم يكن إلا كتلة صلبة مصنوعة من الحجر الأسود الذي لا يتوفر عادة في هذه المنطقة. وعليه رمز غامض لإله لم يتعرف عليه الرسول - قلب التهمه طائر بري.

وقدم أضحية للإله وهي عشبة جريس ذات أزهـار زرقـاء انتزعـها عنـد سـفح الجبل ووضعها في طية صدر معطفه. ثم استلقى في زاوية من المعبد، ذلك أنه كان منهكاً وبحاجة للنوم.

على أي حال، لم يستطع أن ينام بسهولة كما اعتـاد أن يفعـل في المـنزل كـل مساء. ربما كان السبب هو عشبة الجريس على الحجر، أو الحجر الأسود نفسه، أو شيء آخر، لكن مهما كان الأمر، فقد أزعجه شيء غريب يصدر عطراً خارقاً يطلـق الشرر.فضلاً عن ذلك، ومض رمز الإله الغريب كشبح في الصالة المظلمـة، والطـائر الغريب الذي جلس على السـقف كـان يخبـط بجناحيـه الضخمـين بقـوة بـين فينـة وأخرى وكأن عاصفة على وشك الهبوب.

أخيراً نهض الشاب في منتصف الليل، خـرج مـن المعبـد، ونظـر إلى الطـائر، الذي كان يرفع جناحيه ويخفضهما.

سأله الطائر:" لماذا لست نائماً."

أجاب الشاب:" لا أعرف. ربما لأنني عانيت؟"

"من ماذا عانيت بالضبط؟"

"لقد قتل صديقي وحصاني المفضل."

سأله الطائر بازدراء:"هل الموت سيئ إلى هذا الحد؟"

" آه، لا، أيها الطائر العظيم، إنه ليس سيئاً. إنه وداع وحسـب. لكـن ليس هـذا سبب حزني. الشيء الأسوأ هو أننا لا نسـتطيع أن ندفـن صديقـي وحصـاني الرائـع لأننا لم نعد نملك أزهاراً."

قال الطائر وهو ينفش ريشه ساخطاً:"هناك ما هو أسوأ."

"كلا، أيها الطائر، بالتأكيد ليس هناك ما هو أسوأ من هذا. كل من يدفـن دون تقدمة من الأزهار لا يمكن أن يولد من جديد بالطريقة التي يرغب بها قلبـه. وكـل

من يدفن موتاه دون أن يحتفل بتقدمة الأزهار سيواصل رؤية ظلالهم في أحلامه. ألا ترى أنني لا أستطيع أن أنام لأن موتاي بدون أزهار."

أصدر الطائر صوتاً خشناً ومذعوراً بمنقاره:" أيها الفتى، أنت لا تعرف أي شيء عن المعاناة إذا كان هذا كل ما جربته. ألم تسمع أبداً عن الشرور الكبيرة؟ عن الكراهية، والجريمة، والغيرة؟"

حين أصغى إلى هذه الكلمات، فكر الشاب أنه كان يحلم. ثم استجمع قواه وقال باحترام:" نعم، أيها الطائر، أستطيع أن أتذكر. إن هذه الأمور مكتوبة في القصص والحكايات القديمة. لكن لا علاقة لها بالواقع، أو ربما كان الأمر هكذا في العالم قبل أن يكون هناك أزهار وآلهة جيدون. من في العالم لا يزال يفكر بأمور كهذه؟"

ضحك الطائر بنعومة بصوته الخشن. ثم مط نفسه وقال للصبي:" والآن تريد أن تذهب إلى الملك، وسوف أريك الطريق؟"

قال الشاب بفرح:"آه، أنت تعرف مسبقاً! نعم،سوف أكون شاكراً لك إن أرشدتني إلى الطريق."

ثم حط الطائر الكبير على الأرض بصمت، فرش جناحيه دون أن يصدر ضجة، وأمر الشاب أن يترك حصانه ويطير معه إلى الملك. فجلس الرسول على ظهر الطائر واستعد للرحلة.

"أغمض عينيك" - أمره الطائر، فنفذ الشاب الأمر، وطارا عبر ظلمة السماء بصمت وهدوء كطيران بومة. ولم يستطع الرسول أن يسمع إلا زئير الريح في أذنيه، ولقد تابعا الطيران طول الليل.

وحين جاء الصباح الباكر، توقفا، وصاح الطائر:"افتح عينيك!" فتح الشاب عينيه فشاهد أنه يقف على حافة غابة. تحته يمتد سهل يلمع متألقاً في الساعات المبكرة حتى أن ضوءه أعماه.

أعلن الطائر:" ستجدني هنا في الغابة مرة أخرى". ثم انطلق إلى السماء كسهم واختفى على الفور في الزرقة.

وانتاب الرسول الشاب شعور غريب وهو يبدأ مسيره من الغابة إلى السهل العريض. كان جميع ما حوله مختلفاً ومتغيراً فلم يعرف إن كان مستيقظاً أو حالماً. كانت المروج والأشجار تماماً كما هي في الوطن. وأشرقت الشمس، ولعبت الريح في الأعشاب الطرية. لكن لم يكن هناك بشرٌ أو حيوانات، أو منازل في السهل، وبدا كأن زلزالاً حدث هنا كما في موطن الشاب، ذلك أن أنقاض المباني، والأغصان المكسرة، والأشجار المقلوعة، والأسيجة المدمرة، وتجهيزات المزرعة المفقودة، كانت كلها متناثرة على الأرض. وفجأة شاهد رجلاً ميتاً متمدداً وسط حقل دون دفن ومتحللاً بشكل مريع. وشعر الشاب بالاشمئزاز من مرأى الجثة، وتصاعد فيه الغثيان، ذلك أنه لم ير مطلقاً شيئاً كهذا من قبل. كان وجه الميت غير مغطى وبدا كأن الطيور خربته وهو متآكل، مما حدا بالشاب إلى قطف بعض الأوراق الخضراء والأزهار،وبعد أن أشاح وجهه بعيداً، غطى وجه الميت بها.

وعلقت في الجو الفاتر رائحة لا توصف، مقرفة، وخانقة وبدت كأنها ملصقة بالسهل كله. ومرة أخرى شاهد الشاب جثة ممدة على الأعشاب وثمة غربان تدور فوق رأسها. كان هناك أيضاً حصان دون رأس، وعظام بشرية وحيوانية، والجميع تحت الشمس. وبدا كأنه ليس هناك تفكير بتقدمة من الأزهار ودفن. خاف الشاب

من احتمال أن كارثة لا تصدق سببت موت الجميع في هذه البلاد، وأن هناك عدداً كبيراً من الموتى سيعيقه عن قطف زهور كافية كي يغطي وجوههم جميعاً. مروّعاً، وبعينين نصف مغمضتين تجول إلى أبعد. وزحفت إليه نتانة الجثث والدم من جميع الجهات، وصعدت موجة قوية مستوية من البؤس والمعاناة التي لا توصف من ألف كومة مختلفة من الجثث والحطام. واعتقد الرسول أنه علق في حلم كريه. ربما كان هذا تحذيراً من القوى الإلهية، كما اعتقد، لأن موتاه لا يزالون بدون زينة الأزهار والدفن. ثم تذكر ما قاله له الطائر الغامض أمس من على سقف المعبد، واعتقد أنه سمع صوته الحاد مرة أخرى قائلاً:" هناك الكثير من الأشياء السيئة."

وأدرك الآن أن الطائر حمله إلى كوكب آخر وأن جميع ما رآه حقيقي وواقعي. وتذكر الشعور الذي جربه حين كان يصغي أحياناً إلى حكايات مروّعة عن الأزمنة البدائية. ولقد اعتراه ذلك الشعور نفسه الآن - قشعريرة مروّعة، ووراء القشعريرة شعور هادئ وظريف من الراحة، ذلك أن كل هذا كان بعيداً عنه بشكل لا نهائي ولقد مر منذ زمن طويل. كان كل شيء هنا كقصة رعب. إن هذا العالم الكامل من الوحشية، والجثث، والعقبان، بدا كأن لا معنى له ولا نظام.وفي الحقيقة، بدا كأنه خاضع لقوانين عصية على الإدراك، قوانين مجنونة، وفقاً لها حصلت أمور سيئة، وحمقاء وكريهة، بدلاً من الأمور الجميلة والجيدة.

وفي غضون ذلك شاهد إنساناً حياً يسير عبر الحقل، بدا كأنه مزارع أو أجير، فركض نحوه بسرعة، منادياً. وحين اقترب الشاب، دب فيه الرعب وتغلبت الرأفة على قلبه، ذلك أن المزارع كان في غاية الدمامة ولم يعد يشبه أي شيء له صلة بابن الشمس. وبدا أكثر كأنه رجل معتاد على التفكير بنفسه فحسب وعلى

رؤية أمور دميمة، ومزيفة، ومريعة تحدث في كل مكـان، كرجـل يعيـش باسـتمرار في كوابيس مروّعة. ولم يكن هناك أثر صفـاء أو لطـف في عينيـه وفي وجهـه كلـه وكينونته، ولا امتنان أو ثقة. وبدا هذا المخلوق سيئ الحظ كأنه دون ذرة فضيلة.

لكن الشاب تماسك واقترب مـن الرجـل بـود كبير، وكـأن الرجـل اسـتهدفته المصيبة. حيّاه بطريقـة أخويـة وتحـدث معـه مبتسـماً. وقـف الرجـل الدميـم كأنـه مشلول، ينظر حائراً بعينيه الضخمتين الغائمتين. كان صوته خشـناً ودون موسـيقى، كدمدمة كائن بدائي. لكن كان من المسـتحيل بالنسبة إليـه أن يقـاوم نظـرة الشـاب المبتهجة والجديرة بالثقة. وبعد أن حدق بالغريب لبرهة، عبر المزارع عـن ابتسـامة ما أو تكشيرة على وجهه الكالح والفظ - دميمة بما يكفي، ولكن لطيفة ومندهشـة، كالابتسامة الأولى الصغيرة لروح منبعثة خرجت لتوها من أدنى منطقة في الأرض.

وسأل الرجل الغريب الشاب:" ما الذي تريده مني؟"

استجاب الشاب وفقاً لعادة بلده:" أشـكرك، أيـها الصديـق، وأتوسـل إليـك أن تخبرني إن كان بوسعي أن أخدمك في أي شيء."

وحين لم يجب المزارع وإنما حدق وابتسم باستياء وحسب، قال له الرسـول:" أخبرني، أيها الصديق، ما الذي يجري هنـا؟ مـا هـذه الأمـور المروّعـة والمريعـة؟" وأشار إلى ما حوله.

واجهت الغريب صعوبة في فهمه، وحين كرر الرسول سؤاله، قال المزارع:" ألم تر هذا من قبل؟ هذه حرب. هـذه سـاحة معركـة." وحـين نظـر الغريـب في عينيـه المظلمتين بتعاطف عميق، خفضهما المزارع ونظر إلى الأرض.

" أليس لكم ملك؟" - سأل الشاب، وحين قال المزارع نعم، سأله من جديد - " أين هو؟"

وأشار الرجل إلى معسكر صغير لا يكاد يُرى في المسافة. فودعه الرسول واضعاً يده على جبين الرجل، ثم غادر. استجاب الرجل ولمس جبينه بيديه، هز رأسه الثقيل باهتمام، وحدق وراء الغريب فترة طويلة.

سار الرسول فوق الحطام وعبر مشاهد مريعة إلى أن وصل إلى المخيّم. كان رجال مسلحون يقفون هنا وهناك أو يركضون في الجوار. ولم يبد أن أحداً لاحظ وجوده، فسار بين الناس والخيام إلى أن وجد أكبر وأجمل خيمة، والتي هي للملك. وحالما وصل إلى هناك دخل.

كان الملك يجلس على غطاء بسيط داخل الخيمة، وإلى جانبه معطفه، وخلفه في ظل عميق يجلس خادمه، الذي كان نائماً. كان الملك نفسه يجلس محنياً غارقاً في تفكير عميق. كان وجهه أنيقاً وحزيناً، وتتدلى فوق جبينه المدبوغ خصلة من الشعر الشائب. وكان سيفه ممدداً قربه على الأرض.

حيّا الشاب الملك بصمت واحترام مخلص، كما يحيي ملكه، وبقي واقفاً وذراعاه مطويتان على صدره إلى أن نظر إليه الملك.

"من أنت؟" - سأل بقسوة، ضاماً حاجبيه السوداوين، لكن نظرته تركزت على الملامح النقية والصافية للغريب الذي كان ينظر إليه بثقة وود جعلا صوت الملك أكثر نعومة.

قال محاولاً أن يتذكر:" لقد رأيتك من قبل. أنت تشبه شخصاً كنت أعرفه في طفولتي."

قال الرسول:"أنا غريب."

قال الملك:" إذن هذا حلم. أنت تذكرني بأمي. قل لي شيئاً. قل لي لماذا أنت هنا."

بدأ الشاب:" أحضرني طائر إلى هنا. لقد حدث زلزال في بلادي. نريد أن ندفن موتانا، لكن ليس هناك أزهار."

" لا أزهار؟" - قال الملك.

"كلا، لم يعد هناك أزهار. وهذا مريع حين يريد الناس أن يدفنوا موتاهم وليس هناك إمكانية للاحتفال بتقديم الأزهار.إنه من الهام للبشر أن يجربوا التحول في المجد والمتعة."

وفجأة خطر للرسول أن هناك الكثير من الموتى في الحقل المروّع لم يدفنوا بعد، وحبس نفَسَه بينما كان الملك ينظر إليه، وتنهد بعمق.

قال الرسول:" أردت أن أذهب إلى ملكنا وأطلب منه أن يرسل إلينا أزهاراً كثيرة، ولكن بينما أنا في المعبد، جاء طائر كبير وقال إنه يريد أن يحضرني إلى الملك، فحملني عبر السماوات إليك. آه أيها الملك العزيز، كان معبد إله مجهول حط الطائر على سقفه، ولذلك الإله رمز خاص على مذبحه - قلب التهمه طائر بري. في أثناء الليل، على أي حال، تحدثت مع الطائر الكبير، والآن وحسب أفهم كلماته، ذلك أنه قال إن هناك المزيد من المعاناة وكثيراً من الأمور الأكثر هولاً في العالم أكثر مما أعرف. والآن أنا هنا ولقد عبرت الحقل الكبير ورأيت معاناة وكارثة لا نهائية في أثناء هذا الوقت القصير. وهكذا جئت إليك أيها الملك وأود أن أطلب منك إن كان بوسعي أن أسدي لك أية خدمة."

الملك الذي أصغى بانتباه حاول أن يبتسم، لكن وجهه الأنيق كان جدياً ومراً وحزيناً فلم يستطع.

قال:" أشكرك. لقد خدمتني مسبقاً. ذكرتني بأمي. أشكرك على هذا."

تضايق الشاب لأن الملك لم يقدر على الابتسام فقال:" أنت حزين جداً. أهذا بسبب الحرب؟"

أجاب الملك:"نعم."

وانتاب الشاب شعورٌ بأن الملك رجل نبيل متضايق جداً، ولم يستطع الامتناع عن كَسر قاعدة الكياسة وطرح سؤال مباشر:" ولكن، أخبرني، من فضلك، لماذا تشن حروباً كهذه على كوكبك؟ من يلام على ذلك؟ وهل أنت مسؤول عن ذلك؟"

نظر الملك إلى الرسول فترة طويلة. بدا ساخطاً وغاضباً من جرأة هذا السؤال. على أي حال، لم يكن قادراً على دعم نظرته الكئيبة حين كان يحدق إلى عيني الغريب المتألقتين والبريئتين.

قال الملك:" أنت طفل، وثمة أمور لا تقدر على فهمهما. الحرب ليست خطأ أحد. تحدث بنفسها كالرعد والبرق. جميعنا، الذين يجب أن يخوضوا الحروب ليسوا مجرمين. نحن ضحاياها وحسب."

سأل الشاب:" إذن يجب أن تموتوا بسهولة بالغة. ففي بلادي لا يُخشى من الموت، والجميع يذهبون بمشيئتهم إلى موتهم. كثيرون يقتربون من تحولهم بمتعة. ولكن لن يجرؤ أحد مطلقاً على قتل إنسان آخر. إن الأمور مختلفة على كوكبنا."

قال الملك وهو يهز رأسه:" فعلاً الناس يُقتلون هنا، لكن هذا نعتبره أسوأ جريمة. عندنا لا يُسمح بقتل البشر إلا في الحروب،ولا أحد هنا يقتل من أجل

فائدته الشخصية. لا أحد يقتل بسبب الحقد أو الحسد. وإنما يفعلون ما يطلبه المجتمع منهم. وستكون مخطئاً إن اعتقدت أن قومي يموتون بسهولة. عليك فقط أن تنظر إلى وجوه قتلانا، وسترى أنهم عانوا من صعوبة في الموت. يموتون بصعوبة ودون رغبة."

أصغى الشاب إلى كل هذا وتعجب من حزن ووقار البشر على هذا الكوكب. كان بوده أن يسأل المزيد من الأسئلة لكنه أحس أنه لن يفهم أبداً الطبيعة المعقدة لجميع هذه الأمور الغامضة والمريعة. وبالفعل، لم يشعر برغبة كبيرة الآن لفهمهم. إما هؤلاء القوم الحزانى مخلوقات نظام أدنى، أو لم يباركهم ضوء الآلهة ولا تزال الشياطين تحكمهم. أو ربما كان حدثٌ مؤسف يحدد مجرى الحياة على هذا الكوكب. وبدا له من المؤلم والقاسي كثيراً أن يتابع طرح الأسئلة على الملك، ويجبره على تقديم أجوبة واعترافات لا يمكن أن تكون إلا مذلة ومؤلمة له. حزن على هؤلاء الناس - الذين عاشوا في كآبة وهلع من الموت وبرغم ذلك قتلَ بعضهم بعضاً في جماعات. هؤلاء القوم، الذين ارتدت وجوههم ملامح خسيسة وفظة، والتي تحمل تعبيرات من الحزن العميق والمريع كوجه الملك. بدوا له كأنهم مميزون - تقريباً تافهون، وحمقى بطريقة مزعجة ومعيبة.

كان هناك سؤال آخر، على أي حال، لم يستطع الشاب أن يقمعه. حتى ولو كان هؤلاء المساكين متخلفين، أطفالاً وراء الزمن، أبناء كوكب عصري دون سلام، حتى ولو كانت حياتهم تسير في مجراها كمغص تشنجي وتنتهي بذبح بائس، حتى ولو تركوا موتاهم ممددين في الحقول أو أكلوهم - فلا بد أنهم يملكون شعوراً

سبقياً بالمستقبل،حُلم آلهة، شرارة روح ما فيهم. بخلاف ذلك، سيكون هذا الكوكب المزعج برمته خطأ لا معنى له.

قال الشاب بصوت متملق:" سامحني أيها الملك، سامحني إن سألتك سؤالاً آخر قبل أن أغادر بلادك الغريبة."

"هيا" – قال الملك الذي ارتبك من الغريب، ذلك أن الشاب بدا كأنه يملك ذهناً حساساً، ناضجاً، وبصيراً بطرق عديدة، ولكن، في الوقت نفسه، بدا كأنه طفل صغير على المرء أن يحميه دون أن يأخذه على محمل الجد.

تحدث الغريب:" أيها الملك الأجنبي، لقد أحزنتني. كما ترى، لقد أتيت من بلاد أجنبية، والطائر الذي كان على سقف المعبد محق. ثمة بؤس لا نهائي هنا أكثر مما يمكن أن أتصور. وتبدو حياتك كأنها كابوس مروّع، ولا أعرف إن كانت تحكمك الآلهة أم الشياطين. ونحن نمتلك أسطورة أيها الملك – اعتدت أن أؤمن أنها حكاية من حكايات الجن، قمامة ودخان فارغ. إنها أسطورة تتحدث عن شيوع أمور كالحرب والموت واليأس في بلادنا في إحدى المرات. والكلمات المريعة هذه، التي توقفنا عن استخدامها منذ زمن طويل، يمكن أن تقرأ في كتب حكاياتنا القديمة، وتبدو رهيبة لنا وسخيفة قليلاً. واليوم تعلمت أن هذه الحكايات كلها صحيحة، وأراك أنت وقومك تموتون وتعانون مما عرفته من الأساطير المريعة للأزمنة البدائية وحسب. ولكن أخبرني الآن، ألا تملك في روحك نوعاً من الإحساس بأنك لا تقوم بالشيء الصحيح؟ ألا تتوق إلى آلهة صافية متألقة وناصحين مخلصين؟ ألا تحلم في نومك بحياة أخرى أكثر جمالاً حيث لا يحسد أحد أحداً وحيث يسود العقل والنظام، ويعامل الناس بعضهم بعضاً باحترام وبهجة

فحسب؟ ألم تفكر أبداً أن العالم يمكن أن يكون كلاً، ويمكن أن يكون من المفيد والصحي الاحتفاء بوحدة جميع الأشياء؟ ألا تعرف أي شيء عما نسميه في وطننا بالموسيقى والعبادة المقدسة والبركة؟"

فيما كان يصغي إلى هذه الكلمات غاص رأس الملك، وحين رفعه من جديد، كان وجهه قد تحوّل، وتوهّج بابتسامة، رغم أن عينيه اغرورقتا بالدموع.

قال الملك:" يا لك من فتى جميل! لستُ متأكداً إن كنت طفلاً، أو فقيهاً، أو ربما إلهاً. لكنني أستطيع أن أخبرك أننا نحس بذلك كله ونسكنه في أرواحنا. نمتلك إحساساً بالسعادة، والحرية، والآلهة. وفي الحقيقة، لدينا أسطورة عن رجل حكيم عاش منذ زمن طويل وأدرك وحدة العوالم كموسيقى متناغمة للأجواء السماوية. هل يكفي هذا الجواب؟ يمكن أن تكون كائناً مباركاً من عالم آخر، أو يمكن أن تكون الله نفسه. ومهما كان الأمر، ليس هناك سعادة في قلبك، أو قوة، أو إرادة تعيش كشعور سبقي، كتأمل، كظل بعيد في قلوبنا، كذلك."

فجأة نهض الملك، فدهش الشاب، ذلك أن وجه الملك كان مبللاً بابتسامة متألقة، واضحة للحظة كأشعة الشمس الأولى.

صاح بالرسول:" اذهب الآن، اذهب واجعلنا نقاتل ونقتل! لقد ليّنتَ قلبي. لقد ذكرتني بأمي. كفى، هذا يكفي، أيها الصبي الأنيق العزيز. اذهب الآن، واهرب قبل أن تبدأ المعركة التالية! سأفكر بك حين يتدفق الدم وتحترق المدن، وسأفكر بالعالم كله، وكيف لا يمكن أن تفصلنا حماقتنا، ووحشيتنا، وغضبنا عنه. وداعاً، وبلغ تحياتي لكوكبك،وإلهك، الذي رمزه قلب التهمه طائر بري. أعرف هذا القلب، وأعرف الطائر جيداً. ولا تنس، يا صديقي الأنيق القادم من كوكب بعيد: حين تفكر

بصديقك، الملك المنخرط في حرب، لا تفكر به كما هو جالس على الغطاء منغمساً في حزن عميق. فكر به وهو يبكي والدم على يديه وكيف ابتسم!"

رفع الملك حاشية الخيمة بيده كي لا يوقظ الخادم، وأخرج الغريب. عبر الشاب السهل من جديد منغمساً في التفكير، وشاهد، وهو يتابع طريقه، مدينة كبيرة تحترق في الأفق في ضوء المساء. تسلق فوق الموتى وجثث الأحصنة المتآكلة إلى أن خيم الظلام ووصل إلى حافة الغابة.

فجأة انحدر الطائر الكبير من بين الغيوم وحمل الشاب على جناحيه، وطارا عبر الليل بصمت وهدوء كطيران البومة.

حين استيقظ الشاب من نوم قلق، كان يستلقي في معبد صغير بين الجبال، وكان حصانه يقف أمام المعبد بين العشب الرطب، يحيي النهار بصهيله. على أي حال، لم يتذكر الرسول أي شيء عن الطائر الكبير وطيرانه إلى كوكب أجنبي، لم يذكر أي شيء عن الملك وساحة الوغى. كل هذا بقي كظل في روحه، وألم طفيف، وغامض، كأن شوكة حادة سببته. آلمه، كما يؤلم التعاطف حين لا يمكن فعل شيء، تماماً كما يمكن أن تعذبنا أمنية صغيرة غير محققة في الأحلام إلى أن نلتقي أخيراً بالشخص الذي أحببناه في السر، والذي نريد أن نشاركه متعتنا ونتمنى أن نرى ابتسامته.

امتطى الرسول حصانه وانطلق طوال النهار إلى أن وصل إلى العاصمة، حيث أدخل إلى الملك. وبرهن أنه الرسول الحقيقي، ذلك أن الملك استقبله بتحية سمو لامساً جبينه وقائلاً:" لقد تحقق طلبك حتى قبل أن أسمع به."

وبعد ذلك بوقت قصير تلقى الرسول صكاً من الملك يضع جميع أزهار البلاد تحت تصرفه. ذهب معه المرافقون والرسل إلى القرى كي يقطفوها. رافقته العربات والأحصنة، واستغرق الأمر بضعة أيام للالتفاف وراء الجبل على الطريق الريفي المستوي الذي قاده إلى مقاطعته وقومه. قاد الشاب العربات والأحصنة والحمير، المحملة كلها بأجمل الأزهار من الحدائق والبيوت الزجاجية الوفيرة في الشمال. كانت هناك أزهار كافية لوضع أكاليل على أجساد الموتى ولتزيين قبورهم بسخاء، وما يكفي لزراعة زهرة تذكارية، دغل، وشجرة لكل شخص، كما تقتضي العادة. والألم الذي سببه موت صديقه وحصانه المفضل تلاشى في أعماق الشاب وتحول إلى ذكريات صافية، وصامتة بعد أن زيّنهما ودفنهما وزرع زهرتين، وشجيرتين، وشجرتين مثمرتين فوق قبريهما.

والآن بعد أن قام بما رغب به وأدى التزاماته، بدأت ذكرى تلك الرحلة عبر الليل ترتعش في روحه، وسأل أصدقاءه وأقرباءه أن يسمحوا له بأن يمضي اليوم كله وحيداً. وهكذا جلس تحت شجرة التأمل يوما كاملاً بليلته. وهناك نشر صور جميع ما رآه على الكوكب الغريب، نظيفة، وواضحة. وبعد يوم، ذهب إلى كبير القوم، طلب حديثاً خاصاً معه، وروى له كل ما حدث.

جلس كبير القوم وفكر بكل شيء وهو يصغي. ثم سأل:" هل رأيت كل هذا بعينيك، يا صديقي، أم كان حلماً؟"

قال الشاب:" لا أدري. أعتقد أنه يمكن أن يكون حلماً. على أي حال، بعد إذنك، هل يمكن أن أقول أنه يبدو لي وكأنه لا يكاد يهم إن كنت قد جربت كل شيء واقعياً. لقد بقي في داخلي ظلٌّ من الحزن، وريحٌ باردةٌ من ذلك الكوكب

الآخر تتابع هبوبها عليَّ، في منتصف سعادة حياتي. ولهذا أنا أسألك، يا كبيرنا المحترم، ماذا أفعل حيال هذا؟"

أجاب كبير القوم:" عد إلى الجبال غداً، واذهب إلى المكان الذي عثرت فيه على المعبد. إن رمز ذاك الإله يبدو غريباً بالنسبة إلي، ذلك أنني لم أسمع به من قبل مطلقاً. يمكن أن يكون إلهاً من كوكب آخر. أو من المحتمل أن المعبد وإلهه قديمان جداً وينتميان إلى مرحلة أسلافنا الأوائل، إلى تلك الأيام حيث كان من المفترض وجود أسلحة، وخوف، وهلع من الموت بيننا. اذهب إلى المعبد، يا فتاي العزيز، وخذ زهوراً، وعسلاً، وأغنية."

شكر الشاب كبير القوم وعمل بنصيحته. أخذ إناء من العسل، كالذي يقدم عادة للضيوف المشرفين في احتفال النحل الأول في أوائل الصيف، وحمل معه مزهره. على الجبال وجد المكان حيث قطف مرة أزهار الجريس، وعثر على الممر الصخري المنحدر في الغابة الذي قاده إلى الجبل، حيث سار مؤخراً على قدميه وهو يجر حصانه. على أي حال، لم يستطع العثور على مكان المعبد، أو على المعبد نفسه، حيث حجر التضحية الأسود، والأعمدة الخشبية، والسقف، أو الطائر الكبير الذي على السقف. لم يستطع العثور على هذه الأمور في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، ولم يعرف أحد من الذين سألهم أي شيء عن المعبد الذي وصفه لهم. وهكذا عاد إلى وطنه، وحين سار قرب معبد الذكريات الجميلة، دخل، قدم العسل، عزف على المزهر وغنى، وروى لإله الذكريات الجميلة جميع تفاصيل حلمه، عن المعبد، والطائر، والمزارع الفقير، والجثث، وساحة الوغى. وروى المزيد عن الملك الذي كان في خيمته الحربية. بعد ذلك عاد إلى مسكنه بقلب خفيف،

علّق رمز وحدة العالم في غرفة نومه، وتعافى من أحداث الأيام القليلة الماضية بنوم عميق. في الصباح التالي ساعد جيرانه في التخلص من آخر آثار الزلزال من الحدائق والحقول، وكان يغني وهو يعمل.

فالديوم

١- فالديوم

كان الطريق الذي يؤدي إلى مدينة فالديوم يمر بين بعـض التـلال، وتنقطـه في أمكنة متفرقة، على طول الطريـق، الغابـات، والمراعـي الخضـراء الكبيرة، وحقـول القمح. وكلما اقترب من المدينة، يمر أكثر عبر أهراء، وملابن، وحدائق، وحواضـر. كان البحر بعيداً جداً لا تمكن رؤيته، وبـدا كـأن العـالم يتـألف مـن تـلال صغـيرة، وأودية جميلة، ومراع، وأراض زراعية، وبساتين فحسب. كانت بلاداً فيها الكثير مـن الفاكهة والأخشاب، والحليب، واللحوم، والتفاح، والجوز. القرى جذابة جداً ونظيفة، والناس في المجمل مستقيمون ومجدون ولم يميلوا إلى القيام بمشـاريع خطـيرة أو مزعجة. وكانوا يشـعرون بالرضـا إذا تمكنـوا مـن البقـاء علـى وئـام مـع جيرانـهم وتمكن جيرانهم من البقاء على وئام معهم. هكذا كانت الحياة في فالديوم، كمـا في معظم البلدان في العالم هي نفسها، طالما أنه لا تحدث أمور خارقة.

في ذلـك الصبـاح، أصبـح الطريـق الجميـل الـذي يقـود إلى فـالديوم (البـلاد المحيطة لها الاسم نفسه) حيويـاً منـذ صيـاح الديـك. فقـد عـج بالنـاس والعربـات والحافلات كما يحدث مرة كل عام، ذلك أن المدينة تقيم معرضها الكبير في ذلـك اليوم. وفي الحقيقة، كان جميع المزارعين وزوجاتهم، وجميع الأسياد، والمعـاونين، والفلاحين، والعذارى، والشبان، الذين يقطنون على بعد عشرين ميـلاً مـن المدينـة، يفكرون بالمعرض الكبـير طـوال أسـابيع ويحلمـون بزيارتـه. بـالطبع، لا يستطيع

الجميع الذهاب. يجب أن يبقى أحد ما ويعتني بالحيوانات والأطفال الصغار، والمرضى والعجائز، وحين يجري سحب اليانصيب، فإن الذي يخسر يبقى في المنزل ويعتني به وبالمزرعة. وبالنسبة لأولئك الناس،يبدو وكأن عاماً من حياتهم كان بلا طائل، وكل شيء أفسد بالنسبة إليهم، حتى الشمس الجميلة، التي كانت تقف دافئة ومرحة في السماء الزرقاء لأواخر الصيف أشرقت باكراً في ذلك الصباح.

كانت النساء والفتيات الشابات يحملن سلالاً في أذرعهن وهن يسرن، والشبان ذوو الذقون الحليقة والنظيفة يزينون صدورهم بالقرنفل وأزهار النجمة. كان الجميع يرتدون ثياب الأحد النظيفة،ولقد تفنَّنتْ فتيات مدارس في ضفر شعرهن الذي لا يزال رطباً ومتلألئاً في ضوء الشمس. أما الذين يركبون العربات فقد كانوا يرتدون الأزهار أو يربطون شرائط حمراء صغيرة إلى قبضة السوط، وكان الميسورون يزينون طقوم خيولهم بأقراص نحاسية مصقولة ولامعة تتدلى على طول الجلد المزخرف إلى أرجلها. وتأتي الحافلات التي تنحني سقوفها المصنوعة من أغصان الزان في أقواس فوق المقاعد، وتحت السقوف يجلس بشر مع أولادهم أو يضعون سلالهم في أحضانهم، ومعظمهم يغنون في كورس بصوت مرتفع. وبين فينة وأخرى، تظهر عربة بين أخريات وتكون ملونة، ومزينة بالرايات والأزهار الورقية، الحمراء والزرقاء والبيضاء، المختلطة مع الأوراق الخضراء لأغصان الزان. وكانت موسيقى القرية تدوي بفخامة من العربة، ومن خلال الأغصان يستطيع المرء أن يشاهد الأبواق الذهبية وآلات النفخ تتوهج بنعومة وروعة في أنصاف الظلال. والأطفال الصغار الذين أجبروا على السير منذ شروق الشمس بدأوا يبكون من

الإعياء بينما كانت أمهاتهن المتعرقات يحاولن تهدئتهم. ولقد مُنح كثيرون منهم توصيلة من سائقين لطيفين وكرماء. كانت عجوز تدفع توأمين إلى عربة، وكلاهما نائم، وبين رأسي الطفلين النائمين تستلقي دميتان، ترتديان ثياباً جميلة، شعرهما ممشّط،ولهما خدود مستديرة كخدود الطفلين.

أما الناس الذين يعيشون على طول الطريق، والذين لن يذهبوا إلى المعرض في هذا اليوم، فقد عاشوا صباحاً مسلياً لأنه كان هناك الكثير للرؤية. مع ذلك لم يبق إلا قلة في المنزل. بكى طفل في العاشرة من عمره يجلس على درج الحديقة لأنه يجب أن يبقى مع جدته. ولكن بعد أن جلس وبكى لمدة كافية كما اعتقد، قفز إلى الطريق وانضم إلى بعض أطفال القرية وهم يمرون سائرين.

وفي مكان ليس بعيداً من هنا كان يعيش عجوز أعزب لا يريد أن يذهب إلى المعرض لأنه لا يحب أن يصرف نقوده. نوى أن يمضي اليوم في تقليم سياج الزعرور البري المرتفع حول حديقته لأنه كان يحتاج إلى التشذيب بينما كان الجميع يحتفلون بعيداً. وحالما بدأ ندى الصباح تبخره، تابع عمله مبتهجاً بمقص التقليم الكبير. ولكن بعد أن عمل لمدة ساعة، توقف وتراجع غاضباً إلى منزله لأن جميع الصبيان الذين مروا، سيراً على الأقدام أو على ظهر حصان، حدقوا مندهشين بالرجل الذي يقلم السياج ونكتوا على حماسته التي ليست في وقتها، بينما انضمت الفتيات إلى ذلك ضاحكات. وحين هددهم العجوز بمقصه الطويل، لوح الجميع بقبعاتهم، ساخرين منه. فدخل وجلس خلف مصاريع مغلقة، محدقاً من الشقوق بحسد، وحين تلاشى غضبه تدريجياً وشاهد البشر الآخرين القليلين مندفعين إلى المعرض وكأن حياتهم تعتمد عليه، انتعل بوطه، وضع تالراً في كيسه، تناول عصاً،

وانطلق. وخطر له فجأة أن تالراً واحداً هو في الحقيقة نقود كثيرة. فأخرجه من الكيس،ووضعه في جيبه، أقفل المنزل وبوابة الحديقة، وركض بسرعة عابراً الكثير من الراجلين وحافلتين في طريقهما إلى المدينة.

وحالما رحل وفرغت حديقته ومنزله، استقر الغبار بهدوء على الطريق. وطافت أصوات الموسيقى والخيول التي تخب ثم تلاشت. وبدأت عصافير الدوري تخرج من حقول الجذامة، مستحمة في الغبار الأبيض، وهي تفتش عن ما خلفته القافلة المسرعة. كان الطريق فارغاً ومهجوراً وحاراً. ومن المسافة البعيدة لا تزال صرخات المتعة وأصوات الموسيقى تندفع بين فينة وأخرى، ضعيفة وضائعة.

حينئذ خرج رجل من الغابة يعتمر قبعة انحدرت حافتها العريضة فوق عينيه، وتسكّع على غير هدى، وحده، على الطريق الطويل المهجور. كان رجلاً ضخماً يتمتع بخطوة قوية هادئة كمتجول سافر كثيراً على قدميه. ثيابه بسيطة ورمادية، عيناه تحدقان إلى الخارج من ظل قبعته، بانتباه وصفاء تتركان انطباعاً عن رجل لا يرغب بشيء من هذا العالم لكنه يرصد كل شيء بانتباه كبير. وفي الحقيقة، لم يغب أي شيء عن نظره. شاهد المسارات المتشابكة التي لا تحصى للعربات التي مرت على الطريق. وشاهد علامات حافر حصان يعرج من رجله اليسرى، والوميض الضئيل لسقوف فالديوم التي ترتفع فوق الهضبة. رأى امرأة صغيرة، قلقة ويائسة، تتجول في حديقة وكأنها ضائعة وتنادي شخصاً لم يجبها، وشاهد قطعة صغيرة من المعدن تلمع على حافة الطريق فانحنى والتقط قرصاً نحاسياً لامعاً فقده حصان من ياقته. فوضعه في جيبه. ثم شاهد سياج زعرور قديماً كان قد قلم لتوه جزئياً. كان الجزء الأول من العمل دقيقاً ونظيفاً وبدا كأنه شغل بمتعة. وحين سار

على طول السياج لاحظ أن هناك إهمــالاً متزايداً في العمـل، إذ كـان هنـاك تقليـم عميق، وأغصان مهملة تنتأ بكثافة حادة وأشواك.

وبعد أن قطع الغريب مسافة عثر على دمية تستلقي على الطريـق وقـد مـرت عجلة حافلة على رأسها. شاهد قطعة من خبز الشعير تلمع عليها زبدة ذائبة. أخيراً، عثر على كيس جلدي متين فيه نصف تالر. وضـع الدميـة إزاء سـقف محـرّد علـى حافة الطريق، فتت الخبز وأطعـم عصافير الـدوري، ووضـع الكيس الـذي يحـوي نصف تالر في جيبه.

كان الطريق المهجور صامتاً بشكل لا يُصدّق. وكانت الطبقة العليا مـن التربـة على كلا الجانبين كثيفة من الغبار ومحمصة من الشمس. كان الدجاج يركض حول ساحة مزرعة قريبة، ولم يُشاهد أحـد في الجـوار فيمـا كـانت الدجاجـات تقوقـئ أوتتمتم حالمة تحـت الشـمس الدافئـة. لكنـه رأى حينئـذ امـرأة تنحـني فـوق بقعـة ملفوف زرقاء وتنتزع الأعشاب من التربة الجافة. ناداها الغريــب وسـألها كـم تبعـد المدينة. كانت صماء، على أي حال، وحين نادى ثانية بصوت أكثر ارتفاعـاً، نظـرت إليه فحسب ببؤس وهزت رأسها الشائب.

وفيمـا كـان الغريـب يسير سمـع أصـوات الموسيقى ترتفـع وتنخفـض في المدينة. وكانت تتكرر وتطول كلما اقترب مــن المدينـة، إلى أن تدفقـت الموسـيقى والهمسات باستمرار كشــلال بعيـد، وكـأن النـاس تجمعـوا ليمتعـوا أنفسـهم هنـاك. وتدفق جدول إلى جانب الطريق، عريضاً وهادئاً. كان فيه بط، وأعشـاب مائيـة بنيـة وخضراء تحت السطح الأزرق. وحين بدأ الطريق بالصعود، انحنـى الجـدول جانبـاً، وعبره جسر حجري. رجل نحيل، يبدو كأنه خياط، كان نائمـاً علـى حـائط الجسـر

المنخفض، رأسه منحدر إلى الأسفل. سقطت قبعته على الغبار، ويجلس إلى جانبه كلب ذكي يحرسه. أراد الغريب أن يوقظ الخياط لأنه يمكن أن يسقط بسهولة من فوق حائط الجسر وهو نائم. على أي حال، حالما نظر فوق الحائط، أدرك الغريب أنه ليس مرتفعاً جداً، وأن المياه ضحلة فترك الخياط يغط في نومه.

وبعد أن عبر درباً منحدراً، وصل الغريب أخيراً إلى بوابة فالديوم. كانت مفتوحة على مصراعيها، ولم ير أحداً. دخل الرجل عبر البوابة، وفجأة رن صدى خطواته صاخباً في الشارع المبلط، حيث كان صف من العربات الفارغة، غير المطقمة يقف إلى جانب المنازل. وظهرت بعض علائم الحياة والضجة من الشوارع الأخرى، لكن لم يكن هناك شخص واحد. كان الشارع الصغير مليئاً بالظلال، ولم يعكس ضوء النهار الذهبي سوى نوافذ المنازل العليا. استراح المتجول هنا لوقت قصير، وجلس على عمود حافلة. وقبل أن ينطلق، وضع القرص النحاسي لطقم الفرس الذي وجده على الطريق على مقعد السائق.

وما إن قطع فرسخاً حتى غمره صخب وضجة المعرض. كان هناك مئات الأكشاك، والباعة يصيحون بصوت مرتفع ويحاولون بيع بضاعتهم. كان الأطفال ينفخون في أبواق فضيّة، والقصابون يخرجون خيوط السجق المبلل من آنية تغلي. ووقف صيدليٌّ،آخذاً وضعية كطبيب، منتصباً على منصة ناظراً بلهفة عبر نظارته السميكة،عارضاً رسماً يصور جميع أنواع الأمراض والعلل البشرية. ومر رجل بشعر أسود طويل قرب كشكه يقود جملاً بحبل. وكان الجمل، ذو العنق الطويل، ينظر بغرور إلى حشد البشر، ويحرك شفتيه المشرومتين إلى الأمام والخلف، وهو يمضغ.

فحص الرجل الذي من الغابات كل شيء باهتمام بالغ. ترك الحشد يدفعه ويشده. نظر إلى داخل كشك لرجل يبيع مطبوعات ملونة. وفي كشك آخر قرأ الأقوال والشعارات على كعك الزنجبيل المغلف بالسكر. لم يمكث في أي مكان طويلاً وبدا كأنه يبحث عن شيء لم يعثر عليه بعد. وهكذا تحرك إلى الأمام ببطء إلى أن جاء إلى الحي المركزي الضخم حيث كان بائع طيور يضع قفصاً في الزاوية. هناك أصغى لبرهة إلى الأصوات التي تخرج من الأقفاص الكثيرة والصغيرة، وأجاب بصفرة ناعمة للزقيقيّة، والسّمانى، والكناري، وللطائر الشادي.

وفجأة جذبه شيء في الجوار، متألق ومبهر، وكأن شعاع الشمس كله متركز في بقعة واحدة، وحين اتجه إلى تلك الناحية، عثر على مرآة معلقة في كشك. إلى جانبها كانت هناك مرايا أخرى، مئات المرايا الكبيرة والصغيرة، المربعة، والمستديرة، والبيضوية، مرايا تعلق على الجدران أو تُنصب. كانت هناك أيضاً مرايا يدوية وصغيرة، مرايا رقيقة للجيب تستطيع أخذها إلى أي مكان، وهكذا لا تنسى وجهك. وقف البائع هناك، عكس الشمس في مرآة متألقة، ثم ترك انعكاس الضوء يرقص فوق كشكه. في غضون ذلك، كان يصيح بلا توقف:" مرايا أيتها السيدات والسادة، اشتروا مراياكم من هنا! أفضل المرايا! أرخص مرايا في فالديوم! مرايا يا سيدات، مرايا رائعة! فقط ألقين نظرة. كلها أصلية. أفضل كريستال موجود!"

توقف الغريب في كشك المرايا وبدا كأنه عثر على ما كان يبحث عنه. وبين الناس الذين يفحصون المرايا كانت هناك ثلاث فتيات من الريف. تحرك إلى مكان قريب وراقبهن. كن فلاحات نشيطات وقويات، غير جميلات وغير دميمات، ينتعلن أحذية نعالها سميكة وجرابات بيضاء. كانت ضفائرهن الشقراء قد بيضتها الشمس،

وكانت لهن أعين فتية متألقة. وأخذت كل منهن مرآة رخيصة في يدها، وترددت الثلاث وفكرن فيما إذا كن يجب أن يشترين، وهن يستمتعن بعذاب الاختيار العذب، وكل منهن تنظر وحيدة وحالمة إلى الأعماق الشفافة للمرآة وتتفحص صورتها، فمها، وعينيها، الجوهرة الصغيرة لعنقها، والأذن الوردية. ثم أصبحن جادات وصامتات. الغريب، الذي كان يقف تماماً خلف الفتيات، شاهد أعينهن الضخمة المرحة والمنعكسة تنظر إليه من المرآة.

سمع الفتاة الأولى تقول:" آه، أتمنى لو أن لي شعراً طويلاً، شعراً أحمر لامعاً، يصل إلى ركبتي!"

حين سمعت الفتاة الثانية أمنية صديقتها،تنهدت بنعومة ونظرت عميقاً في مرآتها. ثم عبّرت عن حلم قلبها وقالت محمرة من الخجل:" أتمنى لو أن لي أجمل يدين، وأريدهما بيضاوين ورشيقتين، بأصابع طويلة رائعة وأظافر وردية." حين قالت ذلك، نظرت إلى يدها التي تحمل المرآة البيضوية. لم تكن اليد دميمة، لكن الأصابع كانت قصيرة قليلاً وسميكة ولقد أصبحت خشنة وصلبة من العمل.

أما الفتاة الثالثة، أصغرهن وأكثرهن حيوية، ضحكت من كل هذا وقالت بمرح:" ليست هذه أمنية سيئة! لكن أنت تعرفين أن اليدين غير مهمتين بهذا القدر. ما أفضله هو أن أصبح أفضل وأرشق راقصة في فالديوم منذ هذه اللحظة فصاعداً."

على نحو مفاجئ قفزت الفتاة مذعورة واستدارت. كان وجه غريبٌ بعينين سوداوين لامعتين ينظر إليها في المرآة من وراء وجهها. كان وجه الرجل الذي يقف خلفها غريباً، وحتى ذلك الوقت لم تلاحظ الفتيات الثلاث وجوده. نظرتا إليه

بدهشة، فيما هز رأسه وقال:" لقد تمنيتن ثلاث أمنيات، يا فتياتي. هل تعنين حقاً ما تفوهتن به؟"

وضعت الفتاة الصغيرة المرآة وخبأت يديها خلف ظهرها. كانت تريد أن ترد على الرجل الذي أخافها وتفكر بكلمة جارحة أو كلمتين تقولهما له. ولكن حين نظرت في وجهه، شاهدت قوة كبيرة في عينيه فجبنت.

"هل يهمك ما أتمناه؟" قالت ببساطة، واحمرت.

ولكن الفتاة الأخرى، التي تمنت يدين رشيقتين، شعرت أنها تستطيع أن تثق به. كان هناك شيء أبوي ومميز فيه.

قالت:" نعم. نحن جادات في ما قلناه. وهل يستطيع المرء أن يتمنى ما هو أجمل؟"

انضم إليهم بائع المرايا، وبشر آخرون أيضاً كانوا يصغون. أدار الغريب حافة قبعته كي يرى الجميع جبينه المرتفع الناعم وعينيه المهيبتين. وهز رأسه للفتيات الثلاث بطريقة ودودة، ابتسم، وأعلن:" انظرن، لقد تحققت أمنياتكن مسبقاً!"

حدقت الفتيات إلى بعضهن بعضاً ثم نظرن في المرايا. فجأة شحبت الثلاث من الدهشة والمتعة. تحول شعر الفتاة الأولى إلى خصلات حمراء ذهبية كثيفة تدلت إلى ركبتيها. كانت الثانية تحمل مرآتها في يدين أكثر بياضاً ورشاقة، كيدي أميرة، وارتدت الثالثة فجأة حذاء رقص من الجلد، ووقفت بكاحلين نحيلين ككاحلي الأيّل. لم تستطع أي من الفتيات أن تفهم ما حدث، لكن الفتاة ذات اليدين الرائعتين بكت من المتعة. اتكأت على كتف صديقتها وبكت بسعادة على شعرها الذهبي، الأحمر الطويل.

وانتشرت قصة المعجزة من خلال الكلمة والصرخات المرتفعة في جميع أنحاء الكشك. عامل مياوم راقب كل شيء، وقف وحدق بالغريب بعينين مفتوحتين جداً، وكأنه كان مشلولاً.

سأله الغريب على الفور:" هل تريد أن تتمنى أي شيء؟"

خاف العامل المياوم وارتبك تماماً. نظر حوله بعجز كي يحدد شيئاً يتمناه. ثم شاهد خيطاً ضخماً من السجق الأحمر السميك يتدلى أمام منصب اللحام الخاص بلحم الخنزير، وتلعثم وهو يشير إليه.

"أحب أن أحصل على خيط سجق كهذا."

ما إن قال ذلك حتى تدلى إكليل من السجق حول عنقه، وبدأ كل من كان موجوداً يضحك ويصيح. حاول الناس أن يقتربوا أكثر، وأراد الجميع أن يتمنوا. ولقد سمح لهم بذلك. كان الرجل التالي أكثر جرأة وتمنى ثياب أحد جديدة من رأسه إلى قدميه. وعلى نحو مفاجئ كان يرتدي بذلة جديدة رائعة أكثر جمالاً من بذلة رئيس البلدية. ثم جاءت امرأة ريفية، وبعد أن استجمعت شجاعتها، طلبت عشرة تالرات. وعلى الفور رنّت التالرات في جيبها.

ورأى البشر أن المعجزات تحصل بشكل حقيقي، وانتشرت الأنباء كحريق هائل في السوق والمدينة. تجمع الناس بسرعة في حشود كبيرة حول كشك بائع المرايا. الجميع ضحكوا ومزحوا، آخرون لم يصدقوا شيئاً وعبروا عن شكوكهم. لكن كثيرين كانوا قد أصيبوا مسبقاً بحمى التمني وجاؤوا راكضين بأعين متوهجة وأوجه ساخنة شوهها الجشع والحاجة، ذلك أن الجميع خافوا من أن يجف مصدر الأمنيات قبل أن يستطيعوا الغمس فيه. تمنى الأطفال الصغار الحلوى، القوس

والنشّاب، أكياس الجـوز، ألعـاب البولنـغ. وابتعـدت الفتيـات الصغـيرات سـعيدات بالثياب الجديدة، والشرائط، والقفازات، والمظلات. صبي في العاشرة، كان قد هرب من جدته وأثارته أمجاد وروعة المعرض، تمنـى بصـوت واضـح مـهراً حيـاً، لكـن يجب أن يكون أسود. وعلى الفور صهل مهرٌ أسود خلفه وحك رأسـه بـدفء علـى كتفه.

عجوز أعزب يحمل عكازاً في يده شق طريقه في الحشد، الذي كان كله ثملاً من السحر، وخطا إلى الأمام مرتجفاً. ولم يكـد يسـتطيع التفـوه بكلمـة لأنـه كـان مهتاجاً.

قال متلعثماً:" أتمنى. أت ت ت منى مائتي مرة –"

نظر إليه الغريب بتمعن، ثم نزع محفظة جلدية من جيبه وحملها أمـام عيـني الرجل المهتاج وقال:" انتظر ثانية. ألست من فقد محفظة النقـود هـذه؟ فيـها نصـف تالر."

قال الأعزب:" نعم. إنها لي."

" هل ترغب باستعادتها؟"

"نعم، أعدها إلي."

وهكذا استعاد محفظته، لكنه ضيّع أمنيته في الوقت نفسه، وحـين أدرك ذلـك، غضب ورفع عصاه على الغريب وحاول أن يضربه، لكنه أخطأ وحطم مرآة. كـانت شظايا الزجاج لا تزال تصلصل حين جاء البائع وطلب مالاً،وكان على الأعـزب أن يدفع.

اقترب مالك منزل ضخم وتمنى أمنية رائعة. تمنى سقفاً جديداً لبيته، وفي غضون ثوان ظهر بآجر جديد ومدخنة بيضاء كالحوار. عندها أثير الجميع مرة أخرى وبدأوا يتمنون أشياء أكبر وأفضل. وعلى الفور لم يخجل رجلٌ من أن يتمنى منزلاً مؤلفاً من أربعة طوابق في السوق، وبعد ربع ساعة كان يستند إلى عتبة نافذته ويراقب المعرض من هناك.

وبالفعل لم يعد هناك معرض بما أن الجميع وكل شيء في المدينة كان يتدفق كنهر من المنبع - البقعة التي قرب كشك المرايا، حيث كان الغريب يقف ويسمح لكل شخص أن يتمنى أمنية. كانت صيحات الدهشة، والحسد، أو الضحك تتبع كل أمنية، وحين تمنى طفلٌ صغيرٌ جائع ملء قبعة من الخوخ وحسب، ملأ قبعته بالقطع النقدية شخص كانت أمنيته أقل تواضعاً. تلقت زوجة بقال سمينة تصفيقاً كبيراً وهتافات حين تمنت التخلص من تضخم الغدة الدرقية. وعندئذ قُدِّمَ مثال للناس عما يمكن أن يفعله الغضب والاستياء. زوجها الذي تزوجها دون رغبة وحصل خلاف بينه وبينها، استخدم أمنيته، التي تجعله غنياً، كي يستعيد الغدة إلى المكان الذي كانت فيه من قبل.برغم ذلك، حدثت حادثة أفضل، وأحضرت مجموعة من الضعفاء والمرضى إلى الكشك. اهتاج الجمهور من جديد حين بدأ الأعرج يرقص والأعمى يحيي الضوء بعينين جديدتين مباركتين.

في غضون ذلك كان الفتيان يركضون في جميع أنحاء المدينة ويعلنون عن المعجزة. أخبروا الجميع، بينهم طباخة عجوز مخلصة كانت تقف أمام الموقد وتشوي إوزة للأسرة في المنزل الذي تعمل فيه. حين سمعت بالأنباء عن الأمنيات من النافذة، لم تستطع أن تقاوم الجري إلى السوق كي تتمنى لنفسها الثراء والسعادة

بقية حياتها. مع ذلك، كلما كانت تشق طريقها عبر الحشد، يخزها ضميرها، وحين جاء دورها، تخلت عن كل شيء وتمنت فقط أن لا تحترق الإوزة قبل أن تعود إلى المنزل.

لم تهدأ الجلبة. اندفعت مربيات الأطفال من المنازل جارات الأطفال من أذرعهم. وقفز المرضى المهتاجون عن أسرتهم، وركضوا في الشوارع في ثياب نومهم. ووصلت امرأةٌ قصيرة، مشوشة ويائسة، من الريف، وحين سمعت بالأمنيات، بكت وتوسلت إن كان بوسعها أن تعثر على حفيدها الضائع سليماً معافى. بعد ثوان، جاء الفتى راكباً على مهر صغير أسود وسقط ضاحكاً بين ذراعيها.

في النهاية، تجمعت المدينة كلها ودبت فيها النشوة. العشاق الذين تحققت أمنياتهم تجولوا متشابكي الأذرع. وبدأت الأسر الفقيرة تسوق العربات، وهي ترتدي ثيابها القديمة المرقعة. كثير من البشر الذين ندموا على أمنياتهم الحمقاء إما غادروا بحزن أو تحلقوا كي يشربوا خمرة النسيان من النبع القديم في السوق والذي تمنى أحد المازحين أن يمتلئ بأفضل أنواع الخمرة.

وفي النهاية بقي شخصان فحسب في مدينة فالديوم لم يعرفا أي شيء عن المعجزات ولم يتمنيا لأنفسهما. إنهما شابان، يعيشان في علية منزل قديم على حافة المدينة، خلف نوافذ مغلقة. وقف أحدهما وسط الغرفة، حاملاً كماناً تحت ذقنه، وعزف معبّراً عن عمقِ روحه وهيامه. وكان الآخر يجلس في الزاوية، يمسك رأسه بيديه، ويصغي بشكل كامل. أرسلت الشمس خيوطاً مائلة عبر ألواح زجاج النوافذ الصغيرة ورمت لونا متألقا أضاء أصيصاً من الأزهار متوضعاً على الطاولة، ولعبت أشعتها على ورق الجدران الممزق. كانت الغرفة مغمورة بالضوء الدافئ

وبألحان الكمان المتوهجة، كغرفة كنز سرية وصغيرة تتلألأ بلمعان الأحجار الكريمة. أغمض عازف الكمان عينيه وبدأ يتأرجح جيئة وذهاباً وهو يعزف. كان المستمع ينظر بهدوء إلى الأرض وضاع في الموسيقى كأنه ميت.

سمعت الخطوات الصاخبة في الشارع خارج المنزل. انفتح باب المنزل، وجاءت الخطوات مندفعة على الدرج نحو باب العلية. كان صاحب المنزل، الذي فتح الباب ودخل، واندفع إلى الغرفة صارخاً وضاحكاً. توقفت موسيقى الكمان على الفور، وقفز المستمع الصامت في الجو،مذهولاً. غضب عازف الكمان لأنه قوطع ونظر موبخاً إلى الوجه الضاحك لمالك المنزل. لكن الرجل لم يعره انتباهاً. وبدلاً من ذلك، لوح بذراعيه كسكير وصرخ:" أيها الغبيان! تجلسان هنا وتعزفان على الكمان، وفي الخارج تغيّر العالم كله. استيقظا واركضا كي لا تتأخرا! هناك رجلٌ في السوق يحقق الأمنيات للجميع. إذا أسرعتما، لن تضطرا للعيش في هذه العلية الصغيرة وتدفعان لي أجراً تافهاً. انهضا واذهبا قبل أن يتأخر الوقت! لقد أصبحتُ رجلاً غنياً هذا الصباح!"

أصغى عازف الكمان مندهشاً، ورغم أن الرجل لن يتركه بسلام، وضع الكمان جانباً واعتمر قبعته. تبعه صديقه دون كلمة. وما إن غادرا المنزل حتى شاهدا نصف المدينة متغيراً بطريقة مثيرة جداً، وسارا عابرين المنازل بصعوبة كأنهما في حلم. فالبارحة كانت هذه المنازل رمادية ومحنية، ومتواضعة. أما الآن، على أي حال، تنتصب طويلة ورائعة كالقصور. والناس الذين عرفوهم كشحاذين كانوا يسوقون عربات تجر كل منها أربعة خيول، أو هم الآن متكبرون وأغنياء، يطلون من نوافذ

منازلهم الجميلة. وظهر رجل هزيل يشبه خياطاً،متعب ومتعرق، يجر كيساً كبيراً وثقيلاً، وكانت القطع الذهبية تقطر عبر ثقب إلى الرصيف.

وعلى نحو آلي تقريباً، وصل الشابان إلى السوق ووجدا أنفسهما أمام كشك المرايا. فقال لهما الغريب الذي يقف هناك:" لستما مستعجلين في طلب أمنية. كنت على وشك الرحيل. حسناً، أخبراني ماذا تريدان، وأنتما حران في طلب أية أمنية تريدان."

هز عازف الكمان رأسه وقال:" آه، لو فقط تركتني في سلام! لا أحتاج إلى أي شيء."

صاح الغريب:" هل أنت متأكد؟ فكر بالأمر! بوسعك أن تتمنى كل ما يخطر في ذهنك. أي شيء."

أغمض عازف الكمان عينيه وتأمل لبرهة. أخيراً تحدث بصوت ناعم وقال:" أتمنى أن أحصل على كمان وأعزف عليها بطريقة رائعة حيث لا يقدر أي شيء في العالم أن يزعجني بصخبه."

في غضون ثوان كان يحمل كماناً جديدة وقوساً. وضع الكمان تحت ذقنه وبدأ العزف. كانت الموسيقى عذبة وعاطفية إلى حد الإفراط كأغنية الفردوس. كل من سمعها توقف ثابتاً وأصغي بعينين كئيبتين. وفيما كان العازف يعزف بمزيد من التوتر والروعة، رفعته قوى خفية واختفى في الهواء الرقيق. تابعت موسيقاه دويها من بعيد بتألق ناعم كتوهج الشمس الأحمر.

" وأنت؟ ما هي أمنيتك؟" سأل الغريب الشاب الآخر.

شكا الشاب:" لقد أخذت عازف الكمان مني! والآن الشيء الوحيد الذي أريده هو أن أكون قادراً على الإصغاء والرصد، ولا أريد أن أفكر إلا بالأمور الخالدة. ولهذا أتمنى لو كنت جبلاً بحجم فالديوم، طويلاً تصل قمته إلى الغيوم."

وعلى الفور سمع دويّ تحت الأرض، وبدأ كل شيء يتأرجح. قعقع الزجاج وانكسر. سقطت المرايا واحدة إثر أخرى وتشظت على الرصيف. نهض السوق كما يرتفع غطاء تنام تحته قطة حين تستيقظ وتقوس ظهرها إلى الأعلى. هيمن الذعر على البشر. صرخ الآلاف وبدأوا الهرب من المدينة إلى الحقول. أما الذين بقوا في السوق فقد راقبوا جبلاً جباراً يتسلق خلف المدينة إلى غيوم المساء. وتحته شاهدوا الجدول الهادئ يتحول إلى تيار جبلي أبيض ووعر اندفع من قمة الجبل بشلالات عديدة مسرعاً إلى الوادي في الأسفل.

مرت لحظة فحسب، ومع ذلك تحول ريف فالديوم كله إلى جبل عملاق. في سفحه كانت المدينة، وبعيداً في المسافة، يمكن مشاهدة المحيط. ولم يتضرّر أحد في أثناء هذا التحول.

قال عجوزٌ كان يقف بجانب كشك المرايا وشهد كل ما قيل لجاره:" لقد جنّ العالم. أنا سعيد أنه لم يبق لي وقت طويل كي أعيش. أنا آسف لما حدث لعازف الكمان. أود أن أسمعه مرة واحدة فقط.

قال الآخر:" نعم، بالفعل، لكن أخبرني إلى أين ذهب الغريب؟"

نظرا حولهما لكنه كان قد تلاشى. حين حدقا إلى الأعلى نحو الجبل شاهدا الغريب في الأعلى، يسير مبتعداً وقبعته ترفرف في الريح. توقف للحظة، شكلاً عملاقاً إزاء سماء المساء، ثم اختفى حول زاوية جرف.

٢- الجبل

يمر كل شيء مع مرور الزمن، وكل ما هو جديد يشيخ. أصبح المعرض السنوي شيئاً يمت إلى التاريخ منذ زمن طويل، وكثير من البشر الذين تمنوا أن يصبحوا أغنياء في تلك المناسبة أصبحوا فقراء من جديد. وتزوجت الفتاة ذات الشعر الأحمر الذهبي الطويل وأنجبت أطفالاً، يذهبون أيضاً إلى معرض المدينة في أواخر صيف كل عام. وأما الفتاة ذات القدمين الراقصتين الرشيقتين فقد تزوجت من صانع ماهر في المدينة، ولا تزال تقدر على الرقص بروعة، أفضل بكثير من الشبان. ورغم أن زوجها تمنى الكثير من المال، بدا وكأنهما سيصرفانه كله قبل نهاية حياتهما. على أي حال، كانت الفتاة الثالثة ذات اليدين الجميلتين لا تزال تفكر بالغريب الذي كان في كشك المرايا أكثر من أي شخص آخر. ورغم أن هذه الفتاة لم تتزوج مطلقاً ولم تصبح غنية، فإنها لا تزال تملك يديها الجميلتين، وبسبب يديها توقفت عن القيام بأعمال المزرعة وبدلاً من ذلك كانت تعتني بالأطفال في قريتها حيث تكون هناك حاجة إليها، وتروي حكايات خرافية وقصصاً. وعرف جميع الأطفال منها عن معرض المعجزات، وكيف أصبح الفقراء أغنياء، وتحول ريف فالديوم إلى جبل. وكلما روت هذه القصة، تنظر إلى يديها النحيلتين، تبتسم، وتتأثر وتمتلئ بالحب فيميل المرء إلى الاعتقاد أن لا أحد حصل في كشك المرايا على ثروة أفضل من ثروتها، رغم أنها كانت فقيرة ودون زوج وعليها أن تروي قصصاً جميلة للأطفال الذين ليسوا منها.

كل من كان شاباً في ذلك الوقت هو عجوز الآن، والذين كانوا شيوخاً ماتوا. وانتصب الجبل دون تغيير أو عمر، وحين يلمع الثلج الذي على قمته يبدو كأنه يبتسم وسعيد من أنه لم يعد إنساناً أو يحسب وفق مقاييس الزمن الإنساني. وتوهجت جروف الجبل عالياً فوق المدينة والريف. وكان ظله الهائل يتجول كل يوم فوق الأرض. وكانت جداوله وأنهاره تعلن مسبقاً تبدّل الفصول. ولقد أصبح الجبل حامي وأب الجميع. أنجب الغابات والمروج بأعشابها وأزهارها المتموجة. نما عشبٌ ملوّنٌ على الأحجار، ونبات أذن الفأر على أطراف الجداول. وعميقاً في أسفل الجبل كانت هناك كهوف يقطر فيها الماء كخيوط الفضة سنة بعد أخرى من حجر إلى حجر، في إيقاع أبدي، وفي شقوقه كانت هناك غرفٌ سريةٌ ينمو فيها الكريستال بصبر ألف عام. لم يتمكن أحدٌ من الوصول إلى قمة الجبل. لكن كثيراً من الناس زعموا أن هناك بحيرة صغيرة مستديرة على القمة، ولا شيء سوى الشمس، والقمر، والغيوم، والنجوم ينعكس فيها. لم ينظر الإنسان ولا الحيوان في تلك البحيرة التي يرفعها الجبل نحو السماء، ذلك أنه حتى الجوارح لا تقدر أن تطير إلى ذلك الارتفاع.

عاش سكان فالديوم فرحين في المدينة وفي الأودية المتعددة. عمدوا أطفالهم ونشطوا في الزراعة والصنائع.حملوا بعضهم بعضاً إلى الدفن. وكانت معرفتهم وأحلامهم عن الجبل تنتقل من الأجداد إلى الأحفاد وتستمر.ولقد زيّن الرعاة وصيادو الشامواه، وعلماء الطبيعة والنبات، ورعاة البقر والمسافرون الكنز الأسطوري للجبل، ونقل قصصه المنشدون والرواة. كانوا يعرفون كل شيء عن الكهوف المظلمة التي ليس لها نهاية، والشلالات المظلمة في الشقوق الخفية، وعن جبال

الجليد التي تشق الأرض نصفين، وممرات الحادورات، وتبدلات الطقس العصية على الرصد، وما يمكن أن تتوقعه البلاد بخصوص الحرارة، والبرد، والماء، والنمو، والطقس والريح - كل هذا جاء من الجبل.

ولم يكن أحد يعرف المزيد عن الأزمنة الأولى. وبالطبع، كانت هناك الأسطورة الجميلة عن معرض المعجزات السنوي، والذي سُمح فيه لجميع سكان فالديوم بأن يتمنوا ما يرغبون به. لكن لم يرد أحد أن يصدق بعد الآن أن الجبل نفسه ارتفع في ذلك اليوم. كانوا متأكدين أن الجبل انتصب في مكانه منذ بداية الزمن وسيتابع وقوفه هناك إلى الأبد. كان الجبل موطناً. كان فالديوم. وكان الناس يفضلون أن يسمعوا القصص عن الفتيات الثلاث وعن عازف الكمان. أحياناً سيعزل الفتى نفسه وهو يعزف على الكمان خلف باب مغلق ويحلم بالاختفاء في الموسيقى الجميلة كعازف الكمان الذي ارتفع إلى السماء.

تابع الجبل حياته في صمت مكللاً بالعظمة. وكل يوم كان يراقب الشمس البعيدة والحمراء، تصعد من المحيط وتدور حول قمته من الشرق إلى الغرب، وكل ليلة كان يراقب النجوم وهي تسلك الممر الصامت نفسه. وفي كل شتاء كان الجبل يكتسي بمعطف من الثلج والجليد، وتدوي الحادورات كل عام في وقت محدد على جوانبه، وعلى حافة بقايا الثلوج، كانت الأزهار الصيفية ذات الحمرة المتوهجة، الزرقاء والصفراء، تضحك تحت الشمس، وكانت الجداول ترتفع وتندفع، وتتلألأ البحيرات بمزيد من الزرقة والدفء في ضوء الشمس. وكانت المياه الضائعة ترعد بصوت خافت في الشقوق، والبحيرة الصغيرة المستديرة التي على القمة غُطِّيتْ بجليد ثقيل وانتظرت عاماً كاملاً كي تفتح عينيها المتألقتين في أثناء

فترة الصيف القصيرة حيث تستطيع أن تعكس الشمس لبضعة أيام والنجـوم لبضـع ليال.أما المياه التي في الشقوق المظلمة فقد جعلت الأحجار تصـدر صـوت تقطـير أبدياً، وفي الممرات السرية كان الكريستال الذي بعمر ألف عام ينمـو بثبـات نحـو اكتماله.

وفي سفح الجبل، أعلى من المدينة بقليل، كان هناك واد فيه جدول عريض له سطح ناعم يتدفق بين الأشجار الحرجية والمروج. وكان العشاق الشبان يذهبون إلى هناك ويقرؤون أعاجيب الفصول في الجبل والأشـجار. وفي واد آخـر قـام الرجـال بتمارين التدريب على الأحصنة والأسلحة، وكل عام أثناء عشية الانقـلاب (الصيفـي أو الشتوي)، تشتعل نارٌ كبيرة على إحدى الهضاب الكبيرة المنحدرة.

مر الزمن، وحمى الجبـل وادي الحـب وأرض التدريـب. قـدم مكانـاً للرعـاة، والحطابين، والصيادين، والصنّاع. كان يقدم أحجاراً للبناء وحديداً للصهر. ويراقـب بهدوء تاركاً نار الصيف تلتهب على الهضبة، ويراقب النار تعود مائة مرة ومائة مرة أخرى. شاهد المدينة التي في الأسـفل تمتـد بـأذرع صغـيرة وبدينـة وتنمـو خـارج أسوارها القديمة. وشاهد صيادين يطرحون القوس والنشاب ويستخدمون الأسـلحة النارية. مرّت القرون كفصول العام ومرت الأعوام كالساعات.

ولم يكترث الجبل بتوقف النار عن الاشتعال على النجد الصخري ومنذ ذلـك الوقت فصاعداً بقيت منسية. ولم يتضايق عندما هُجرت أرض التدريـب بعـد مـرور كثير من الأعوام، وغطاها نبات لسان الحمل والأشواك. وفيما كانت القرون تعبر لم يمنع انهيالاً واحداً من أن يغير شكله ويسبب في تدمير نصف مدينة فالديوم تحـت

الصخور التي تدحرجت عليها. وبالفعل، نادراً ما نظر إلى الأسفل وهكذا لم يلاحظ أن المدينة بقيت في الأنقاض ولم تبن من جديد.

لم يكترث بأي من هذه الأمور. لكن شيئاً آخر بدأ يهمه. مرت الأزمنة، وشاخ الجبل. وحين شاهد الشمس تشرق وتتجول وتغادر، لم يكن كما كان من قبل، وحين شاهد النجوم منعكسة على المجالد الشاحبة، لم يعد يشعر أنه ند لها. ولم تعد الشمس والنجوم تمتلك أهمية خاصة بالنسبة إليه. ما هو مهم الآن كان ما يحدث له وفي داخله، ذلك أنه شعر بيد غريبة تعمل عميقاً تحت صخوره وكهوفه. وشعر أن الحجر البدائي الصلب يصبح هشاً ويتفتت إلى طبقات من الأردواز، وكانت الجداول ومساقط المياه تسبب الحتّ في الداخل. اختفت أنهار الجليد ونمت البحيرات. تحولت الغابات إلى حقول من الأحجار، والمروج إلى مستنقعات سوداء.أما البقع الجوفاء لركامه وحصاه فقد انتشرت بلا نهاية في البلد بألسنة متشعبة، وأصبح المشهد في الأسفل مختلفاً بشكل غريب، صخرياً، ومسفوعاً وهادئاً. وبدأ الجبل يتقوقع على نفسه شيئاً فشيئاً. وشعر بأنه لم يعد نداً للشمس والنجوم. كان أنداده الريح والثلج، الماء والجليد، والأشياء التي بدت كأنها تشع بشكل أبدي ومع ذلك تختفي وتهلك ببطء.

وبدأ يقود جداوله إلى أسفل الوادي بقوة أكبر، دحرج الحادورات بحرص أكبر، وعرض مروج أزهاره للشمس برقة أكبر. وحدث أن بدأ يتذكر في سن شيخوخته البشر مرة أخرى. ولا يعني هذا أنه ينظر إلى البشر الآن كأنداد له، لكنه بدأ يبحث عنهم. بدأ يشعر بأنه مهجور. بدأ يفكر بالماضي. لكن المدينة لم تعد هناك، ولم تكن هناك أغنية في وادي الحب، أو أكواخ في المروج. لم يعد هناك

المزيد من البشر. لقد ذهبوا. لجأ إلى الصمت. صار كل شيء خامداً. وتدلى ظلٌ في الهواء.

وارتعش الجبل حين شعر بكل ما هلك. وفيما هو يرتعش، سقطت قمته جانباً وانهارت. تدحرجت قطع الصخور إلى وادي الحب، الذي كان مليئاً بالصخور مسبقاً، ثم إلى البحر.

نعم، تغيّرتْ الأزمنة. ولكن ما الذي جعله يتذكر البشر ويفكر بهم الآن باستمرار؟ ألم يكن رائعاً حين أشعلوا النار على الهضبة وحين كان العشاق يسيرون في وادي الحب؟ آه، كم كانت أغانيهم عذبة وجميلة!

انغمس الجبل الرمادي في ذاكرته كلياً. لم يشعر بمرور القرون. ولم يعر انتباهاً كثيراً إلى التفتت والانهيار الهادئ لكهوفه في أمكنة متفرقة، أو إلى التبدل الذي طرأ عليه. وحين فكر بالبشر، شعر بألم صدى باهت من عصور سابقة للعالم. بدا وكأن شيئاً ما قد تحرك، وأن الحب لم يُفهم، وأنه حلم حلماً مظلماً، كأنه كان إنساناً في إحدى المرات أو شبيهاً بالإنسان، وقد غنى وأصغى للغناء، كأن فكرة الفناء أوقدت قلبه مرة حين كان شاباً.

اندفعت الحقب. وتمسك الجبل المحتضر بأحلامه وهو يغوص وأحاطته أرض خراب وعرة من الأحجار. كيف كان كل شيء في إحدى المرات؟ ألم يكن هناك صوت، خيط فضي رائع يصله بعالم مضى؟ وبجهد كبير نقّبَ في ليل ذكريات عفنة، باحثاً بقلق عن الخيوط المقطوعة، منحنياً باستمرار فوق هاوية الماضي.ألم تكن له جماعة، وحب توهج في إحدى المرات؟ ألم تغن له أم مرةً في بداية العالم؟

فكر وتابع التفكير، وعيناه، البحيرتان الزرقاوان، أصبحتا ضبابيتين وثقيلتين وتحولتا إلى جذور ومستنقعات، فيما تموجت جلاميد الصخور فوق قطع الأرض العشبية وبقع الأزهار الصغيرة. تابع التفكير، وسمع دقات من مسافة غير مرئية، شعر بنوتات الموسيقى تعوم، بأغنية، وصوت إنساني، وبدأ يرتجف من متعة التعرف المؤلمة. سمع الموسيقى، وشاهد رجلاً، شاباً، مغلفاً بالموسيقى، يتأرجح في الجو في السماء المشمسة، فارتعشت مئات الذكريات المدفونة وبدأت ترتجف وتتدحرج. شاهد وجه إنسان بعينين سوداوين، وسألته العينان بطرفة.

" ألا تريد أن تتمنى؟"

وتمنى أمنية، أمنية صامتة، وحين فعل ذلك، تحرر من عذاب التفكير بجميع تلك الأمور البعيدة والمنسية، وتوقف كل ما كان يؤلمه. انهار الجبل والريف سوية، وحيث كانت فالديوم تنتصب في ما مضى من الزمان، يزأر ويندفع بحر لا نهائي كبير وعريض، ولقد تعاقب ظهور الشمس والنجوم عالياً فوق كل هذا.

حلم متعاقب

بدا وكأنني أبدد كمية كبيرة من الزمن الممل، والذي لا فائدة منـه، في صـالون غامض تطلُّ نافذته الشمالية على منظر لبحيرة مزيفة بأزقة بحرية صناعيـة. لاشـيء هناك شد انتباهي أو جذبـني سـوى حضـور السـيدة الجميلـة المثيرة للشبهة، الـتي اعتبرتها مذنبـة. وحـاولت دون جـدوى أن أرى وجهـها علـى حقيقتـه، مـرة واحـدة فحسب، ذلك الوجه الذي كان يتأرجح غامضاً بين شعر أسود مرخي ولا يظهر منه غير الشحوب. خلافاً لذلك، لم يكن هناك أي شـيء. عيناهـا بنيتـان وداكنتـان علـى الأرجح. وشعرت بأسباب داخلية كي أتوقع شيئاً من هــذا القبيـل. لكـن العينـين لم تماثلا الوجه الذي أرادت نظرتي أن تقرأه من الامتقاع الشديد غير القابل للتحديد، الوجه الذي كان شكله يرقد عميقاً في طبقـات مـن ذاكرتـي مـن المتعـذر الوصـول إليها.

وفي النهاية حدث أمرٌ ما. دخـل الشـابان. سـلّما علـى السيدة بتهذيب رفيـع وقدّما إلي. اعتقدت أنهما قردان،وغضبتُ من نفسي لأن أحدهما كان يرتـدي سـترة بنية تميل إلى الاحمرار مخيطة بطريقة ظريفة وعلى الـزي الحديـث ممـا أشـعرني بالعار والغيرة. من المريع أن يحسد المرء بشراً لا عيـب فيـهم، أحـراراً ومريحـين، ومبتسمين! وقلت بهدوء:" سيطر على نفسك يا رجل!"هـز الرجـلان يـدي الممـدودة بلا مبالاة - ما السبب الذي جعلني أقدمها؟ - وتعبير ازدراء على وجهيهما.

أحسستُ أن هناك خطأ ما يتعلق بي، وشعرت بقشعريرة اهتياج ارتفعت في ساقيَّ. حين نظرتُ إلى الأسفل، شحبتُ حين رأيتُ أنني أقف بجواربي وبدون حذاء. مرة أخرى تلك العقبات والقيود الكئيبة، الباعثة على الأسى والحقارة! وليس هناك أحد آخر يمتلك تجارب كالظهور عارياً أو نصف عار في صالون أمام بشر سلوكهم حسنٌ ولا عيب فيهم! وبشكل مثير للشفقة، حاولت أن أغطي، على الأقل، قدمي اليسرى باليمنى. وفي أثناء ذلك نظرتُ عبر النافذة فرأيتُ ضفاف البحيرة، المنحدرة، البرية، والزرقاء، تهدد بأنغام مزيّفة وكئيبة وتحاول أن تصبح شيطانية. نظرتُ بكراهية شديدة إلى الغريبين، حزيناً ومحتاجاً إلى المساعدة،و بكراهية أشد نظرتُ إلى نفسي. لم أكن شيئاً، ولم يصبح أي شيء صحيحاً على الإطلاق بالنسبة إلي. ولماذا أشعر بأنني مسؤول عن تلك البحيرة الصماء؟ وبالفعل، إذا شعرتُ بتلك الطريقة، فأنا إذن مسؤول، أيضاً. نظرتُ بتوسّل إلى الرجل الذي يرتدي السترة البنية التي تميل إلى الاحمرار. توهج خداه وكشفا كم هو في صحة جيّدة، وعرفتُ أنني أضع نفسي تحت رحمته بلا فائدة وأنه لا يمكن أن يتأثر.

وفي تلك اللحظة تماماً شاهد قدمي في الجوربين الخشنين الأخضرين الداكنين – آه، على الأقل لا أزال أستطيع أن أشعر بالامتنان أنه ليس هناك ثقوب فيهما – وابتسم ابتسامة كريهة. لكز صديقه وأشار إلى قدمي. عندها ابتسم الآخر، بسخرية واضحة.

" انظرا إلى البحيرة فحسب!" صحتُ، وأشرت إلى النافذة.

هزَّ الرجل الذي يرتدي سترة بنية تميل إلى الاحمرار كتفيه استهجاناً. لم يخطر له البتّة أن يستدير إلى النافذة، وإنما قال شيئاً ما للرجل الآخر لم أفهمه

بشكل كامل، لكنه كان يدور حولي وله علاقة بأشخاص يرتـدون الجرابات يجب على المرء ألا يسمح لهم بدخول صالون كهذا. حين سمعتُ كلمة صـالون، فاحت منها نكهة جمال ودنيوية مزيفة، كما كانت أثناء طفولتي.

على وشك البكاء، انحنيتُ لأرى إن كان هنـاك أي شـيء أستطيع فعله لكـي أحسّن وضع قدميَّ، فوجدتُ أنهما انزلقتا خارج حذاء منزلي ضخـم. علـى الأقل، كان هناك خفٌّ كبير جداً، وناعم، وأحمر داكن يتوضع خلفي على الأرض. التقطته، دون أن أعرف ماذا أفعل به، وحملته في يدي وكنت لا أزال على وشك البكـاء. ثـم انزلق من يدي، لكنني أمسكت به وهو يسـقط - ولقـد أصبح أكثر ضخامة أثنـاء ذلك- ثم رفعته بإصبع قدمي.

وفيما كـان هـذا يحـدث، شعرت علـى نحـو مفـاجئ أنـني ارتحـتُ عاطفياً وأدركتُ القيمة العميقة للخف الذي يرفرف في يدي، ويزيـد وزنه الكعب الثقيـل. كان الحصول على هذا الحذاء الأحمر المنهك، الناعم جداً والثقيل أمراً هائلاً! ولقد قذفته عدة مرات في الجو كي أجربه. كان هذا ممتعاً، وطارت المتعـة عبر جسـدي كله إلى جذور شعري. ذلك أن الهـراوة أو الأنبـوب المطـاطي لا يمكـن أن يقارنـا بحذائي الكبير. سميّته calziglione بالإيطالية.

وحين وجهت الضربة الأولى بالخف إلى رأس الرجل ذي السترة البنية المائلة إلى الاحمرار، سقط الشاب الذي لا عيب فيه على الأريكـة، فتحـررت، حينئـذ، مـن قوة الناس، والغرفة، والبحيرة المريعة التي فُرضت عليّ. كنـت كبـيراً وقويـاً وحـراً، وبضربة ثانية وجهتها إلى رأس الرجل ذي السـترة الرماديـة المائلـة إلى الاحمـرار، انتهت المعركة كلها،واستطعتُ التحرر من هاجس الدفـاع عـن النفس. ابتـهج قلـبي

وشعرتُ بأنني سيد نزواتي. لكنني لم أكره عدوي المهزوم البتة. كان مهماً بالنسبة إلي. كان ثميناً وعزيزاً. أنا الآن سيده وخالقه. ومع كل ضربة من هراواتي الغريبة التي تشبه الحذاء، كنتُ أشكّل رأسه غير الناضج، الذي كرأس القرد، وأصوغه،وأبنيه، وأركّبه. ومع كل ضربة أسهمت في تشكيله، أصبح رأسه أكثر أناقة، وروعة. أصبح مخلوقي وعملي، شيئاً ما أرضاني وأحببته. بضربة صياغة رقيقة وأخيرة، أنزلتُ رأسه الحاد إلى الأسفل وصار مسطحاً بما يكفي في قمته. انتهى. شكرني. داعب يدي.

" هذا جيد." لوّحتُ بيدي.

صالب يديه فوق قلبه وقال بخجل:" اسمي بول."

وبروعة اندفعت مشاعر قوية وسعيدة داخل صدري ومنحتني مكاناً. انسحبت من الغرفة - انسوا تسميتها صالوناً - بخجل وزحفت بعيداً إلى أن تلاشت. وقفت إلى جانب البحيرة الزرقاء الداكنة. كانت غيوم فولاذية تضغط على الجبال المعتمة. وفي الأزقة البحرية غلت المياه العكرة بالزبد. وتناثرت عواصف الربيع المهتاجة بإكراه وقلق في دوائر. نظرتُ إلى الأعلى ومددتُ يدي لأشير أن بوسع العاصفة أن تبدأ. وانفجرت صاعقة واضحة وباردة من السماء الزرقاء القاسية. وزأر إعصار استوائي دافئ واندفع مباشرة إلى الأرض. وفي السماء، تفككت أشكال رمادية وتفرّعتْ في عروق من الرخام. ونهضت أمواج ضخمة مستديرة برعب من البحيرة المهتاجة. ونزعت العاصفة سطح الزبد وبقايا المياه المتحركة عن ظهور الأمواج ورمتها في وجهي. وفتحت الجبال السوداء المتحجرة أعينها مليئة بالرعب. وبدا انكماشها وصمتها كأنه توسل.

وفي وسط العاصفة المجيدة، التي تصطـاد على خيـول عملاقـة، استطعت أن أسمع صوتاً جباناً في الجـوار. آه، لم أنسـها، سيدتي الشـاحبة ذات الشـعر الأسـود الطويل. انحنيت فوقها. تحدثت معي بصبيانية -" البحيرة قادمة." كان من المستحيل البقاء هنا. تابعتُ النظر إلى المذنبة اللطيفة. عندئذ كـانت أمـواج متلاطمـة تضـرب مسبقاً ركبتيَّ وصدري، وعامت المذنبة ببؤس على الأمواج الطويلة. ضحكـتُ قليـلاً ثم وضعتُ ذراعي تحت ركبتيها ورفعتها صوبي. كان هذا، أيضـاً، جميـلاً ومحـرراً. كـانت المـرأة خفيفـة وصغـيرة، ومليئـة بـدفء طـازج، وكـانت عيناهـا حنونتـين، وواثقتين، ومرعوبتـين، ورأيـت أنـها لم تكـن مذنبـة مطلقـاً، وليسـت امـرأة بعيـدة وغامضة. لا خطايا، ولا لغز. كانت طفلة ببساطة.

حملتها خارج الأمواج وفوق الصخور وعـبر حديقـة ملكيـة موحشـة أعتمـها المطـر وجعلـها مكانـاً لا تستطيع العاصفـة أن تصـل إليـه. وصـدرت عـن تيجـان الأشجار المحنية أصوات جميلة وقصائد وسيمفونيات، عالم مـن المشـاعر السـبقية النبيلة والمتع المبهجة المعتنى بها، أشـجار جميلـة رسمـها كـورو Corot وموسـيقا آلات نفخ ريفية ونبيلـة لشـوبيرت أغرتـني وخَلَقـتْ في داخلـي حنينـاً إلى المعبـد الحبيب. على أي حال، كان ذلك عبثاً.يمتلك العالم كثـيراً مـن الأصـوات، وللـروح ساعاتها ولحظاتها من أجـل كـل شـيء. ولا يعـرف إلا الله كيـف اختفـت المذنبـة، السيدة الشاحبة، الطفلة. كان هناك درج حجري خارجي وبوابة مـنزل، وخـدمٌ، فيمـا كل شيء معتمٌ وضبابيٌّ، وكأنه خلف زجاج أكمد، وكانت هناك أشياء أخـرى، أقـل أهمية بكثير، أكثر إعتاماً، أشكال تبعثرها الريح. ووجّهتْ عاصفة الظلال ملاحظـة توبيخ وتأنيب قاسية ضدي فغضبتُ. ولم يبق منها سوى شكل بول، صديقي والابن

بول، وفي ملامحه وجه معروف جيداً كشف نفسه وخبأها، ومع ذلك لم يُسمَّ بعد، إنه وجه زميل مدرسة، وجه مربية أطفال أسطورية من الأزمنة القديمة، مغذى من الذكريات الجيدة المغذّية للسنوات الأولى الخرافية.

وتجلّتْ ظلمة متقدة جيدة، وظهر مهد الروح الدافئ، والوطن الضائع. انفتح كل هذا في زمن الوجود غير المشكل، وفي التموج الأول الغامض على قمة أرض الأشياء، التي ينام تحتها زمن الأسلاف البدائي مع أحلام الغابة البدائية. تحسسي طريقك وحسب ، أيتها الروح، تجولي، ونقبي، عمياء، في الاغتسال الكامل لطرق البرق البريئة! أعرفك، أيتها الروح المقدسة، لا شيء ضرورياً لك. ولا شيء يغذيك كثيراً، أو يسقيك، أو يجعلك تنامين مثل العودة إلى بدايتك. تزأر الموجة حولك، وأنت موجة، الغابة تصدر حفيفاً، وأنت غابة. ثمة المزيد من الخارج والداخل. تطيرين، كطائر في الجو، تسبحين، سمكة في البحر، تمتصين الضوء، تتذوقين الظلمة وأنت ظلمة. نتجوّل، أيتها الروح، نسبح ونطير، ونبتسم ونمزق الخيوط مرة ثانية بأصابع شبحية، وبسعادة نغرق القوادم المدمرة. لم نعد نبحث عن الله. نحن الله. نحن العالم. نقتل ونموت مع الآخرين. نموت ونُبعث مع أحلامنا.حلمنا الأكثر جمالاً هو السماء الزرقاء، حلمنا الأكثر جمالاً هو البحر، حلمنا الأكثر جمالاً هو الليل المتألق بالنجوم، والأسماك، والضجة السعيدة الواضحة والضوء السعيد المشرق - كل شيء هو حلمنا.كل واحد هو حلمنا الأكثر جمالاً. لقد متنا لتونا وصرنا تراباً. لقد ابتكرنا الضحك لتونا. لقد رتبنا لتونا كوكبةً.

الأصوات تدوّي، وكل منها هو صوت أمنا. الأشجار تصدر حفيفاً، وكل منها تصدره فوق مهدنا. تتشعب الطرق على شكل نجمة، وكل طريق هو الدرب إلى الوطن.

هذا الذي سمى نفسه بول، مخلوقي وصديقي، ظهر ثانية وأصبح عجوزاً مثلي. كان يشبه صديقاً من أيام شبابي. لكنني لا أعرف أيهم، وبالتالي، كنت غير مرتاح له فحافظتُ على مسافة احترام. كان يستمد قوة من هذا.لم يعد العالم يطيعني، كان يطيعه. بالتالي، اختفت جميع الأشياء السابقة وانهارت، وقد لحق بها العار منه هو الذي يحكم الآن.

نحن في حي. كان المكان يدعى باريس، وأمامي كان هناك عمود حديدي ينتصب عالياً في الجو. كان سلماً وله درجات حديدية ضيقة على كلا الجانبين. تستطيع أن تمسكهما بيديك وتتسلق. وبما أن بول أراد التسلق، بدأتُ ذلك، وكان إلى جانبي على سلم مشابه. وحين تسلقنا إلى ارتفاع منزل أو شجرة عالية جداً، بدأت أشعر بالخوف. نظرتُ إلى بول، الذي لم يشعر بالخوف، ولكنه أدرك أنني خائف وابتسم.

في جزء من الثانية، فيما كان يبتسم وأنا أنظر، اقتربت من معرفته واستذكار اسمه. انفتحت ثغرة من الماضي وتابعت تفتحها إلى أن عادت إلى سنوات دراستي الأولى حين كنت في الثانية عشرة من عمري، أروع وقت في الحياة، يفوح منه الأريج، وكل شيء مُبْدع،و يفوح منه عطر خبز طازج وينبعث منه وميض مغامرة مسكر وبطولة مموهة - كان يسوع في الثانية عشرة من عمره حين أدان التلاميذ في المعبد. في الثانية عشرة، كلنا ألحقنا العار بتلاميذنا ومدرسينا، وأظهرنا أننا أكثر

ذكاء منهم. وعصفت بي الذكريات والصور: دفاتر مدرسة منسية، حجز أثناء الظهيرة، طائر قتل بمقلاع، جيب سترة مليء بخوخ مصمغ مسروق،صبية يطرطشون بوحشية في حفرة سباحة، بنطلون ممزق وضمير سيئ جداً، صلاة مساء حماسية عن الاهتمامات الدنيوية، مشاعر بطولية رائعة من البهاء أثناء قراءة شعر شيللر.

واستغرق الأمر ثانية فقط، لمع برق، تبعه تعاقبُ صورٍ شره ومندفع دون محرق. وفي اللحظة التالية، نظر وجه بول إليَّ مرة أخرى، بعذاب ونوعاً ما بألفة. لم أعد متأكداً من عمري. ربما كنا طفلين. وفي الأسفل البعيد تحت الدرجات الحديدية لسلمينا هناك كتل شوارع تدعى باريس. وحين وصلنا إلى أعلى من أي برج، وصلت دراجاتنا الحديدية إلى نهاية، وتوّج كل سلم بلوح أفقي، ومنصة صغيرة. وبدا من المستحيل التسلق عليها، لكن بول فعل ذلك بسهولة، وكان علي أن أفعل ذلك، أيضاً.

وحالما وصلت إلى القمة استلقيت مسطحاً على اللوح ونظرتُ إلى الأسفل من فوق الحافة كأنني على غيمة صغيرة مرتفعة. سقطت نظرتي كحجر ولم تصب هدفاً. ثم أشار صديقي إلى مكان ما بيده، والتصقت عيناي بمشهد بديع حوّم في الجو. وعلى نحو مفاجئ شاهدت مجموعة من البشر غريبة المنظر في الجو متدلية فوق شارع عريض على المستوى نفسه للسقوف المرتفعة لكنهم بعيدون جداً تحتنا. وبدا كأنهم راقصو سيرك، وبالفعل، سار أحد الأشخاص جيئة وذهاباً على حبل أو عمود. ثم اكتشفت أن هناك كثيرين، ومعظمهم من الفتيات الشابات. بدوا لي كأنهم غجر أو بدو. كانوا يسيرون،ويستلقون، ويجلسون، ويتحركون على

ارتفاع السقوف فوق منصة جوية مصنوعة من أرق الألواح والسواري. كانوا يعيشون هناك وكانوا في الوطن في تلك المنطقة. وتحتهم كان بوسع المرء أن يحس بوجود الشارع. سحابة دائرةٌ ورائعة امتدت من الأرض إلى أن لامست أقدامهم تقريباً.

قام بول بملاحظة حول ذلك.

أجبت:" نعم، هذا مؤثر - جميع تلك الفتيات."

بالطبع، كنت أكثر ارتفاعاً منهم، وتمسكتُ بخوف بموقعي بينما كانوا يعومون بخفة وبدون خوف، ورأيت أنني مرتفع جداً. كنت في المكان الخطأ. وكانوا في الارتفاع الصحيح، ليس على الأرض ومع ذلك ليسوا مرتفعين بشكل جهنمي وبعيد مثلي، ليسوا بين الناس ومع ذلك غير معزولين بشكل كامل. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك الكثير منهم. ورأيت بوضوح أنهم يمثلون سعادة لم أحظ بها بعد.

ولكنني عرفتُ أنه علي أن أنزل عاجلاً أم آجلاً على سلمي العملاق، وكان التفكير بذلك ضاغطاً بحيث أنني شعرت بالغثيان ولم أستطع تحمل كوني في الأعلى ثانية أخرى. مليئاً باليأس ومرتجفاً من الدوار، تلمستُ تحتي بحثاً عن الدرجات بقدمي - لأنني لم أستطع رؤيتها عن اللوح - وتعلقت لبضع دقائق مرعبة في ذلك الارتفاع المريع معانياً من التشنجات. لم يساعدني أحد. لقد ذهب بول.

وفي فزع عميق قمت ببعض الطعنات الخطرة بقدمي ويدي، وشعرت بنفسي مغلفاً بشيء كالضباب. وشعرت أنه ليس السلم المرتفع أو الدوار هو الذي عليَّ أن أتحمله وأجربه. في الحقيقة، فقدتُ المنظور ولم أستطع أن أحدّد حجم الأشياء.

كان كل شيء ضبابياً وغير محدد. وفي إحدى المرات، كنتُ لا أزال متدلياً على الدرجات شاعراً بالدوار، ثم كان الشيء التالي الذي عرفته، كنت أزحف، صغيراً ومخيفاً، عبر مداخل وممرات تحت الأرض. ثم كنتُ أخوض بيأس عبر المستنقع والأوساخ وشعرت بالوحل القذر يصعد إلى فمي. كانت الظلمة والعوائق في كل مكان. مهمات مريعة جدية ولكن غامضة. الخوف والتعرق، الشلل والبرد. موت قاس، صعوبة ولادة.

كم يحيطنا الليل! كم نسلك من الممرات المقيتة والكريهة! انحدر عميقاً في نفق روحنا المطروحة أرضاً، أيها البطل الأبدي المسكين، يا أوديسيوس الأبدي! لكننا نتابع، نمضي.ننحني ونخوّض. نسبح ونخوّض. نسبح ونختنق في الوحل. نزحف على الجدران الناعمة الخائنة. نبكي ونيأس. نئن بخوف ونبكي بصخب من الألم. لكننا نمضي ونشقّ طريقنا عابرين.

ومرة أخرى صعدت الصور من أبخرة الجحيم المعتكرة وأضاء ضوء الذكريات الحيي مدى صغيراً من الممر المظلم وشكّله، وشقت روحي طريقها خارج العالم البدائي إلى حقل الزمن المألوف.

أين كان هذا؟ واجهتني الأشياء المألوفة. تعرّفت على الهواء الذي تنفسّته. غرفة ضخمة في نصف ظلمة، مصباح زيتي على الطاولة، طاولة ضخمة مستديرة كالبيانو نوعاً ما. كانت أختي وصهري هناك. ربما كانا يزورانني، أو ربما كنتُ في منزلهما. كانا هادئين ومتضايقين وقلقين عليّ. ووقفتُ في الغرفة الكبيرة الكئيبة، سرتُ جيئة وذهاباً، وقفتُ ثابتاً، وسرتُ ثانية في سحابة من الحزن، في طوفان من الحزن المر،والخانق. وبدأتُ البحث عن شيء ما، لا أهمية له، كتاب أو مقص أو ما

شابه، ولم أستطع العثور عليه.حملت المصباح في يدي. كـان ثقيـلاً، وكنـت منـهكاً. حالاً وضعته ثم التقطته من جديد. أردتُ أن أبحث، بحثت عارفاً أن هذا بلا طـائل. لن أعثر على أي شيء. سوف أشوش جميع الأمور مـرة أخـرى فحسـب. سيسـقط المصباح من يدي. كان ثقيلاً، بشكل مؤلم، وهكذا سأتابع تلمّـس طريقـي وأبحـث وأتجول في الغرفة بقية حياتي البائسة.

نظر صهري إليَّ بقلق ونوعاً ما بتأنيب. لقد أدركا أنني جننت. فكـرت بسـرعة والتقطت المصباح من جديد. جـاءت أخـتي إلي، بـهدوء، بعينـين متوسـلتين، مليئـة بالخوف والحب مما جعلني أعتقد أن قلبي سيتحطم. لم أقدر على قـول أي شـيء. استطعتُ فقط أن أمد يدي وألوح لها أن تبتعد، أن أتفاداها، وفكرتُ:" *فقط اتركيـني وحدي! فقط اتركيني وحدي! أنت بالتـأكيد لا تسـتطيعين أن تعـرفي كيـف أشـعر، كيف يؤلم كل شيء كثيراً، كيف يؤلم بشـكل مريـع*. ومـرة أخـرى:" *فقـط اتركيـني وحدي! فقط اتركيني وحدي!*

تدفق ضـوء المصبـاح الضـارب إلى الحمـرة باهتـاً عـبر الغرفـة الكبـيرة. وفي الخارج كانت الأشجار تتنهد في الريح. وللحظة اعتقدت بأنني شـعرتُ أنـني رأيـت نفسي كصورة: كنتُ شاحباً، موسيقياً هزيلاً بعينـين تومضـان وتخبـوان، وأن اسمـي هو هوغو وولف، وفي هذا المساء كنت على شفا الجنون.

في غضون ذلك كان عليّ أن أتابع البحث، بـلا أمـل وأرفـع المصبـاح الثقيـل الذي على الطاولـة المسـتديرة إلى الكرسي، علـى كومـة الكتـب. وكـان يجـب أن أحمي نفسي بإيماءات متوسلة حين نظرتْ أختي إليّ مـرة أخـرى بحـزن وتمعـن، محاولة أن تعزّيني، وتكون قربي، وتساعدني. نمـا الحـزن في داخلـي وملأنـي إلى

نقطة الانفجار، وكانت الصور في كل مكان حـولي مؤثـرة وفصيحـة في وضوحـها، أكثر وضوحاً من الواقع. بضع أزهار خريفية في كأس ماء، أضاليا داكنة بنية ضاربة إلى الاحمرار بينها، توهجت في عزلة مؤلمـة، وجميلـة، كـل شـيء، حتـى القـاعدة النحاسية المشعة للمصباح، كان جميلاً بشكل ساحر ومسكوناً بعزلـة مقـدرة، كمـا في لوحات الفنانين العظام.

أحسست بقدري بوضوح. مع ذلك ظلٌّ آخر في هذا الحزن، نظرةٌ أخـرى مـن أختي، نظرةٌ أخـرى مـن الأزهـار، مـن الأزهـار الروحيـة الجميلـة - عندئـذ سـوف تفيض، وسأغوص في الجنـون. اتركيـني وحـدي!بالتـأكيد أنـت لا تعرفـين! وعلـى الجانب المصقول للبيانو انعكس شعاعٌ شمسيٌّ في الغابة السوداء، جميلٌ، وغامضٌ، ومليءٌ بالكآبة!

نهضت أخـتي مـرة أخـرى واتجـهت إلى البيـانو. أردتُ أن أتوسـل، وأبعدهـا بقوتي، لكنني لم أقدر. لم تنبعث أية قوة من أي نوع من وحدتـي تكفـي للوصـول إليها. آه، عرفت ما الذي حدث لي. عرفت اللحن الذي سيعبر الآن عن نفسـه قـائلاً كل شيء ومدمراً كل شيء. ضغط قلبي توترٌ ضخمٌ، وبينما كـانت الدمعـات الأولى الدافئة تقفز من عيني، رميت رأسي ويدي عبر الطاولة وأصغيـتُ وشـعرت بجميـع حواسـي وبحـواس جديـدة أيضـاً، النـص واللحـن في الوقـت نفسـه، لحـن وولـف والأشعار:

ما الذي تعرفينه يا قمم الأشجار العالية

عن الأيام الجميلة الغابرة؟

الوطن يقع خلف قمم الجبال

كم هو بعيد موقعه، كم هو بعيد !

بهذه الأغنية، انزلق العالم منفرداً أمامي وفي داخلي، غـاص بعيـداً في الدمـوع والألحان. ومن المستحيل أن أصف كيف انسكب كله خارجاً، كيف تدفق، وكم كان جيداً ومؤلماً! آه أيتـها الدمـوع، آه أيـها الانـهيار العـذب، أيـها الذوبـان السـعيد! إن جميع كتب العالم المليئة بالأفكار والقصائد لا تساوي شيئاً بالمقارنـة مـع دقيقـة بكاء، حين تندفع المشاعر في موجات، وتشعر الـروح بنفسـها بعمـق وتعـثر علـى نفسها. إن الدمـوع هـي الجليـد الذائـب. إن جميـع الملائكـة قريبـين إلى الشـخص الباكي.

ناسياً جميع العلل والأسباب، بكيت وأنا في طريقي إلى الأسفل من قمم توتر لا يُحتمـل إلى الغسـق الخفيـف للمشـاعر اليوميـة، دون أفكــار، دون شــهود. وفي الداخل رفرفت الصور: تابوت يرقد فيه شخص، شخصٌ عزيزٌ جداً ومهم لي، لكنني لم أعرف من هو. *ربما هو أنت نفسك*، اعتقدت. ثم جاءت إلي صـورة أخـرى مـن مسافة بعيدة شاحبة. ألم ألمح في إحـدى المـرات، منـذ سـنوات كثـيرة أو في حيـاة مبكرة، مشهداً رائعاً؟ مجموعة من الفتيـات يعشـن في الجـو، غامضـات وبـلا وزن، جميلات وسعيدات، يتأرجحن كالضوء ومثل الهواء ولهن نغمٌ كالموسيقى الوترية.

وطارت الأعوام فيما بين ذلك، تدفعني بلطف وبشـدة بعيـداً عـن الصـورة. آه، ربما كان معنى حياتي كلها فقط هو أن أرى تلـك الفتيـات النبيـلات العائمـات، أن أقترب منهن، وأصير مثلـهن! لكنـهن تلاشـين الآن في المسـافة، لا يمكـن الوصـول إليهن، لا يُفهمن، لا يعالجن، متعبات، وتحيط بهن رفرفة حنين يائس.

سقطت الأعوام على الأرض كندف الثلج، وتغيّر العالم. مروّعاً، تجولت نحو منزل صغير. كنت أشعر ببؤس شديد، وسيطر عليّ إحساس مقيت في فمي. وبقلق لمست سناً مرخياً بلساني. وعلى الفور تحرك جانباً وسقط. ثم سقط التالي كذلك! كان هناك طبيب في ريعان الشباب. شكوتُ له. رفعت السن له بأصابعي متوسلاً! ضحك بابتهاج، بإيماءة مهنية مهلكة، وهز رأسه الفتي - هذا لا شيء، لا يؤذي، يحدث كل يوم. *يا إلهي العزيز*، فكرت. لكنه استمر وأشار إلى ركبتي اليسرى: هذه هي المشكلة. هذا شيء آخر وليس مزحة. أمسكت ركبتي بسرعة رهيبة. كان هناك ثقب أستطيع أن أدخل إصبعي فيه، وبدلاً من الجلد واللحم، لم يكن هناك ما يُلمس سوى كتلة مرخية غير حساسة وناعمة، خفيفة ومتليفة كزهرة ذابلة. آه، يا إلهي، هذا تآكل، هذا موت وفساد! " ليس هناك ما تستطيع فعله؟" سألت، محاولاً أن أكون ودوداً.

" لا شيء"- قال الطبيب الشاب، وذهب.

مصاباً بالإعياء، سرتُ إلى المنزل الصغير، ولكنني لم أكن يائساً كما ينبغي أن أكون. بالفعل، كنت تقريباً غير مبال. توجّب عليَّ أن أدخل إلى المنزل الصغير حيث كانت أمي تنتظرني - ألم أسمع صوتها من قبل؟ ورأيت وجهها؟ درجات قادت إلى المنزل، درجات مجنونة، مرتفعة وناعمة دون درابزون، كل واحدة جبل، قمة، نهر جليد. كان الوقت متأخراً بالتأكيد - ربما غادرت مسبقاً، ربما ماتت؟ ألم أسمع نداءها لتوي مرة أخرى؟ بصمت تماشيت مع جبل الدرجات المنحدر، ساقطاً ومحطماً، متوحشاً، وباكياً، تسلقتُ ودفعتُ إلى الأمام، مستنداً إلى ذراعين وركبتين مكسورتين، ووصلتُ إلى القمة، إلى البوابة، وصغرت الدرجات وأصبحت

جميلة ومخططة بأشجار البقْس. وكانت كل درجة دبقة وثقيلة وكـأنني كنـتُ ذاهبـاً عبر الوحل والصمغ، لا أكاد أتحرك إلى الأمام. انفتحت البوابة، وفي الداخـل كـانت أمي تتجول في فستان رمادي، تحمل سلة صغـيرة، صامتـة وغارقـة في التفكـير. آه، شعرها الأسود، الضـارب قليـلاً إلى الرمـادي في شـبكة صغـيرة! ومشـيتها، الشـكل الصغير! والثوب، الثوب الرمـادي! هـل فقـدتُ صورتـها بشـكل كـامل طـوال تلـك السنين الكثيرة، ولم أفكر بها البتة؟ كانت هناك تتوقف وتسير لا يمكن أن تـرى إلا من الخلف، تماماً كما كانت، جميلة وواضحة بشكل كامل، حب نقيٌّ، أفكـار حـب نقية!

شاعراً بأنني أعرج، خضتُ بغضب عبر الهواء الدبق. غلفتني الأعشاب واقتربت كأنها حبال نحيلة وقوية. عوائق معاديـة في جميـع الأمكنـة. لم أسـتطع التقـدم إلى الأمام! " أمي"، ناديت - لكنني لم أكن أملك صوتـاً... لم يكـن هنـاك صـوت. كـان هناك زجاجٌ بيني وبينها.

تابعت أمي سيرها ببطء، دون أن تنظر إلى الخلف، مستغرقة تمامـاً في أفكـار جميلة وحريصة. نفضت خيطاً خفياً عن فستانها بيدها الـتي أعرفـها جيـداً. انحنـت فوق سلتها الصغيرة التي تحوي عدة الخياطة. آه، السلة الصغيرة! خبأت بيـض عيـد الفصح فيها مرة. صرختُ يائساً، غير قادر على إصـدار صـوت. ركضـتُ ولم أقـدر على مغادرة البقعة! والرقة والغضب يشدانني بقوة.

وتابعت سيرها ببطء عبر حديقة المنزل. جلست عند البـاب الخلفـي المفتـوح ثم خطت إلى الخارج. خفضت رأسها قليلاً إلى أحد الجوانب، بهدوء وانتباه، غارقـة في أفكارها. رفعت السلة الصغيرة ووضعتـها علـى الأرض. لاحظـت ورقـة عثرتُ

عليها في سلة الخياطة في إحدى المرات حين كنتُ فتى صغيراً. كانت قد كتبت خططها الخاصة باليوم عليها، ما أرادت أن تتذكره:" *اهترأ بنطلون هرمان، وضع الغسيل بعيداً، استعارة كتاب لديكنز، لم يصل هرمان البارحة.*" جداول ذاكرة، حمولات حب!

مربوطاً ومقيداً بالأغلال، وقفتُ عند البوابة، ووراءها ابتعدت المرأة التي ترتدي الثوب الرمادي بعيداً ببطء، إلى الحديقة ثم اختفت.

ساكن الغابة

في فجر الحضارة، وقبل وقت قليل من بداية تجـول الكائنـات البشـرية علـى وجه الأرض، كان هنـاك بشـرٌ يعيشـون قـرب بعضـهم بعضـاً خـائفين في الغابـات الاستوائية المظلمة، يقاتلون باستمرار أقرباءهم، القردة، وكان القانون الإلهي الوحيـد الذي يحكم أفعالهم هو قانون الغابة. كانت الغابة وطناً لهم، وملاذاً، ومـهداً، وعشـاً، وقبراً، ولم يستطيعوا أن يتصوروا الحياة خارجها.كانوا يتجنبون الاقتراب كثـيراً مـن الحواف، وكل من يقترب من الحـواف، وهـو، في ظـروف غـير عاديـة، يصطـاد أو يهرب من شيء عادي، سوف يرتجف من الفزع فيما بعد حين يتحدث عن الفـراغ الأبيض في الخارج، حيث العدم المرعب يتلألأ في ضوء الشمس المهلك.

كان هناك عجوز طاردته منذ عقود حيوانات مفترسة فهرب عبر الحافة الأبعد للغابة. أصيب بالعمى على الفور ويعتبر الآن كاهنـاً وقديسـاً اسمـه ماتـا دالام، أو " الذي يملك عيناً داخلية". لقد ألف الأغنية المقدسة الخاصة بالغابة التي تُغنـى أثنـاء العواصف الكبيرة، وكان قاطنو الغابة يصغون دائماً لما يقوله.

كان قاطنو الغابة صغاراً، وسمراً، وغزيري الشعر. يسيرون محدودبين وأعينهم ماكرة ووحشية. يستطيعون أن يتحركوا ككائنات بشرية وكقردة ويشعرون بالأمـان بين أغصان الأشجار كما يشعرون بـه علـى الأرض. لم يكونـوا قـد عرفـوا الأكـواخ والمنـازل. مـع ذلـك، كـانوا يعرفـون كيـف يصنعـون أنواعـاً كثـيرة مـن الأسـلحة والأدوات، والمجوهرات كذلك. صنعوا الأقواس، والسهام، والرماح، والهـراوات مـن

الخشب، والعقود من نسيج الأشجار والتي كانوا يضعون في خيوطها شوندراً مجففاً أو جوزاً. كانوا يرتدون حول أعناقهم أو في شعرهم أشياء ثمينة: سن خنزير بـري، مخلب نمر، ريش ببغاء، أصداف من بلح البحر[1] . وكان نهر كبير يتدفق عبر الغابة اللانهائية، ولكن قاطني الغابة لم يتجاسروا على السير علـى ضفتيه إلا في الظـلام، وكثيرون لم يشاهدوه مطلقاً. أحياناً كان الأكثر شجاعة يزحفون خارج الأدغـال في الليل، خائفين ومستطلعين، ثـم، في وميـض الغسـق البـاهت، يراقبـون الفيلـة وهـي تستحم وينظرون عبر قمم الأشجار فوقهم ويرصدون النجوم المشعة بخوف وهـي تظهر كأنها تتعلق بالأغصان المتشابكة لأشـجار المنغـروف. لم يشـاهدوا الشـمس مطلقاً، ولقد رأوا أنه من الخطير جداً رؤية انعكاسها في الصيف.

شاب يحمل اسم كوبو، ينتمي إلى قبيلة قـاطني الغابـة الـتي يرأسـها الأعمـى مالتا دالام، كان قائداً للشبّان الساخطين وناطقاً باسمهم. وفي الحقيقة، منذ أن شـاخ ماتا دالام وزاد طغيانه، رفع الساخطون أصواتـهم كـي تسـمعها القبيلـة. حتـى ذلـك الوقت، كان أفـراد القبيلـة مجبرين علـى تزويـد الرجـل الأعمـى بالطعـام. وكـانوا يجيئـون إليـه التماسـاً للنصيحـة ويغنـون أغنيتـه الغابيـة. وعلـى أي حـال، أدخـل، بالتدريج، جميع أنواع العادات المرهقة التي أوحاها له، كما قـال، في حلـم، الـروح المقدس للغابة. لكن عدداً من الشبان الشـكاكين أكـدوا أن العجـوز غشـاش ومـهتم بمصالحه وحسب.

وكانت أحدث عادة أدخلها ماتا دالام هي احتفـال القمـر الجديـد حيـث كـان يجلس، أثناءه، وسط دائرة ويقرع طبلاً مصنوعاً من الجلد. في غضـون ذلـك، علـى

---

[1] ضرب من الرخويات

قاطني الغابة أن يرقصوا في الدائرة ويغنون أغنية " غولو إلاه" إلى أن يُصابوا بالإعياء وينهاروا على ركبهم. ثم يتوجب على جميع الرجال أن يثقبوا آذانهم اليسرى بشوكة، وكانت النساء الشابات يذهبن إلى الكاهن الذي كان يثقب أذن كل منهن بشوكة.

كان كوبو وبعض الشبان الآخرين يتجنبون طقساً كهذا، وحاولوا أن يُقنعوا الفتيات الشابات أن يُقاومن. وفي إحدى المرات ظهر أنهم يمتلكون فرصة جيدة لينتصروا على الكاهن ويحطموا قوته. حدث هذا حين كان العجوز يدير احتفال القمر الجديد ويثقب آذان النساء اليسرى. أطلق شاب جسور صرخة مريعة بينما كان هذا يحدث، وصادف أن العجوز كان يغرز الشوكة في عين الفتاة التي سقطت من محجرها. وصرخت الشابة في يأس فركض الجميع إليها، وحين شاهدوا ما حدث، ذهلوا وفقدوا القدرة على النطق. وعلى الفور تدخل الشبان مبتسمين، وحين تجرأ كابو وأمسك الكاهن من كتفيه، وقف العجوز أمام طبله وأطلق لعنة مريعة، في صوت مزدر صارخ، مما جعل الجميع ينسحبون خائفين. حتى الشاب صُعِقَ. وبرغم أنه لم يقدر أحد على فهم كلمات الكاهن العجوز، فقد كان للعنته نبرة وحشية كريهة وذكرت الجميع بالكلمات المقدسة المفزعة الخاصة بالطقوس الدينية. لعن ماتا دالام عيني الشاب، اللتين منحهما كطعام للعقبان، ولعن أحشاءه، التي تنبأ أنها ستُشوى في أحد الأيام تحت الشمس في الحقول. ثم أمر الكاهن، الذي امتلك الآن قوة أكبر من قبل، أن تُحضر المرأة إليه من جديد، ثم قلع عينها الأخرى بشوكة. نظر الجميع برعب، ولم يتجاسر أحدٌ على التنفّس.

"ستموت في الخارج!" لعن العجوز كوبو، ومن لحظة التفوه باللعنة، تجنب قاطنو الغابة الآخرون الشاب ونظروا إليه كغريب بلا أمل - وهذا يعني أنه منفيٌّ من الوطن، والغابة الغسقية.وهذا يعني الهول، والاحتراق من الشمس، والفراغ المتوهج والمهلك.

مرعوباً، هرب كوبو، وحين شاهد أن الجميع يبتعدون عنه، اختبأ بعيداً في جذع شجرة أجوف واعتبر نفسه ضائعاً. استلقى هناك أياماً وليالي، متأرجحاً بين الذعر المميت والحقد، غير متأكد إن كان أفراد قبيلته سيأتون كي يقتلوه أو إن كانت الشمس نفسها سوف تتغلغل عبر الغابة، وتحاصره،وتذبحه. لكن السهام والرماح لم تأت، ولم تأت الشمس أو البرق. لم يأت شيء عدا الضعف الشديد والصوت المدمدم للجوع.

وهكذا وقف كوبو على قدميه وزحف خارج الشجرة،صاحياً، وبشعور يقارب الشعور بالخيبة. لم تعن لعنة الكاهن أي شيء، فكر مندهشاً، ثم بحث عن الطعام. وحين أكل وشعر بالحياة تدبُّ في أعضائه مرة أخرى، مارت الكبرياء والكراهية في روحه. لم يرغب بالعودة إلى قومه. كل ما أراده الآن هو أن يكون منعزلاً ويبقى مطروداً. أراد أن يُعرفَ بالشخص المكروه وقد قاوم لعنات الكاهن الضعيفة، تلك البقرة العمياء. رغب بأن يكون وحيداً ويبقى وحيداً، لكنه أراد أن ينتقم كذلك.

وهكذا تجول في الغابة وفكر بوضعه. فكر بكل ما أثار شكوكه وبدا قابلاً للشك، وخاصة طبل الكاهن وطقوسه. وكلما زاد تفكيره وطالت وحدته، صفت رؤيته. نعم، كان كله خداعاً. لم يكن الأمر كله إلا أكاذيب وخداعاً. ورغم أنه أوغل مسبقاً في تفكيره، بدأ يستنتج نتائج. بريبة فحص كل ما نُظر إليه على أنه صحيح

ومقدس. مثلاً، تساءل إن كانت هناك روحٌ إلهية في الغابة أو أغنية غابة مقدسة. آه، كل هذا ليس شيئاً. إنه أيضاً غشٌ. وحين نجح في التغلب على رعبه الكريه، غنى أغنية الغابة بصوت كله ازدراء مشوِّهاً جميع الكلمات. ونادى اسم روح الغابة المقدسة، التي لم يُسمح لأحد بأن يسميها خوفاً من ألم الموت - وكل شيء بقي صامتاً. لم تنفجر عاصفة. ولم تنقض عليه صاعقة!

معزولاً، تجول كوبو أياماً وأسابيع كثيرة بجبين مغضّن ونظرة مخترقة. ذهب إلى ضفة النهر حين كان القمر بدراً، وهذا شيء لم يتجرأ أحد على القيام به. وهناك نظر طويلاً وبشجاعة، أولاً إلى انعكاس القمر ثم إلى البدر نفسه وجميع النجوم، تماماً في أعينها، ولم يحدث له أي شيء. جلس على ضفة النهر طوال ليال، مضاء بضوء القمر، معربداً في هذيان الضوء الممنوع، مغذياً أفكاره. تولدت في ذهنه خطط جسورة ورهيبة كثيرة.قال: *القمر صديقي، والنجمة صديقتي، لكن العجوز الأعمى عدوي. بالتالي، الخارجي ربما هو أفضل من الداخلي، وربما قداسة الغابة برمتها مجرد ثرثرة!*وفي إحدى الليالي، قبل أي كائن بشري آخر بقرون، وصل كوبو إلى خطة جريئة وخرافية فثبّت بضعة أغصان بنسيج وربطها، ووقف على الأغصان، وعام في النهر. تلألأت عيناه، وخفق قلبه بكامل قوته. لكن خطته فشلت، لأن النهر كان مليئاً بالتماسيح.

نتيجة لذلك، لم تكن هناك طريقة للمستقبل سوى مغادرة الغابة من خلال حافتها - إن كان هناك حافة للغابة - وأن يعهد بنفسه للفراغ المتوهج، "الخارج" الشرير. وذلك الوحش، الشمس، يجب أن يُبحث عنه، ويتم تحمله، ذلك أنه - من يعرف؟ - من المحتمل أن المعارف القديمة عن رعب الشمس مجرد كذبة!

وهذه الفكرة الأخيرة، بعد سلسلة متوحشة ومحمومة من التأملات، جعلت كوبو يرتجف. لم يحدث في التاريخ كله أن تجرأ قاطن غابة وغادر الغابة بمشيئته وعرض نفسه للشمس الرهيبة. ومرة أخرى تجول عدة أيام حاملاً تلك الأفكار معه إلى أن استرجع شجاعته في النهاية. مرتجفاً، في يوم متألق ظهراً، زحف نحو النهر، وحذراً اقترب من الضفة المتوهجة، وقلقاً بحث عن صورة الشمس المنعكسة على المياه. كان الوهج مؤذياً لعينيه المذهولتين، فأغلقهما بسرعة. ولكن بعد برهة تجاسر وفتحهما مرة أخرى ثم مرة تلو مرة، إلى أن نجح في إبقائهما مفتوحتين. كان ذلك ممكناً وقابلاً للتحمل. ولقد جعله هذا سعيداً وشجاعاً. وتعلم كوبو أن يثق بالشمس. أحبها، حتى وإن كان من المفترض أنها ستقتله، وكره الغابة القديمة، المظلمة والكسولة، حيث ينعب الكاهن وحيث اعتبر الشاب الشجاع خارجاً عن القانون وطُرد.

اتخذ قراره، والتقط فعلته كثمرة ناضجة طيبة المذاق. صنع مطرقة من الخشب القوي كالحديد وجعل لها قبضة رقيقة وخفيفة. ثم، في صباح اليوم التالي، ذهب ليبحث عن ماتا دالام. وبعد أن اكتشف آثار خطواته، عثر عليه، ضربه على رأسه بالمطرقة، وراقب روح العجوز وهي تفارقه من فمه المتلوي. وضع كوبو سلاحه على صدر الكاهن كي يعرف الناس من قتله، ثم نقش علامة على وجه المطرقة المسطح مستخدماً صدفة رخوية بحرية. كانت دائرة بأشعة كثيرة مستقيمة - صورة الشمس.

وبشجاعة بدأ رحلته إلى "الخارج" البعيد. سار بشكل مباشر إلى الأمام من الصباح إلى المساء. كان ينام بين أغصان الأشجار ويتابع مسيره في الصباح الباكر

فوق الجداول والسبخات السوداء وأخيراً فوق التلال في طريقه عبر الغابة اللانهائية،وأصبح شكاكاً وحزيناً وقلقاً من احتمال أن إلهاً ما منع سكان الغابة من مغادرة موطنهم.

وفي مساء أحد الأيام، بعد أن تسلق فترة طويلة ووصل إلى ارتفاع كبير حيث الهواء أكثر جفافاً وخفة، وصل إلى الحافة دون أن يُدرك ذلك. توقفت الغابة - ولكن معها، توقفت الأرض كذلك. انغمست الغابة في فراغ الجو وكأن العالم انكسر إلى قسمين في هذه البقعة. ولم يكن هناك شيءٌ يُرى سوى توهج بعيد ومحمر، وفي الأعلى، بعض النجوم، ذلك أن الليل كان قد بدأ يخيم.

جلس كوبو على حافة العالم وربط نفسه بإحكام إلى بعض النباتات المتسلقة كي يحمي نفسه من السقوط. أمضى الليل مرتعداً من الفزع وأثير بشكل وحشي فلم يقدر على إغماض عينيه. وعند إشارة الفجر الأولى، قفز فاقداً للصبر على قدميه، انحنى فوق الفراغ، وانتظر قدوم النهار.

وومضت بقع صفراء من الضوء في المسافة، وبدا كأن السماء ترتجف من التوقع، كما ارتجف كوبو، ذلك أنه لم يـر مطلقاً بداية اليوم في المسافة الواسعة للجو. وتوهجت صررُ ضوء صفراء، وفجأة ظهرت الشمس في السماء وراء صدع العالم الضخم، كبيرة وحمراء. قفزت من عدم رمادي لا نهائي أصبح حالاً أزرق وأسود - إنه البحر.

وظهر "الخارج" أمام قاطن الغابة المرتجف. وتحت قدميه كان الجبل ينحدر إلى الأسفل في أعماق مدخنة غير قابلة للتمييز، وقبالته تلألأت جروف منقطة بالورد كالجواهر. وانكشف البحر المدلهم، ضخماً وشاساعاً، وحوله كان الساحل

أبيض زبدياً، بأشجار صغيرة نائسة. وفوق كل هذا، فوق هذه الأشكال الجديدة والقوية التي يصل عددها إلى الألف، كانت الشمس تشرق، ملقية جدول ضوء متوهجاً فوق العالم الذي تكشّف عن ألسنة لهب من الألوان الضاحكة.

لم يكن كوبو قادراً على النظر إلى الشمس وجهاً لوجه. لكنه شاهد جدولها الضوئي في طوفان ملون فوق الجبال والصخور والسواحل والجزر البعيدة الزرقاء، وغاص وحنا وجهه على الأرض أمام آلهة عالمه المتألق. آه، من هو، كوبو؟ إنه حيوان صغير قذر أمضى حياته البليدة كلها في الثقب الضبابي المستنقعي للغابة الكثيفة، خائفاً، وكئيباً، وخاضعاً لحكم الآلهة المحنية والتافهة. لكن هنا كان العالم، وإلهه الأعلى هو الشمس، والحلم الطويل، المشين عن حياته في الغابة يستلقي خلفه وقد انطفأ مسبقاً في روحه، كما ذوت صورة الكاهن الميت. متعلقاً بيديه وقدميه انحدر كوبو على الهاوية المنحدرة نحو الضوء والبحر. وفي روحه، في أمواج سعادة عابرة، بدأ يومض حلم بأرض تشرق عليها الشمس، وتعيش عليها كائنات متألقة ومحررة، لا تخضع إلا للشمس.

الممر الوعر

حين وصلت إلى المدخل الصخري المؤدي إلى الحصن، وقفتُ متردداً، ثم عدتُ لكي أنظر خلفي. كانت الشمس مشرقة في ذلك العالم الأخضر البهيج. وكانت أزهار التيفا - عشبة البرك - تومض وتلوِّح فوق المروج. فقد كان كل شيء دافئاً ومريحاً، وتستطيع أن تسمع الروح وهي تصدرُ طنيناً عميقاً كنحلة صوفية طنانة تستمتع بالأريج العابق للجو وضوء الشمس. وربما كنتُ مغفلاً لأنني أردتُ أن أغادر كل هذا وأتسلق صاعداً إلى الجبال.

لمسني الدليل بلطف على ذراعي، فأبعدت عيني عن المشهد الحبيب كأنني أجبرُ نفسي على الخروج من حمام دافئ. ورأيتُ الحصن في الظلام بدون ضوء النهار. وكان جدولٌ صغيرٌ أسود يزحف خارجاً من الشق وينمو عشبٌ شاحبٌ في باقات صغيرة على ضفتيه. وفي قاع الجدول تستلقي أحجارٌ أودعتْ هناك مع مرور الزمن. كانت لها ألوان مختلفة، ميتة وشاحبةٌ كعظام المخلوقات التي كانت حية مرة.

وقلت لدليلي: "لنسترح."

ابتسم بصبر، وجلسنا. كان الجو بارداً، وتدفق جدول رقيق من الهواء البارد كالحجر من المدخل الصخري.

وكان من المريع، في الحقيقة، سلوك ذلـك الطريـق. مريـعٌ أن نعـذّب أنفسـنا بالذهاب عبر المدخل الوعر الذي يخلو من البهجة، كي نعبر ذلـك الجـدول التافـه ونتسلق إلى ذلك الشق الضيق، الوعر في الظلام.

وقلت بجبن:" يبدو الممر مرعباً." وكان لا يـزال هنـاك أمـلٌ قـويٌّ، شـكوكيٌّ، وغير عقلاني بأننا نستطيع أن نستدير إلى الخلـف، وومـض هـذا الأمـل في داخلـي كضوء الشمعة المحتضر.وربما يمكن أن يترك الدليل نفسه يقتنـع، ونجنـب أنفسـنا كل هذا. نعم، ولماذا لا؟ ألم تكن البقعة التي غادرناها لتونا أكثر جمالاً بألف مرة؟ ألم تتدفق الحياة هناك بغنى أكبر، ودفء أكبر، وجمال أكـبر؟ ثـم ألم أكـن بشـرياً، كائناً كالطفل وفانياً، لـه حـق بسـعادة قليلـة، بمكـان صغـير تحـت الشـمس، ببقعـة يستطيع أن يشاهد منها السماوات الزرقاء والأزهار؟

كلا، أردتُ أن أبقى هنا. لم أرغب بـأن ألعـب دور البطـل والشـهيد! وسـأكون راضياً طوال حياتي لو سُمح لي بأن أبقى في الوادي وتحت الشمس.

كنت قد بدأت أرتعش مسبقاً. وكان من المستحيل أن أقف ثابتاً طول الوقت.

قال دليلي:" أنت تتجمد من البرد. من الأفضل أن نتحرك."

وبعد أن قال ذلك، نهض، مدد نفسه إلى أعلـى ارتفـاع لـه للحظـة، ونظـر إلي مبتسماً. لم يكن هناك سـخرية أو تعـاطف في ابتسـامته، ولم يكـن هنـاك قسـوة أو مراعاة للمشاعر. لم يكن هناك سوى الفهم، والمعرفـة. قـالت تلـك الابتسـامة:" أنـا أعرفـك. أعـرف الخـوف الـذي تشـعر بـه، ولم أنـس مطلقـاً مباهـاتك في اليومـين السابقين. أعرف وأدرك كل وثبة وقفزة يائسة يقوم بها قلبك كأرنب مذعـور، وكـل غزل مع الشروق الجميل هناك، حتى قبل أن تشعر به."

كانت هي الابتسامة التي خصّني بها دليلي، وهو يقوم بالخطوة الأولى في الوادي المظلم الذي أمامنا، ولقد كرهته وأحببته، كما يكره رجلٌ محكوم الفأس فوق عنقه. وأكثر ما كرهته واحتقرته فيه هو معرفته، وقيادته وبرودته، وفقدانه لنقاط ضعف مشابهة، وكرهتُ كل شيء في نفسي اعترف بأنه على صواب، كرهت ما وافق عليه، وأراد أن يكون مثله ويتبعه.

كان قد انطلق إلى الأمام، ماشياً على الأحجار عبر الجدول الأسود، وكان على وشك الاختفاء من النظر عند المنعطف الصخري الأول.

"توقف!" - ناديته، مليئاً بالخوف مجبراً على التفكير في الوقت نفسه أنه إن كان هذا حلماً، فإن رعبي سيفجره كله في هذه الثانية، وسوف أستيقظ. "توقف!" - ناديته. " لا أستطيع المتابعة. لست مستعداً بعد."

توقف الدليل ونظر إلي صامتاً دون أدنى تأنيب ولكن بفهمه المخيف، بمعرفته التي لا تُطاق، وحدسه، وتأكيده المعتد بنفسه بأنه يعرف ما سيحدث مسبقاً.

" أتظن أنه سيكون من الأفضل لو استدرنا؟" - سألني، ولم يكن قد أنهى التفوه بكلمته الأخيرة حين عرفتُه مليئاً بالاشمئزاز، أنني سأقول لا، أن عليَّ أن أقول كلا. وفي الوقت نفسه صرخت جميع الأشياء القديمة، المعتادة، والجميلة، والمألوفة، بتأنيب في داخلي:" قل نعم، قل نعم"، وكأن العالم كله والوطن كانا ملتفين حول قدمي ككرة وسلسلة.

أردت أن أصيح نعم، رغم تأكدي بأنني لستُ قادراً على القيام بذلك.

ثم أشار الدليل بيده الممدودة إلى الوراء نحو الوادي، فاستدرتُ مرة أخرى لكي أنظر إلى المنطقة التي أحببتها كثيراً. أما الآن، فيواجهني الشيء الأكثر إيلاماً والذي كان من الممكن رؤيته: كانت أوديتي وحقولي الجميلة تمتد شاحبة وكئيبة تحت شمس بيضاء بائسة. اصطدمت الألوان بطريقة مزيفة وحادة، وكانت الحقول سوداء وصدئة وتخلو من السحر، ولقد انفصل القلب عن كل شيء. تلاشى العطر والبهجة، فصار لكل شيء مذاق الأشياء التي يأكلها المرء إلى نقطة الغثيان وتفوح منها الرائحة نفسها.آه، لقد عرفت ذلك طول الوقت! وكم كرهتُ وخفتُ من طريقة دليلي المرعبة في إذلال الأشياء العزيزة عليَّ والتي تسرني! كرهتُ طريقته في جعل العصير والروح يجفان مني، في تزييف العطر، وتسميم الألوان بلمسة خفيفة! آه، لقد عرفتُ ذلك! لقد أصبحت خمرة البارحة خلّ اليوم، والخل لن يصبح نبيذاً مرة أخرى. لن يصبح مطلقاً.

لزمتُ الهدوء وتبعتُ الدليل حزيناً. كان على صواب تام، كما هو دائماً. وكان من الجيد أنه، على الأقل، بقي معي، وفي مدى النظر، بدلاً من الاختفاء فجأة - كما فعل دائماً - في اللحظة التي ينبغي أن يتخذ فيها قراراً ويتركني وحيداً، وحيداً مع ذلك الصوت الغريب داخل صدري، الذي سيحوِّل نفسه إليه كل مرة.

لزمتُ الصمت، لكن قلبي صاح بحماسة:" ابق فحسب - سأتبعك بالتأكيد!"

كانت الحجارة التي في الجدول زلقة بشكل مخيف.كان السير بهذه الطريقة، خطوة خطوة، على أحجار مبللة وضيقة تتقلص تحت قدمي، متعباً ويسبّب لي الدوار، ويضللني. وفي الوقت نفسه، كان الممر في الجدول يرتفع بحدة، وتقترب الجدران المظلمة للجروف من بعضها. كانت منتفخة بالكآبة، وكانت كل زاوية

تكشف عن قصدها الشنيع في أن تعصرنا وتمنع تراجعنا إلى الأبد. لم يعد هناك سماء، أو حتى سحابة، أو بعض الزرقة فوقنا.

تابعتُ السير، خلف الدليل، وغالباً ما كنتُ أغمضُ عينني من الخوف والاشمئزاز. وفجأة كان هناك زهرة سوداء تتكرر على طول الطريق، سوداء ومخملية فيها لمسة حزن. كانت جميلة وتحدثت إليَّ بألفة، لكن الدليل تابع تقدمه، وشعرتُ أنني إذا بقيتُ لحظة واحدة، إذا ألقيتُ نظرة أخرى على تلك العين المخملية الحزينة، فإن الحزن والكآبة اليائسة سيصبحان ثقيلين وغير محتملين بالنسبة إلي، وستبقى روحي منفية إلى الأبد في تلك المنطقة الساخرة المليئة بالجنون والعبث.

مبللاً ومتسخاً، سرتُ إلى الأمام مجهداً، وضغطت الجدران الرطبة فوقنا مقتربة، وبدأ الدليل يغني أغنيته القديمة عن الراحة. مع كل خطوة كان يخطوها، كان يحفظ الإيقاع بصوته الواضح، والقوي والفتي:" سوف! سوف! سوف!" وعرفت جيداً أنه يريد أن يشجعني، ويحثني. أراد أن يضللني ويجعلني أنسى الصعوبة واليأس المريع لهذه الرحلة الجهنمية. وعرفت أنه كان ينتظرني كي أنسجم مع أغنيته. لكنني رفضتُ أن أقوم بذلك. لم أرد أن أمنحه هذا النصر. ألم أشعر برغبة في الغناء؟ ألم أكن مجرد إنسان، شخص مسكين وبسيط فحسب جذب إلى القيام بأمور ضد مشاعره حتى الله نفسه لن يطلبها منه؟ ألم يسمح للقرنفل ونبات أذن الفأر أن يمكث قرب الجدول حيث كان ينمو، أن يزهر ويذوي على طريقته؟

" سأفعل!سأفعل! سأفعل!" غنى الدليل بقوة. آه، لو أنني أقدر أن أستدير فحسب! لكنني كنتُ قد أمضيتُ وقتاً طويلاً فوق الجدران والجروف بفضل

المساعدة المذهلة للدليل، ولم يكن هناك أي مجال للعودة. قمعتُ دموعي وشعرت بها تخنقني، لكنني لم أجرؤ على البكاء على الإطلاق. وهكذا انضممت إلى أغنية دليلي، متحدياً وبصوت مرتفع، متآلفاً مع الإيقاع والنبرة ذاتهما. وعلى أي حال، لم أغن كلماته، وإنما تابعتُ تكرار:" يجب، يجب، يجب!" ولكن لم يكن من السهل الغناء في أثناء التسلق. وحالاً بدأت ألهث وأجبرت على الصمت. لكنه تابع الغناء دون تعب:" سوف! سوف! سوف!وفي الوقت المناسب أجبرني على ترديد كلماته. أصبح التسلق أكثر سهولة ولم أعد أشعر أنني تحت الحجز. وبالفعل أردتُ أن أتسلق إلى الأمام، ولم أعد أشعر بأدنى أثر من الإعياء من الغناء.

أصبح كل شيء أكثر تألقاً في داخلي، وفيما كان يفعل ذلك، تراجع الجرف الناعم كذلك، أصبح أكثر جفافاً وإمتاعاً. كذلك قدم المساعدة لقدمي المنزلقة، وكشفت السماء الزرقاء المتألقة عن نفسها أكثر فأكثر كجدول أزرق صغير بين ضفاف الحجر، ثم كبحيرة زرقاء صغيرة نمت وأصبحتْ أكثر اتساعاً.

حاولت أن أمارس إرادتي بشدة وحماسة أكبر، ولقد اتسعت البحيرة السماوية، وأصبح الممر أكثر قابلية للعبور. وأحياناً كنتُ أتمدد بشكل كامل بارتياح، دون أن أشكو، إلى جانب الدليل. ثم رأيت، بشكل غير متوقع، القمة قريبة، تماماً فوقنا، شاهقة ومتلألئة في جو الشمس المتوهج.

وحين وصلنا إلى تحت القمة، زحفنا خارجين من شق ضيق. ثقبت الشمس عيني وأعمتني مؤقتاً، وحين فتحتهما، ارتجفت ركبتاي من الخوف، ذلك أنني رأيت أنني أقف حراً ودون استناد على حافة شاهقة. كان حولي الفضاء اللانهائي للسماء والأعماق الزرقاء المخيفة. فقط ارتفعت فوقنا القمة الضيقة كسلم. لكن السماء

والشمس كانتا هناك مرة أخرى، ثم تسلقنا الممر الأخير المخيف الشاهق، خطوة خطوة، بشفاه مضغوطة وحواجب مغضّنة. وأخيراً وقفنا على القمة، شكلين نحيلين على صخر متوهج، في هواء حاد، مؤلم، ورقيق.

كان جبلاً غريباً وقمة غريبة! وصلنا إلى هذه القمة متسلقين فوق جدران حجرية لا نهائية وعارية. شجرة نمت في الحجر، شجرة صغيرة قوية، لها أغصان قصيرة وقوية. وقفت هناك، وحيدة وغريبة بشكل لا يُصدق، قاسية وصلبة في الصخور، برودة السماء الزرقاء بين أغصانها. وعلى قمة الشجرة كان هناك شحرور يغني أغنية شؤم.

حلم صامت من الراحة القصيرة عالياً فوق العالم: كانت الشمس ملتهبة، الصخور توهجت، وتصلب الهواء، والطائر غنى بحدة. وكانت أغنيته الحادة تعني: الأبدية، الأبدية! غنى الشحرور وعينه المشدوهة القاسية حدقت بنا ككريستال أسود. كان من الصعب تحمل تحديقته وأغنيته وكان أكثر ما يثير الفزع هو عزلة وفراغ هذا المكان - الاتساع المربك للسماء الجافة. كان الموت متعة لا يمكن تصورها. والبقاء هنا ألم لا يمكن التعبير عنه. يجب أن يحدث شيء ما، على الفور، حالاً. وإلا سنتحول نحن والعالم إلى حجر بسبب الخوف. شعرت بالحدث يصعد ويهب علينا كهبة ريح قبل العاصفة. شعرت به يومض كحمى ملتهبة فوق جسدي وروحي. هدد، جاء، ووصل إلينا.

وعلى نحو مفاجئ طار الشحرور عن الغصن واندفع في الفضاء.

ثم قام دليلي بقفزة راكضة في الزرقة وسقط في السماء النابضة وطار بعيداً.

والآن وصلت موجة القدر إلى تقببها. الآن شقّتْ قلبي الذي تحطم إلى أشلاء.

ومسبقاً كنتُ أسقط. قفزتُ، غصتُ، وطرتُ، مقيداً في الدوامة الباردة، قذفت بسعادة في الجو وشعرت بألم مبهج وأنا أحلق إلى الأسفل، مرتعشاً عبر اللامنتهي إلى صدر الأم.

إذا استمرت الحرب

منذ أن كنت شاباً، اعتدت أن أختفي بين فينة وأخرى كي أنعش نفسي من جديد، وكنتُ أضيع في عوالم أخرى. وكان الناس يبحثون عني، وحين لا يستطيعون العثور علي، يبلغون أنني مفقود. ثم بعد أن أعود، أستمتع دوماً بالاستنتاجات التي تقول إن ما يُدعون بالعلماء يخترعون لكي يشرحوا من أنا وظروف غيابي أو وجودي الغسقي. وبما أن ما أفعله ليس شيئاً مخالفاً للطبيعة، ويقدر معظم الناس على فعله، نظر إليَّ أحد هؤلاء المميزين على أنني أشكل ظاهرة أو أنني شخص مهووس، فيما رأى آخرون أنني شخص مبارك يتمتع بقوى إعجازية.

وباختصار، ابتعدت مرة أخرى لبعض الوقت. وبعد سنتين من الحرب، فقد الحاضر كثيراً من بهجته بالنسبة إلي، واختفيت فترة من أجل أن أتنفس هواء آخر. وبطريقتي المعتادة تركت المكان الذي نعيش فيه وحللت ضيفاً في أجزاء بعيدة مدة طويلة، مسرعاً عبر الناس والعهود، وأصبحتُ سعيداً لأنني لم أشاهد سوى المحن المعتادة، والتجارة، والتقدم، والتحسينات على الأرض. ثم انسحبت إلى الأجواء الكونية لبعض الوقت.

حين عدت، كان العام ١٩٢٠، وخاب أملي حين وجدت أن الناس لا يزالون في حرب مع بعضهم بعضاً في جميع أنحاء الكرة الأرضية، وأنه لا يزال هناك الوحشية والعناد نفسهما. تبدلت حدود بعض البلدان، ولقد دمرت بعض المناطق

المختارة ذات الثقافات العريقة والرفيعة بحرص، ولكن في النهاية لم يتغيّر الكثير في ظاهر الأمور.

بالطبع، حدث تقدم كبير في قضية المساواة في العالم. فعلى الأقل في أوروبا، كما سمعت، كانت التوقعات هي نفسها للجميع في كل البلدان. وتلاشت الفروق بين الدول المتحاربة والحيادية تقريباً بشكل كامل. ومنذ أن بدأوا يطلقون النار على السكان المدنيين من المناطيد التي كانت على ارتفاع خمسة عشر ألف متر إلى عشرين ألف متر، والتي تترك طلقاتها تسقط وهي تتحرك، منذ ذلك الوقت أصبحت حدود البلدان وهمية نوعاً ما رغم الحراسة المشددة عليها. وكان تبعثر تلك الطلقات العشوائية من الجو كبيراً ولقد كان مرسلو تلك المناطيد يشعرون بالرضا التام إذا ما قدروا على منع تلك القنابل من إصابة أراضيهم وحسب. ولم يعد يهمهم عدد القنابل التي يسقطونها على البلدان الحيادية أو حتى على أراضي حلفائهم.

وكان هذا بالفعل التقدم الوحيد الذي أنجزته مؤسسة الحرب. وإلى حد معيّن، منح معنى الحرب أخيراً تعبيره الأوضح من خلال هذا القصف العشوائي. قسم العالم إلى جزأين يحاولان تدمير بعضهما بعضاً لأنهما يرغبان بالشيء نفسه: تحرير المظلومين، القضاء على العنف، وتحقيق سلام دائم! وامتلك الجميع آراء مسبقة حول سلام لا يمكن أن يستمر إلى الأبد - إذا لم يحقق السلام الأبدي، فإن المرء سيفضل بالتأكيد الحرب الأبدية، والطريقة المهملة التي تترك فيها المناطيد، المليئة بالمتفجرات، بركاتها تسقط على العادلين وغير العادلين من ارتفاعات هائلة تتلاءم تماماً مع معنى هذه الحرب. وبغض النظر عن هذا، استمر شن الحرب

بالطريقة القديمة وبوسائل هامة لكنها غير ملائمة. ولقد قاد خيال الجنرالات والتقنيين المحدود إلى ابتكار بضعة أسلحة أخرى مدمرة. وعلى أي حال، إن الرؤيوي الذي تصور المنطاد الآلي الذي يرش القنابل كان الأخير من نوعه. مذاك، فقد المفكرون، والرؤيويون، والشعراء، والحالمون اهتمامهم بالحرب تدريجياً. وتُركتْ الحرب للجنرالات والتقنيين وهكذا أنجزوا تقدماً قليلاً. وكانت الجيوش في جميع الأمكنة ولقد واجهتْ بعضها بعضاً بدأب كبير، وبالرغم من أن قلة المواد قادت منذ فترة طويلة إلى منح الأوسمة العسكرية التي كانت تُصنع من الورق فقط، لم تكن هناك إشارة في أي مكان إلى أن جسارة الجنود قد خفّتْ.

وجدت أن شقتي قد دُمّرت جزئياً بقنابل أسقطتها طائرات ما، لكنني تمكنتُ من النوم هناك رغم البرد وعدم الراحة. فيما بعد أزعجني الحطام الذي على الأرض والفطور الرطبة التي على الحيطان، وغادرتُ كي أقوم بنزهة.

سرت في بعض شوارع المدينة التي تغيرت كثيراً عما كانت عليه في السابق. وكان أكثر ما صعقني هو أنه لم يكن هناك حوانيت تمكن مشاهدتها. كانت الشوارع تخلو من الحياة. وبعد فترة سير قصيرة قابلتُ رجلاً ثمة رقم من الصفيح مثبت على قبعته، وسألني ما الذي أفعله. أخبرته أنني أتمشى.

قال:" هل لديك إذن؟"

لم أفهمه. تبادلنا الكلمات، وأمرني أن أتبعه إلى أقرب دائرة.

جئنا إلى شارع تحف به الأبنية التي تمتلك جميعها صفائح بيضاء على أبوابها تشير إلى مكاتب بأعداد وأرقام.

كلمة " مدنيون غير موظفين" كانت مطبوعة على لوحة أحد الأبواب بالإضافة إلى رقم. ومن هذا الباب دخلنا. المكاتب المعتادة، ممرات تفوح برائحة الأوراق، ملابس رطبة، وهواء فاسد، ثم أخذت إلى غرفة واستجوبت هناك.وقف مسؤول أمامي وفحصني، ثم سألني بقسوة:" ألا تستطيع أن تقف منتصباً؟" قلت لا. فسأل:" ولماذا؟" أجبته بخفر:" لم أتعلم بتاتاً كيف أفعل ذلك."

" إذن، اعتقلت وأنت تقوم بنزهة دون إذن. هل تعترف بذلك؟"

قلت:" نعم، هذا صحيح. لم أكن أعرف أن هذا ضروري. لقد كنت مريضاً لفترة طويلة -"

لوح بيده." يجب أن تُعاقب، وستمنع في الأيام الثلاثة القادمة من السير بحذاء. انزع حذاءك!"

نزعتُ حذائي.

قال المسؤول مرعوباً:" يا إلهي!أنت ترتدي حذاء جلدياً! من أين حصلت عليه؟ هل فقدت عقلك؟"

"ربما لستُ سوياً بشكل كامل. أنا بالضبط أفضل حكم حيال هذا. اشتريت الحذاء منذ فترة."

"أنت تعرف أن ارتداء المدنيين لأي نوع من أنواع الجلد ممنوع. سيبقى حذاؤك هنا ويصادر. والآن أرني بطاقة هويتك!"

يا إلهي، لم أكن أحمل واحدة.

"لم أجرب شيئاً كهذا لمدة عام على الأقل!"

تنهد المسؤول واستدعى شرطياً وأمره:" خذ هذا الرجل إلى المكتب ١٩٤، الغرفة ٨."

أجبرتُ على السير حافياً عبر بعض الشوارع، ثم دخلت بناء إدارة أخرى وعبرت ممرات، متنفساً رائحة الأوراق واليأس. دُفعتُ إلى غرفة وهناك استجوبني مسؤول آخر، كان يرتدي بزة عسكرية.

" عثر عليك في الشارع دون بطاقة هوية، ولهذا سأغرمك بألفي جيلدر[١]،وسأكتب لك الوصل على الفور."

قلت بجبن:" سامحني. لا أحمل معي مبلغاً كهذا، ألا تستطيع أن تسجنني فترة بدلاً من الغرامة؟"

ضحك بصوت مرتفع.

"أسجنك؟ يا عزيزي، كيف تستطيع أن تفكر بأمر كهذا؟ هل تعتقد أننا سنطعمك؟ لا يا عزيزي، إذا كنت لا تقدر على دفع هذا المبلغ الصغير، فسوف تعاقب أشد عقاب. سوف أصدر أمراً بتجريدك مؤقتاً من إذن وجودك. أعطني بطاقة إذن وجودك!"

لم أكن أحمل واحدة.

توقف المسؤول عن الكلام. استدعى زميلين، همس لهما وقتاً طويلاً، وكان يشير إلي على نحو متكرر. نظر الجميع إليّ خائفين ومندهشين. ثم أمر بزجي في السجن إلى أن تُناقش حالتي بشكل كامل.

---

[١] – وحدة النقد الهولندية.

كان كثير من الناس يقفون ويجلسون هناك. وكـان هنـاك حـارس يقـف أمـام الباب. ولقد أدهشني أنه رغم كوني حافياً كنت الشخص الذي يرتدي أفضـل ثيـاب في الزنزانة، وكان الآخرون يخافون مني نوعاً مـا. وهكـذا أفسـحوا لي مجـالاً كـي أجلس، وعلى الفور ضغط علي رجل قصير وخجول، واتكـأ بحـرص، وهمـس في أذني:" اسمع، سأعقد معك صفقة خرافية. لدي شوندر سكري في المنزل! إنـه جيـد جداً ويزن تقريباً ستة أرطال. بوسعك الحصـول عليـه. لكـن مـا الـذي سـتقدمه لي بالمقابل؟"

انحنى إلى الأمـام ووضـع أذنـه قريبـاً مـن شـفتيَّ، فهمسـت:" قـدم لي عرضـاً بنفسك! كم تريد؟"

أجاب:" لنقل مائة وخمسين جيلدراً."

هززت رأسي واستغرقت في أفكاري.

ورأيت أنني كنتُ بعيداً فترة طويلة. وكان مـن الصعـب أن أعـوِّد نفسـي علـى حياة كهذه مرة أخرى. كنت سأمنح كثيراً مقابل جورب وحذاء، وذلك بسـبب الـبرد المريع في قدمي، ولقد أجبرت على السير في شـوارع مبللـة. لكـن لم يكـن هنـاك أحد في الغرفة غير حاف.

بعد مرور بضع ساعات، جـاؤوا في طلـبي. اقتـادوني إلى المكتـب رقـم ٢٨٥، الغرفة ١٩ ف. وفي هذه المرة بقي الشرطي معي. وقف بيني وبـين مرؤوسـه، الـذي بدا لي كأنه مسؤول عالي الرتبة.

بدأ:" لقد أوقعت نفسك في ورطة سيئة.أنت في هذه المدينة وتعيش بدون إذن بالوجود، وأنا متأكد أنك تعرف أن هذا يسبب أسوأ أنواع العقوبات."

قمت بانحناء سريع.

قلت:" أوافق بشكل كـامل أنـني لا أستطيع أن أعـالج هـذا الموقـف، وسـوف تصبح ورطتي أسوأ. فهل بوسعك أن تحكم علي بالإعدام؟ سـوف أقـدر لـك ذلـك كثيراً!"

خصني المسؤول الرفيع بنظرة رقيقة.

قال بلطف:" أنا أفهم لماذا تقول هذا. ولكن إذا منحته، فمن المحتمل أن يطلب الجميع هذا الطلب. على أي حال، عليك أن تشتري بطاقة موت. هـل تملـك نقـوداً من أجل ذلك؟ إنها تكلف أربعمائة جيلدر."

"كلا، لا أملك مبلغاً كهذا. لكنني سأمنحك كل ما أملك. لدي تـوق كبـير إلى الموت."

ابتسم بغرابة.

"أصدقك. فأنت لست الوحيد في هـذا. لكـن ليـس مـن السـهل المـوت. أنـت مواطن دولة ومرتبط بها جسداً وروحاً. أنا متأكد أنك تعرف ذلك. على أي حال - أرى أنك سجلت نفسك باسم إميل سنكلير. هل أنت سنكلير الكاتب؟"

"نعم، أنا."

"آه، أنا مسرور جداً. آمل أن أقدر على تقديم خدمة لك. أيها الضابط، بوسعك أن تغادر الآن."

غادر الشرطي، ومد لي المسؤول يده وقال بلطـف:" لقـد قـرأت كتبـك بمتعـة كبيرة، وسأحاول أن أساعدك بقدر ما أستطيع. لكن أخبرني، كيف وقعـت في هـذه الورطة؟"

"حسناً، كنت مسافراً فترة طويلة. لقد سافرت في الكون فترة. ربما سنتان أو ثلاث، وبصراحة كنت آمل أن تنتهي الحرب. لكن أخبرني، هل تستطيع أن تحصل لي على بطاقة للموت؟ وسوف أكون ممتناً لك كثيراً."

"ربما أستطيع تدبير ذلك. ولكن قبل أن أرتب أي شيء، يجب أن تملك رخصة حياة. بدونها، ستكون أي خطوة أقوم بها بلا جدوى. سأمنحك رسالة تزكية إلى المكتب رقم ١٢٧. وبضمانة مني ستحصل على رخصة حياة مؤقتة. وهي بالطبع صالحة لمدة يومين."

" آه، هذا أكثر من كاف!"

حسناً!بعد أن تحصل عليها عد إلي".

صافحته.

قلت بهدوء:" هناك شيء آخر. هل أستطيع أن أسألك سؤالاً آخر؟ بوسعك أن تتخيل كم معلوماتي سيئة عن الأحداث الحالية."

"تفضل، تفضل."

"حسناً إذن، أنا مهتم أكثر بمعرفة كيف يمكن أن تستمر الحياة في ظروف كهذه. كيف يتحمل البشر كل هذا؟"

قال:" أنت الآن في موقف سيئ كمدني وبدون أوراق! لم يبق إلا بعض المدنيين. كل من ليس جندياً هو خادم مدني. هذا يجعل الحياة ممكنة الاحتمال لمعظم البشر. وثمة كثيرون سعداء جداً. ولقد أصبحوا بالتدريج معتادين على الحرمان، وحين اضطررنا إلى التخلي عن البطاطا واعتدنا على لب الخشب - وهو

يُحرق قليلاً مما يجعله لذيذاً - اعتقد الجميع أننا لن نقدر على تحمل ذلك. أما الآن فقد تم الأمر بشكل جيد. وهذه هي الطريقة المتبعة في كل شيء."

قلت:"فهمت. بالفعل لم يعد الأمر مدهشاً. لكن هناك شيء لا أفهمه جيداً. قل لي لماذا يمارس العالم كله طاقة هائلة بهذه الطريقة؟ هذا الحرمان، والقوانين، المكاتب والمسؤولون - ما هو الشيء الذي يحميه البشر بالضبط ؟"

نظر السيد إليَّ مندهشاً.

قال هازاً رأسه:"هذه مسألة ما! ألا تعرف أن هناك حرباً، في جميع أنحاء العالم!وهذا ما نحافظ عليه. إنها الحرب. بدون جهود ضخمة كهذه وإنجازات، لا تستطيع الجيوش أن تبقى في ساحات المعركة لمدة أسبوع واحد. سيتضورون جوعاً - لن تقدر على التحمل."

قلت:"نعم، هذا بالتأكيد غذاء للتفكير! إذن الحرب هي الشيء الجيد الذي يُحافظ عليه بكل هذه التضحيات! نعم، ولكن- اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً غريباً - لماذا ترفع من قيمة الحرب؟ هل تستحق فعلاً كل هذا؟ هل الحرب فعلاً شيء جيد؟"

هز المسؤول كتفيه متودداً. لقد رأى أنني لم أفهمه.

قال:" يا عزيزي السيد سنكلير، لقد أصبحت جاهلاً جداً بطرق العالم. ولكن من فضلك ادخل شارعاً واحداً فحسب وتحدّثْ مع الناس. ابذل جهداً قليلاً وحسب لكي تفكر وتسأل نفسك: ماذا تبقى؟ ما الذي يشكّل حياتنا؟ ثم ستُجبر على الفور أن تقول: الحرب هي الشيء الوحيد الذي لا نزال نملكه! المتعة والكسب الشخصي، الطموح الاجتماعي، الجشع، الحب، العمل الفكري - كل هذا لم يعد

يوجد. إن الحرب هي النشاط الوحيد والأوحد الذي نحن ممتنون له. لا يزال يعطينا شيئاً مثل النظام، والقانون، والفكر، والروح في العالم. هل تستطيع أن تفهم ذلك؟"

نعم، الآن فهمت، وشكرت السيد كثيراً.

ثم غادرت الغرفة ووضعت آلياً رسالة التزكية الموجهة إلى المكتب رقم ١٢٧ في جيبي. لم أنو استخدامها. لا شيء الآن مهماً كي أزعج أحد المسؤولين. وقبل أن ينتبهوا إليَّ مرة أخرى ويوبخونني، تحدثت مع النجم الصغير المبارك في داخلي، وأغلقت نبضي، واختبأتُ في ظل دغل، وتابعت رحلتي السابقة دون أن أفكر بالعودة إلى الوطن مرة أخرى.

الأوروبي

أخيراً، أبدى إلهنا رأيـه ووضـع نهايـة للحـرب الدمويـة علـى الأرض مرسـلاً الطوفان الكبير. وبرحمة طهّر مدُّ المياه الكوكب المكتهل من كل ما دنّسه - حقـول الثلج الدموية والجبال الثابتة المكسوة بالمدفعية. ولقد أزال أيضاً الجثـث المتعفنـة، مع أولئك البشر الذين بكـوا عليـها، النـاقمين والمتعطشـين للدمـاء، مـع البائسـين، والجائعين، والمختلين عقلياً.

وبـدأت سمـاوات العـالم الزرقـاء تلقـي نظـرة ودودة علـى الكوكـب المشـع والمتألق.

وبالمناسبة، واصلـت التكنولوجيـا الغربيـة تقدمـها بروعـة إلى النهايـة. طـوال أسابيع اتخذت أوروبا الاحتياطـات وقـاومت، بعنـاد، الميـاه الـتي ترتفـع تدريجيـاً. أولاً،من خلال السدود الضخمة التي بناها ملايين من أسرى الحرب، ثم مـن خـلال الأبنية الصناعية التي أنشئت بسرعة تثير الدهشـة.وفي البدايـة بـدت كأنـها مصـاطب ضخمة، لكنها ارتفعت شيئاً فشيئاً إلى أبراج. وانبعث الحس الإنسـاني بالبطولـة مـن تلك الأبراج، واجتازت الاختبار بصمـود مؤثـر إلى النهايـة. وبينمـا غمـرت أوروبـا وبقية العالم، ظلت الأضواء الكشافة تتلألأ من آخر تلك الأبراج البارزة، مبهرة وغير مشوشة،في الغسق المبلل للأرض الغارقـة، واندفعـت القذائـف مـن المدفعيـة، جيئـة وذهاباً، مشكلة أقواساً جميلة. وقبل يومين من النهاية، قرر قادة القوى المتوسطة أن يعلنوا عرضاً للسلام مع أعدائهم من خلال الإشارات الضوئية.على أي حـال، طلـب

أعداؤهم التفريغ الفوري للأبراج المحصنة التي كانت لا تزال منتصبة، وحتى أكثر أصدقاء السلام تصميماً لا يستطيعون أن يعلنوا أنهم مستعدون للقيام بذلك. وبالتالي، استمر إطلاق النار بين الجانبين حتى الساعة الأخيرة.

ثم غرق العالم كله. والأوروبي الوحيد الباقي على قيد الحياة اندفع في الطوفان على زورق نجاة واستخدم كامل طاقته ليدون أحداث الأيام الأخيرة، وذلك لكي تعرف الإنسانية القادمة أن مسقط رأسه هو الذي صمد أكثر من أعدائه الأخيرين بساعات وبهذا ضمن أكاليل النصر لنفسه.

وعلى نحو مفاجئ، ظهر قارب ثقيل، أسود وعملاق، في الأفق الرمادي واقترب بالتدريج من الرجل المصاب بالإعياء الشديد. وقبل أن يغشى عليه، أراحه التعرف على البطريرك القديم، ذي اللحية الفضية المتموجة، والذي يقف على ظهر المركب المعد للسكنى. ثم اصطاد أفريقي أسود عملاق الرجل من الماء. كان لا يزال حياً وقد استعاد وعيه. ابتسم له البطريرك بود. كان عمله ناجحاً: لقد أنقذ نموذجاً واحداً من كل نوع يحيا على الأرض.

وفيما كان المركب يسير بهدوء مع الريح وينتظر أن تصفى المياه العكرة، أصبحت الحياة مرحة وبهيجة على المركب. كانت الأسماك الضخمة تتبع المركب في مجموعات كثيفة، الطيور والحشرات تدب في أسراب حية، كالحلم، فوق السقف. ولقد فرحت الحيوانات والكائنات البشرية لأنها أنقذت واختيرت من أجل حياة جديدة. وأطلق الطاووس الملون صيحته الصباحية بحدة ووضوح فوق المياه. وضحك الفيل ورش ماء كي يستحم هو وزوجته، وارتفع جذعه عالياً. وجلست السحلية تلمع على العوارض المشمسة. وأخرج الهندي سمكة لامعة من الطوفان

اللانهائي بطعنة سريعة من رمحه. وأشعل الأفريقي النار في الموقد من الخشب الجاف وصفع زوجته السمينة على فخذيها الصاخبين بضربات إيقاعية. وقف الهندوسي نحيلاً ومتصلباً طاوياً ذراعيه وتمتم أشعاراً قديمة لنفسه من أغان عن خلق العالم. أما الرجل الذي من الإسكيمو فقد استلقى يخرج منه البخار تحت الشمس ويتعرق، يضحك من عينين صغيرتين، يقطر منه الماء والدهون، بينما كان يشمه تابير طلق المحيا. أما الرجل الصيني الصغير فقد نجّر عصا رفيعة كان يوازنها بحرص، أولاً على أنفه ثم على ذقنه. وكان الأوروبي يستخدم أدوات كتابته لكي يعد قائمة بالكائنات الحية الحاضرة.

شكلت المجموعات والصداقات، وكلما كان نزاع على وشك الحدوث، يحله البطريرك بتلويح من يده. كان الجميع اجتماعيين وسعداء. أما الوحيد الذي انعزل فهو الأوروبي، الذي شغل نفسه بكتابته.

وحالاً ابتكر البشر الملونون والحيوانات نوعاً جديداً من الألعاب أو مباراة يتنافسون فيها ويظهرون قدراتهم ومواهبهم. كان كل منهم يريد أن يكون الأول، وكان على البطريرك أن يرتب كل شيء. فصل بين الحيوانات الكبيرة والصغيرة، ثم فصل بين الناس، وكان على كل منهم أن يسجل اسم العمل الذي يستطيع أن ينجزه. ثم أخذ كل شخص دوراً.

واستمرت هذه اللعبة الرائعة أياماً كثيرة بما أن كل مجموعة كانت تقاطع باستمرار لعبتها وتركض كي تشاهد مجموعة أخرى. وكان المشاهدون يصفقون بصوت مرتفع لكل أداء عجيب. كم كان هناك من الأشياء الرائعة التي تستحق

الرؤية! عرضت جميع مخلوقات الله مواهبها الكامنة. وكشف غنى الحياة عن نفسه. كيف ضحكوا، وصفقوا، وصاحوا، وقعقعوا، وتشتتوا، وصهلوا!

ركض ابن عرس بروعة، وغنت القبرة بسحر. الديك الرومي المغرور سار بشكل رائع، بينما كان السِّنجاب رشيقاً في التسلق بشكل لا يُصدَّق. الميمون - قرد- قلّد الملاوي، والسعدان قلد الميمون. وكان الراكضون والمتسلقون، السباحون والطيارون يتنافسون بلا كلل، وكان الجميع لا يُغلبون بطريقتهم ولقد منحوا الاعتراف اللازم. كان هناك حيوانات توظف السحر كي تقوم بالعجائب، وحيوانات أخرى تستطيع أن تجعل نفسها خفية. وكان الجميع يميزون بعضهم بعضاً من خلال قوتهم، وكثيرون من خلال مكرهم، وآخرون من الهجوم، وكثيرون من الدفاع. واستطاعت الحشرات أن تحمي نفسها بأن تبدو كالأعشاب، والأخشاب، والطحالب، أو الحجر، وربحت حشرات أخرى ضعيفة التصفيق وسببت هرب المشاهدين من الروائح الرهيبة. لم يُترك أي منها. لم يكن هناك أحد بدون موهبة. نسجت أعشاش الطيور، وكُسيتْ، وضفرت وسوِّرتْ. وكانت الطيور الضارية تستطيع أن ترصد أصغر شيء من ارتفاعات مخيفة.

ونفَّذ البشر أيضاً أعمالهم بطريقة رائعة. ركض الأفريقي الكبير بسهولة ودون جهد على عارضة مرتفعة. وصنع المالاوي دفة لافاً ورقة نخيل ثلاث مرات وقام بالتوجيه والتدوير على لوح خشب صغير. كان هذا يستحق المشاهدة. أما الهندي فقد أصاب أصغر الأهداف بسهم خفيف، ونسجت زوجته حصيراً من نوعين من الكتّان، مما سبب إعجاباً كبيراً. صمت الجميع وقتاً طويلاً ونظروا إلى الهندوسي الذي ظهر وقام ببعض الخدع السحرية. ثم شرح الصيني كيف يستطيع المرء أن

يزيد محصول القمح ثلاثة أضعاف من خلال العمل الشاق ونزع النباتات الفتية ثم زرعها في الفراغات المتوسطة ذاتها.

أما الأوروبي، الذي لم يكن مشهوراً جداً، فقد أثار استياء أقربائه مرات عدة لأنه اكتشف فيهم خطأ وحكم عليهم بطريقة تظهر شعوره بالتفوق. حين أصاب الهندي طائراً في مكان مرتفع من السماء الزرقاء، هز الرجل الأبيض كتفيه مستهجناً وأكد أن المرء يستطيع أن يطلق أعلى من ذلك بثلاث مرات بعشرين غراماً من الديناميت!وحين تحداه الناس كي يبرهن على ذلك، عجز، لكنه قال بالطبع إنه لو كان لديه هذا وذاك وعشرة أشياء أخرى، فإنه بالتأكيد يستطيع أن يفعل ذلك.سخر أيضاً من الصيني وقال إن إعادة زرع نباتات القمح الصغيرة يمكن بالتأكيد أن ينجز من خلال عمل شاق بلا نهاية، لكن عملاً عبودياً كهذا لن يجعل الناس سعداء البتة. ولقد صفق الجميع للصيني حين أكّد أن الناس يصبحون سعداء حين يحصلون على ما يأكلونه ويقومون بواجبهم تجاه الله. هنا، أيضاً، ضحك الأوروبي ساخراً.

استمرت اللعبة المرحة، وفي النهاية كشفت الحيوانات والكائنات البشرية عن مواهبها وقدراتها الفنية. وكان الانطباع الذي تركوه كبيراً ومرحاً.حتى البطريرك ضحك كثيراً وقال مسبحاً:" لعل المياه تنحسر ولعل حياة جديدة تبدأ على هذه الأرض، إذ أن كل خيط ملون في رداء الرب لا يزال حاضراً، ولا شيء ينقص لتأسيس سعادة لا نهائية على الأرض."

وكان الوحيد الذي لم يؤد عملاً فذاً هو الأوروبي، وألح الجميع بقوة طالبين منه أن يخطو خطوته ويقوم بعمله الخاص، لكي يرى الجميع إن كان يستحق أن يتنفس هواء الله الجميل ويبحر في سفينة البطريرك.

ورفض الرجل أن يفعل أي شيء لوقت طويل باحثاً عن الأعذار. وحينئذ وضع نوح نفسه إصبعه على صدره وحذره قائلاً له إنه من الأفضل أن يمتثل.

بدأ الرجل الأبيض:" أنا أيضاً، أنا أيضاً طوَّرتُ موهبة ببراعة كبيرة ومارستها. وعيناي ليستا جيدتين كأعين الكائنات الأخرى، ولا أذناي أو أنفي ويدي. إن موهبتي هي من نوع أرفع. موهبتي هي العقل."

صاح الأفريقي وتبعه الجميع:" بيّن لنا!"

قال الرجل الأبيض بهدوء:" ليس هناك شيء أظهره لكم. لقد أسأتم فهمي. إن عقلي هو ما يميزني عن الآخرين."

ضحك الأفريقي مبتهجاً عارضاً أسنانه البيضاء كالثلج.أما الهندوسي فقد لوى شفتيه ساخراً. وابتسم الصيني بذكاء وبطيبة.

قال ببطء:" عقلك؟ حسناً، أظهر لنا عقلك من فضلك. حتى الآن لم نر أي شيء."

أجاب الأوروبي بفظاظة مدافعاً عن نفسه:" ليس هناك شيء للرؤية. تتألف فرادتي وموهبتي من هذا: أنا أخزن صور العالم الخارجي في رأسي، ومنها أستطيع أن أنتج صوراً جديدة وترتيبات لنفسي فقط.أستطيع أن أتصور العالم كله في ذهني. أي أستطيع خلقه من جديد."

وضع نوح يديه على عينيه.

قال ببطء:" اسمح لي. ولكن ما نفع كل هذا؟ أن تخلق العالم الذي خلقه الله من جديد، ولنفسك فقط داخل رأسك - ما النفع من هذا؟"

صفق الجميع وانفجروا بالأسئلة.فصاح الأوروبي:"انتظروا!" أنتم فعلاً لا تفهمونني. لا تستطيعون إظهار عمل الذهن بسهولة كما تظهرون أي نوع من البراعة اليدوية."

ابتسم الهندوسي.

" نعم، تستطيع يا ابن عمي الأبيض. نعم، تستطيع. أرنا مرة واحدة عمل ذهنك. مثلاً، لنجرب الجمع. لنجر مباراة كي نرى من يستطيع أن يجمع بشكل أفضل! مثلاً: زوجان لهما ثلاثة أطفال، يتزوج كل منهم ويحصل على أسرة. وكل من الأزواج الشبان يحصل على طفل كل عام. كم من الأعوام يجب أن يمر قبل أن يحصلوا على مائة طفل؟"

أصغى الجميع بفضول. بدأوا يحصون بعصبية على أصابعهم. بدأ الأوروبي يحسب. ولكن بعد لحظة أعلن الصيني أنه وصل إلى الحل.

اعترف الرجل الأبيض:" هذا جيد، لكن هذه الأمور تنطوي على المزيد من البراعة. وعقلي لا يستخدم في خدع ذكية كهذه وإنما ليحل مشكلات كبيرة تعتمد عليها سعادة الإنسانية."

شجعه نوح:" آه، هذا يسرّني. إنه بالتأكيد أفضل من جميع المهارات الأخرى إذا استطعت أن تستخدم عقلك للعثور على سعادة للإنسانية. أنت على صواب. قل لنا بسرعة ماذا عندك كي تعلمنا عن السعادة الإنسانية. سنكون جميعاً شاكرين لك."

متلهفين وفاقدين للنَفَس، انتظر الجميع الرجل الأبيض كي يفتح فمه. وحصل الأمر. سيحظى بالاحترام إن استطاع أن يشرح كيفية الحصول على السعادة

الإنسانية. سينسون جميع الكلمات الكريهة التي قالوها عنه، ذلك أنه سيكون ساحراً! لماذا يحتاج إلى فن ومهارة العين، الأذن، واليد؟ لماذا يحتاج إلى العمل الشاق والجمع إن كان يعرف أشياء أخرى كهذه!

والأوروبي الذي كان قد عرض حتى الآن ملامح متكبرة، استاء بالتدريج حين واجهه كل هذا الفضول التبجيلي.

قال بتردد:" ليس هذا خطأي، لكنكم لم تفهموني حتى الآن! لم أقل إنني أعرف سر السعادة. قلت فقط إن ذهني يعمل على مشكلات يؤدي حلها إلى سعادة الإنسانية. وسيمر وقت طويل قبل أن يُنجز هذا، ولا أحد منا سيرى النتائج مُطلقاً. ستفكر أجيال كثيرة بهذه المسائل المعقدة في السنوات الكثيرة القادمة!"

كان الناس يقفون مضطربين وفاقدين للثقة. ما الذي يقوله الرجل؟ حتى نوح نظر جانباً وغضّن جبينه.

ابتسم الهندوسي للصيني، وحين صمت بشكل غير مريح، قال الصيني بطريقة ودية:" يا أخوتي الأعزاء، إن ابن عمنا الأبيض مهرج. يريد أن يقول لنا إن العمل يحدث في رؤوسنا، وأن النتائج ربما ستشاهد فقط في أحد الأوقات من قبل أبناء أبناء أحفادنا. أقترح أن نعتبره مهرجاً. إنه يقول لنا أشياء لا نستطيع أن نفهمها، لكننا نحس جميعاً أن أشياء كهذه، إذا كنا فهمناه حقاً، ستزودنا بفرصة الضحك إلى ما لا نهاية. ألا تشعرون أيضاً بهذا؟ جيد، إذن ثلاث هتافات للمهرج!"

وافق معظمهم وكانوا سعداء لمشاهدة هذه القصة المزعجة تنتهي. على أي حال، غضب البعض وتضايقوا، وبقي الأوروبي وحيداً، دون أي عزاء.

في ذلك المساء، ذهب الأفريقي مع الإسكيمي، والهندي والملاوي إلى البطريرك وتحدثوا إليه:

"أيها الأب المبجل، عندنا مشكلة نود أن نحدثك عنها. نحن لا نحب هذا الأبيض الذي سخر منا اليوم. أطلب منك أن تفكر بالأمر: جميع البشر والحيوانات، كل دب وبرغوث، كل تدرج وخنفساء روث وجميع أنواع البشر، جميعنا لدينا شيء نظهره وبه شرّفنا الله وحمينا حياتنا، وسمونا بها، وزيناها. شاهدنا مواهب عجيبة، وكثير منها كان مضحكاً. ولكن جميع الحيوانات الصغيرة قدمت، على الأقل، شيئاً جيداً وظريفاً، لكن الرجل الشاحب، الذي كان آخر من أنقذ من المياه، لم يكن لديه شيء يقدمه سوى كلمات خاصة وفارغة، وتلميحات، ونكات لم يفهمها أحد. ولم يقدم أية متعة. بالتالي، نطلب منك، أيها الأب العزيز، إن كان صحيحاً السماح لكائن كهذا أن يساعد في تأسيس حياة جديدة على هذه الأرض الغالية. ألن يقود هذا إلى كارثة؟ فقط انظر إليه. عيناه متورمتان، جبينه مليء بالتجاعيد، يداه شاحبتان وضعيفتان، وجهه شرير وحزين. وليس له صوت متألق حين يتحدث. بالتأكيد هناك خطأ فيه. الله يعلم من أرسل هذا الشخص إلى مركبنا!"

رفع البطريرك الحكيم عينيه الصافيتين بطريقة ودية للسائلين وقال بهدوء ولطف مما جعل تصرفه أكثر تألقاً:" أيها الأبناء الأعزاء! أنتم محقون، ومخطئون في آن! وبالفعل لقد قدم الله جوابه قبل أن تطرحوا سؤالكم. بالطبع، يجب أن أتفق معكم - الرجل الذي من أرض الحرب ليس ضيفاً ساراً، ومن الصعب أن نفهم كيف وجب وجود هؤلاء القوم الغرباء هنا. لكن الله، الذي خلق هذا النوع في أحد الأيام، يعرف السبب بالتأكيد. جميعكم تملكون الكثير لكي تسامحوا هؤلاء

الرجال البيض. إنهم الذين دمروا أرضنا المسكينة وجعلوها محكمة جنائية مرة أخرى. لكن انظروا، قدم الرب إشارة عما يعتمل في ذهنه حيال الرجل الأبيض. أنتم جميعاً، أيها الأفارقة، والهنود وسكان الإسكيمو، جميعاً معكم زوجاتكم العزيزات من أجل الحياة الجديدة على الأرض التي نأمل أن نبدأها مرة أخرى حالاً. فقط الرجل الذي من أوروبا وحيد. ولقد أحزنني ذلك وقتاً طويلاً، ولكنني الآن أعتقد أنني أعرف مغزى ذلك. لقد حفظ هذا الرجل لنا كي يكون تحذيراً وباعثاً، ربما هو روح. على أي حال، لا يستطيع أن يولِّد نفسه، إلا إذا انغمس في جدول الإنسانية المتعددة الألوان. لن يُسمح له بأن يدمر حياتكم على الأرض الجديدة. استريحوا مطمئنين!"

خيم الليل، وفي اليوم التالي ظهرت القمة الصغيرة الحادة للجبل المقدس فوق المياه جهة الشرق.

الإمبراطورية

كان هناك في إحدى المرات بلاد ضخمة، وجميلة بيد أنها لم تكن غنية، وكان الناس الذي يعيشون فيها طيبين، وأقوياء، ومتواضعين، وقانعين بنصيبهم. لم تكن هناك ثروة كبيرة أو حياة مسرفة يمكن العثور عليها هنا، ولم يكن هناك جمال وروعة بكثرة. وكانت البلدان المجاورة الأكثر غنى تنظر أحياناً إلى سكان هذه البلاد الكبيرة باستعلاء وشفقة ساخرة.

على أي حال، هناك أشياء يحبُّها البشر لا يستطيع أن يشتريها المرء بالنقود، ويمكن أن تزدهر هذه الأشياء بين بشر هم بطريقة أخرى غير معروفين من أجل أي شيء خاص. وبالفعل، لزدهرت بشكل جيد في هذه البلاد الفقيرة،التي أصبحت،مع مرور الزمن، مشهورة ومحترمة رغم قوتها الهزيلة.وظهرت أشياء كمثل الموسيقى، والشعر، والمعرفة الفكرية، وكما أن المرء لا يطلب أن يكون الحكيم، أو الواعظ، أو الشاعر غنياً، وجميلاً، أو ماهراً في المجتمع، فمع ذلك لا يزال يشرّف هؤلاء البشر بطريقتهم، وهكذا فعل الناس الأكثر قوة الشيء نفسه مع هؤلاء القوم الفقراء والغرباء. هزوا أكتافهم باستهجان حيال بؤسهم ونوعاً ما حيال طريقتهم المشوشة والمملة في القيام بالأشياء في العالم، وتحدثوا بولع عن مفكريهم، وشعرائهم، وعازفيهم.

ورغم أن بلاد الأفكار بقيت بالفعل فقيرة وكان جيرانها يقمعونها دائماً، فقد كانت تولِّدُ جدولاً خصباً مستمراً من الدفء والطاقة الفكرية يتدفق إلى جيرانها والعالم بأسره.

شيء واحد، على أي حال، لا يمكن أن ينسى جعل هؤلاء القوم ضحية لسخرية الغرباء وللمعاناة والألم. ولسنوات لم تستطع القبائل المختلفة الكثيرة لهذه البلاد الجميلة أن تتفاهم مع بعضها بعضاً. كان هناك الكثير من النزاعات والغيرة. وكلما اقترح صفوة هؤلاء القوم فكرة توحيد القبائل والتعاون، كانت فكرة أن إحدى القبائل الكثيرة أو أميرها يمكن أن يصعد فوق الآخرين ويتولى القيادة تبدو كريهة لجميع الناس ولهذا لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق مطلقاً.

وفي إحدى المرات أحرز نصر على أمير أجنبي أخضع البلاد بعنف، فبدا أخيراً كأنه يقدم فرصة مؤاتية لتحقيق الوحدة. لكن القبائل تنازعت مرة أخرى فيما بينها. وقاوم الأمراء التافهون الكثيرون خلق الاتفاقيات، وتلقى أتباع هؤلاء الأمراء منهم الكثير من الامتيازات في صيغة مكاتب، وألقاب، وشرائط صغيرة ملونة بحيث تم إرضاؤهم ولم يميلوا إلى قبول التغيير.

في غضون ذلك، حصلت الثورة الكبرى وانتشرت في جميع أنحاء العالم - مغيّرةً البشرَ والأشياء. نهضت كشبح أو مرض من دخان الآلات البخارية الأولى وحولت الحياة في جميع أرجاء المكان. وامتلأ العالم بالصناعة والعمل. وبدأت الآلات تحكمه وحُرِّكَ باستمرار لكي ينجز أنواعاً جديدة من العمل. بزغت سلالات كبيرة، وذلك الجزء من العالم الذي اخترع الآلات مارس مزيداً من

السيطرة على العالم أكثر من السابق، وتمَّ توزيع ما تبقّى من العالم بين قادته الأقوياء، وكل من افتقد إلى القوة لم يحصل على أي شيء.

حتى البلاد التي هي موضوع هذه القصة تأثرت بموجة التغيير هذه، لكن دورها في كل شيء بقي متواضعاً. وبدا كأن بضائع العالم وُزِّعتْ مرة أخرى، فلم تحصل البلاد الفقيرة على أي شيء.

وعلى نحو مفاجئ أخذت الأمور منعطفاً مختلفاً في البلاد. فالأصوات القديمة التي دعت إلى وحدة القبائل لم تصمت مطلقاً. وظهر رجل دولة عظيم، وجبار في المشهد. ذلك أن نصراً مؤزراً وعظيماً على بلاد مجاورة ضخمة قوّى الأرض برمتها ووحد القبائل فصارت البلاد إمبراطورية عظيمة.لقد استيقظت أرض الحالمين، والمفكرين، والموسيقيين. كانت البلاد رائعة. توحدت وبدأت عملها كقوة مساوية بين شقيقاتها العظيمات الأقدم. في الخارج، في العالم العريض، لم يبق الكثير ليسرق ويُكتسب. ووجدت القوة الفتية أن الحصص قد وُزِّعتْ سابقاً. ولكن روح الآلة، التي هيمنت مؤخراً في هذه البلاد، ازدهرت الآن بشكل يثير الدهشة. فتغيرت البلاد وجميع سكانها بسرعة. أصبحت البلاد عظيمة وثرية، وقوية ومخيفة. اكتسبت المزيد من الثروة، وأحاطت نفسها بحماية من الجنود، والمدافع، والمتاريس تبلغ ثلاثة أضعاف. وحالاً أظهر الجيران الذين ضايقتهم الأمة الفتية إشارات عدم الثقة والخوف، وبدأوا أيضاً يبنون الخطوط الدفاعية ويحصلون على المدافع ويجهزون السفن الحربية.

على أي حال، ليس هذا أسوأ ما في الأمر، ذلك أن جميع البلدان تملك ما يكفي لتحصين جميع جدران الحماية الضخمة هذه، ولم يفكر أحد بالحرب.

سلحوا أنفسهم فحسب" من أجل التأهب فقط" - لأن الأغنياء يحبـون أن يشـاهدوا جدراناً فولاذية حول نقودهم.

وكان الأسوأ هو ما حدث داخل تلك الإمبراطورية. ولقد أدرك هـؤلاء القـوم، الذيـن سُخر منـهم وكُرِّمـوا في العـالم وقتـاً طويـلاً، والذيـن كـانوا منصرفـين إلى المسائل الفكرية وليـس إلى النقـود، أدركـوا أهميـة الحصـول علـى المـال والقـوة. وهكذا بنى الناس وادخروا، طوروا تجارتهم وأقرضوا النقود. وكان كل ما فكروا بـه هو كيفية الغنى السريع، وكل من يملك طاحونة أو دكان حدادة عليه الآن أن يملك مصنعاً بسرعة، وكل من لديه ثلاثة عمـال عليـه أن يحصـل الآن علـى عشـرة. وفي الحقيقة، تمكن كثيرون من توظيـف مئـات وآلاف العمـال. وكلمـا عملـت الأيـدي والآلات بسرعة أكبر، يتجمع المـال بسـرعة أكبر - خاصـة للأفـراد المـاهرين في الجمع.ولم يعد كثير من العمال مساعدين وزملاء في العمل للسـيد، علـى العكـس، عانوا في ظروف من العبودية والعمل الشاق الحقير.

وحدث الأمر نفسه في بلـدان أخـرى. هنـاك، أيضـاً، أصبـح المشـغل مصنعـاً، والمالك حاكمـاً، والعـامل عبـداً. ولـم تسـتطع أي أرض في العـالم أن تتجنـب هـذا المصير. ولكن القدر لعب لعبة وضيعـة علـى الإمبراطوريـة الشـابة، ففيـها انتشـرت الروح الجديدة والقوة في بداية رقيها إلى أمة.لم تكن تملك تاريخاً طويلاً أو ثـروة قديمة. انغمست في تلك الحقبة الجديدة بتهور كطفل فاقد للصبر. ولقد كانت يداها مليئتين بالعمل والذهب.

وبالطبع، نصح بعض الأفراد الشعب وحـذروه مـن أن يسـلك الطريـق الخطـأ. استرجعوا الأوقات القديمة، الشهرة المتواضعة الطريفة للأرض، المهمة الثقافية الـتي

تولتها، جدول الأفكار الروحي المستمر والنبيل، الموسيقى والشعر اللذين وهبتهما للعالم سابقاً. لكن الشعب ضحك وهو يستمتع بسعادة ثروته الجديدة. لقد تغيّر العالم وأخذ مساراً مختلفاً، وإذا كان أجدادهم قد ألفوا قصائد وأعمالاً فلسفية، فقد كان هذا ظريفاً بالفعل، لكن الأحفاد أرادوا أن يظهروا قدرتهم على القيام بأمور أخرى هنا في هذه البلاد. وهكذا مهدوا الأرض واستأصلوا أشجارها كي يبنوا آلاف المعامل، والآلات الجديدة، وسكك الحديد، والسلع، وعند الضرورة، الأسلحة والمدفعية. انسحب الأغنياء من بين بقية الناس. ورأى العمال الفقراء أنفسهم مهجورين وتوقفوا عن التفكير بالقوم الذين كانوا جزءاً منهم. وبدلاً من ذلك، قلقوا أيضاً، فكروا، وناضلوا من أجل أنفسهم. أما الأغنياء والأقوياء، الذين حصلوا على جميع المدافع والبنادق كي تستخدم ضد الأعداء الخارجيين، كانوا سعداء من الاحتياطات التي اتخذوها، ذلك أنه أصبح هناك أعداء داخل البلاد هم أكثر خطراً.

انتهى كل هذا في الحرب العالمية، التي سببت دماراً مريعاً في العالم، الذي نقف الآن بين أطلاله، مرتبكين من صخبه، مصابين بالمرارة من عدم رحمته، ومرضى من جداول دمه التي تتدفق عبر كل أحلامنا.

والحرب، التي بدأت بذهاب أبناء الأمة الفتية المزدهرة إلى المعركة وهم متحمسون، ومعنوياتهم مرتفعة فعلاً، انتهت بانهيار الإمبراطورية التي انهزمت بشكل مريع. فضلاً عن ذلك، طلب المنتصرون تعويضات كبيرة من المهزومين، حتى قبل أن يُناقش السلام. وطوال أيام في النهاية، وفيما كان الجيش المهزوم ينسحب، أجبر الجنود على مراقبة العلامات العظيمة لقوتهم السابقة التي تُنقل في قطارات طويلة

أمام أعينهم من الوطـن إلى أرض الجيـش المنتصـر. وتدفقـت الآلات والنقـود مـن الأرض المهزومة إلى أيدي الأعداء.

في غضون ذلك،استعاد الشعب المهزوم حواسه في لحظة ورطته الكبرى. نفـى قادته وأمراءه وأعلن أنه مستعد لحكم نفسه. وشُكِّلتْ المجـالس مـن الشـعب الـذي أظهر رغبته في التعامل مع مصيبة بلده باستخدام قوّته وعقله.

وهؤلاء القوم، الذين اكتهلوا بعد ذلـك الاختبـار القاسـي، لا يزالـون يجـهلون وجهة طريقهم ومن سيكون قادتهم ومساعدوهم. على أي حـال، القـوى السـماوية، تعرف ذلك، وتعـرف كذلـك لمـاذا أرسـلت الحـرب والمعانـاة لتـهبط علـى القـوم والعالم برمته.

وفي ظلمة تلك الأيام أضيءَ طريق، الطريـق الـذي يجـب أن يسـلكه الشـعب المهزوم.

والإمبراطورية لا تستطيع أن تعود إلى طفولتها مرة أخرى. لا أحـد يسـتطيع. ولا تستطيع أن تتخلى ببساطة عن مدافعها، وآلاتها، ونقودها، وتكتب مـرة أخـرى القصائد وتعزف السوناتات في مدن صغيرة مسالمة. لكنها تستطيع أن تسلك ممـراً يجب أن يسلكه الفرد أيضاً حين تقوده حياته إلى بعـض الأخطـاء ويعـاني مـن ألم عميق.تستطيع أن تتذكر ماضيها القديـم، وميراثـها وطفولتـها، ونضجـها، ونهوضـها وسقوطها، وتستطيع أن تعثر علـى القـوة وهـي تتذكـر كـل شـيء ينتمـي جوهريـاً وبشكل خالد إليها. يجب أن تدخـل في نفسـها، كمـا يقـول الورعـون. وفي نفسـها، ستجد جوهرها غير مدمر، وهذا الجوهر لا يريد أن يتجنب مصيره ولكنه سيؤكده ويبدأ من جديد من صفاتها الأفضل والأعمق التي أعيد اكتشافها.

وإذا سلك هذا الطريق، وإذا سلك المداسون طريق المصير هذا بمشيئتهم وبإخلاص، عندها سيتجدَّدُ شيء كان ينتمي إلى الماضي. سينبعثُ جدول صامت متواصل منه ويخترق العالم، وأولئك الذين لا يزالون أعداء له اليوم، سوف يصغون، في المستقبل، بانتباه إلى هذا الجدول الصامت.

الرسام

فشل الفنان ألبيرت، أثناء شبابه، في تحقيق النجاح والتأثير اللذين يرغب بهما في لوحاته، فانسحب من المجتمع وقرر أن يمتع نفسه وحسب. حاول ذلك لسنوات كثيرة، لكن بدا من الواضح أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك أيضاً. في إحدى المرات، بينما كان يجلس ويرسم لوحة لبطل، واصل التفكير:" هل من الضروري أن تفعل ما تفعله؟ أينبغي أن تُرسم هذه اللوحات؟ أليس جيداً لك وللجميع أن تتنزه وتشرب النبيذ بدلاً من ذلك؟ ألا تشوش نفسك بالرسم، ناسياً من أنت، ومضيّعاً للوقت؟"

لم تكن هذه الأفكار مساعدة له في عمله. ومع مرور الوقت توقف ألبيرت عن الرسم بشكل كامل. بدأ يتنزه ويشرب الخمرة، ويقوم برحلات، لكن القيام بهذه الأمور لم يرضه.

في البداية غلبت عليه فكرة الاتجاه نحو الرسم وكانت له أمنيات وآمال محددة. تذكر كيف شعر ورغب بأن تتطور علاقة جميلة، وقوية بينه وبين العالم، وبأن شيئاً ما قوياً وحيوياً سيتذبذب بلا توقف بينه وبين العالم ويولِّد موسيقى عذبة. لقد أراد أن يعبر عن مشاعره الأكثر عمقاً ويرضيها بأبطاله ومشاهده الطبيعية البطولية وذلك لكي يحكم العالم الخارجي على لوحاته ويقدرها حق قدرها، ويشكره الناس على عمله ويهتمون به.

لكنه لم يحقق أي شيء من هذا. كان ذلك حلماً، ولقد تلاشى بالتدريج وأصبح ضبابياً. ولكن حلم ألبيرت، كان مسافراً في أنحاء العالم أو يعيش وحيداً في أمكنة بعيدة، مبحراً على السفن أو يتجول في المسالك الجبلية، كان يعود متكرراً، مختلفاً عن الحلم السابق، لكنه جميل مثله، قوي ومغر، مرغوب ومشع كما كان في الأصل.

آه، كم تاق إلى الشعور بالتذبذب بينه وبين كل شيء في العالم! وأن نفسَه ونَفَسَ الرياح والبحار متوحدان، وأن الأخوة والقرابة، الحب والقرب، الإيقاع والانسجام ستمتد بينه وبين كل شيء!

لم يعد يرغب برسم لوحات يصور فيها نفسه وتوقه، وما يحضر له الفهم والحب، لوحات تهدف إلى شرح نفسه، وتبريرها، والاحتفاء بها. ولم يعد يفكر بالأبطال والعروض الذين كانوا يعبرون ويصفون وجوده كصورة ودخان. ورغب فقط بأن يشعر بذلك النوسان، ذلك الجدول القوي، تلك الحماسة التي سيتحول هو نفسه فيها إلى لا شيء ويغوص، ويموت، ويولد من جديد. وكان الحلم الجديد فحسب، هذا التوق الجديد، هو ما جعل حياته ممكنة الاحتمال،ومنحها معنى، وسما بها، وأنقذها.

أما أصدقاء ألبيرت، إن كان قد بقي بعضهم، فلم يفهموا تلك الأخيلة جيداً. شاهدوا فقط أن ذاك الرجل يتجه أكثر فأكثر إلى حياة داخل ذاته، وأنه يتحدث بصمت وغرابة أكبر، وسافر كثيراً، ولم يهتم بما كان جميلاً ومهماً للناس الآخرين، ولم يكترث بالسياسة أو العمل، في تصوير المباريات والرقصات، في الأحاديث الذكية عن الفن، أو في أي شيء يمتع أصدقاءه. أصبح شخصاً غريب الأطوار،

أحمق نوعاً ما. كان يجري عبر هواء الشتاء الرمادي والبارد ويتنفس ألـوان وروائـح ذلك الجو. ركض وراء طفل صغير كان يغني لنفسه. كان ينظـر طيلـة ساعات إلى المياه الخضراء، وإلى مسكبة أزهار، أو يشغل نفسه،كما يشغل نفسه قارئ كتاب،في قراءة الخطوط والشقوق في قطعة خشب صغيرة، وفي جذر لفت.

لم يهتم أحد بألبيرت. كـان يعيـش في ذلـك الوقـت بمدينـة صغـيرة في بـلاد أجنبية، وفي صباح أحد الأيام تنزه في أحد الشوارع، وبينما كان ينظر بين الأشجار، شاهد نهراً صغيراً فاتر الهمة، وضفة طينية مرتفعة صفراء، وأدغالاً وأعشاباً شوكية نشرت أغصانها الغبارية فوق انهيالات التربة والأحجار الكئيبة. وعلـى الفـور دوّى شيء في داخله. فوقف ثابتاً وشعر بأغنية قديمة من أزمنـة أسـطورية تـرن ثانيـة في روحه. الطين الأصفر والأخضر الغبـاري،أو النـهر البطـيء، والأجـزاء المرتفعـة مـن الضفة، مزيج ما من الألوان والخطوط، إيقاع ما، فـرادة في الصـورة العشـوائية، كـل هذا كان جميلاً، جميلاً بشـكل لا يُصـدق، مؤثـراً، ومقلقـاً، كـل هـذا تحـدث معـه، وارتبط به. وشعر بذبذبات وباتصال أكثر توقداً بين الغابة والنـهر، بـين النـهر وبينـه، وبين السماء، والأرض، والنباتات. وبدت جميـع الأشـياء كأنـها مرتبـة هنـاك فريـدة ووحيدة، يمكن أن تنعكس في عينه وقلبه وتتوحد معهما في تلك اللحظـة، وحيـث يمكن أن تلتقي وتحيي بعضها بعضاً. كان قلبه هو المكان الذي يستطيع أن يتوحـد فيه النهر والأعشاب، الشجرة والهواء، ويعززان بعضهما بعضاً، ويحتفلان باحتفالات الحب.

وحين كررت تجربته المثيرة نفسها بضـع مـرات، وجـد الرسـام نفسـه مغلفـاً بشعور مجيد من السعادة، الكثيفة والممتلئة كمسـاء ذهـبي أو عطـر حديقـة. ولقـد

تذوقه وكان طيب المذاق وكثيفاً، ولم يعد قادراً على تحمله. كان غنياً جداً، ناضجاً ومليئاً بالتوتر. أيقظه وجعله قلقاً وغاضباً. كان أقوى منه، ولقد مزّقه. وخاف من أن يجره معه، ولم يكن يريد ذلك. كان يريد أن يعيش، أن يعيش أبدية! ولم يكن قد رغب مطلقاً أن يعيش هذا التوتر كما يعيشه الآن.

وفي أحد الأيام كان صامتاً ووحيداً في غرفته وكأنه كان سكران. كانت هناك علبة من الألوان أمامه ولقد وضع قطعة من الكرتون. والآن، للمرة الأولى طيلة أعوام كان يجلس ويرسم من جديد.

وبقيت الفكرة هكذا - " لماذا أنا أفعل ذلك؟". لم تعد الفكرة وباشر الرسم. ولم يكن يفعل أي شيء آخر عدا أن ينظر ويرسم. إما أن يخرج ويضيع في صور العالم، أو يجلس في غرفته ويترك الامتلاء يتدفق بعيداً من جديد. ورسم لوحة بعد أخرى على الكرتون: سماء قوس قزح بمروج، سور حديقة، مقعد في الغابة، طريق ريفي، كذلك بشر وحيوانات، وأشياء لم يرها من قبل، ربما أبطال أو ملائكة، الذين، على أي حال، أصبحوا أحياء كالحائط والغابة.

وحين بدأ يخالط الناس مرة أخرى، عرفوا أنه استأنف الرسم. وجده الناس مجنوناً تماماً، لكنهم عبروا عن فضول لرؤية لوحاته. ولم يرغب بعرضها على أي شخص. لكنهم لم يتركوه بسلام.ضايقه الناس وأجبروه إلى أن منح مفتاح غرفته لأحد معارفه. وكان هو في رحلة. لم يرغب أن يكون حاضراً حين يشاهدون لوحاته.

جاء الناس، على الفور علت الصيحات، لقد اكتشفوا عبقرية مذهلة، شخصاً غريب الأطوار، لكنه شخص باركه الله، واستخدموا أمثالاً لوصفه يستخدمها الخبراء والمتحدثون.

في أثناء ذلك كان ألبيرت قد وصل إلى قرية، استأجر غرفة من المزارعين، وأخرج ألوانه وفرشاته من الحقيبة. ومرة أخرى انطلق بسعادة عبر الأودية والجبال وفي ما بعد فكر بكل ما جربه وشعر به في لوحاته.

وفي أحد الأيام عرف من جريدة أن كثيراً من الناس شاهدوا لوحاته في المنزل. وفي دسكرة وبينما هو يحتسي كأساً من النبيذ، قرأ في الجريدة تقريراً طويلاً متوهجاً عن المدينة الرئيسية. كان اسمه مطبوعاً في أحرف كبيرة في المقدمة، وكان الكثير من كلمات المديح في المقالة. ولكن كلما توغل في القراءة كان يشعر بالغرابة.

" كم يشع اللون الأصفر بروعة في الخلفية في صورة السيدة الزرقاء - تناغم جديد، جسور بشكل لا يصدق.

"إن فن التعبير في اللوحة الزيتية الساكنة مع الورود رائع كذلك. هذا إذا لم نذكر سلسلة الصور الذاتية! بوسعنا أن نضعها مع الروائع العظيمة لفن الصورة السيكولوجي."

غريب! غريب! لم يتذكر أنه رسم لوحة ساكنة فيها ورود، أو سيدة زرقاء، وكل ما عرفه، هو أنه لم يرسم مطلقاً صورة ذاتية. من ناحية أخرى، لم تذكر المقالة الضفة الطينية أو الملائكة، سماء قوس قزح أو اللوحات الأخرى التي أحبها كثيراً.

عاد ألبيرت إلى المدينة. ذهب إلى شقته مرتدياً ملابس السفر. رأى الناس يدخلون ويخرجون. وهناك رجل يجلس عند الباب، وتوجَّبَ على ألبيرت أن يظهر بطاقة لكي يدخل. بالطبع، تعرف على لوحاته. شخص ما علَّق تحتها أسماءً، يجهلها ألبيرت. "صورة ذاتية" كانت مكتوبة تحت كثير منها، وعناوين أخرى. وقف متأملاً لبرهة أمام اللوحات وأسمائها غير المألوفة. ورأى أنه من الممكن منح هذه اللوحات أسماء مختلفة عن السابق. ورأى أنه كشف شيئاً ما في جسور الحديقة بدا للبعض سحابة، وأن شقوق مشهده الصخري يمكن أن تكون وجه شخص لآخرين.

لم تكن كلها مهمة بالتأكيد. لكن ألبيرت كان يرغب أكثر من أي شيء آخر بأن يغادر من جديد بهدوء ويسافر ولا يعود أبداً إلى هذه المدينة.

تابع رسم الكثير من اللوحات ومنحها أسماء عدة، وكان سعيداً بأي شيء ينجزه. لكنه لم يظهر لوحاته لأي شخص.

الكرسي المصنوع من الأماليد

شاب يجلس في عليته المعزولة، يرغب في أن يصير رساماً أكثر مما يرغب في أي شيء آخر، لكن ينبغي أن يتغلب في البداية على بضعة عوائق. لقد كان يعيش في العلية بسلام، وزاد سنه، واعتاد الجلوس لمدة ساعات أمام مرآة صغيرة يجرب رسم الصور الذاتية. كان قد ملأ دفتراً كاملاً بإسكيتشات كهذه، ولقد كان راضياً جداً عن بعضها.

قال بينه وبين نفسه:" لأنني لم أذهب إلى المدرسة، فإن هذا الرسم الأولي جيد، وهناك تجعد ممتع هناك إلى جانب الأنف. وبوسعكم أن تشاهدوا أنني مفكر أو مشابه لمفكر. وكل ما علي أن أفعله هو أن أخفض زاوية فمي قليلاً. وعندها سأحصل على تعبيري الخاص، على كآبة كاملة."

وحين أعاد فحص الرسومات التخطيطية فيما بعد، لم يسره معظمها. كان ذلك مزعجاً، لكنه استنتج أنه أحرز تقدماً ويفرض الآن مطالب أكبر على نفسه.

لم يعش الشاب في العلية المرغوبة، ولم تكن له صداقة جيدة مع الأشياء التي تستلقي وتنتصب فيها . وعلي أي حال، لم تكن علاقة سيئة. لم يسبب لها أذى أكثر مما يفعل معظم الناس. كان لا يكاد يلاحظ الأشياء ولم يكن على ألفة كبيرة معها.

وكلما فشل في رسم صورة ذاتية جيدة، كان يقرأ لبعض الوقت كتباً ويطلع على ما حدث لأشخاص آخرين، بدأوا مثله كفنانين متواضعين وغير معروفين نهائياً ثم أصبحوا مشهورين جداً. كان يحب قراءة كتب كهذه ويقرأ فيها مستقبله.

وفي أحد الأيام كان كئيباً ومهموماً ويجلس في المنزل ويقرأ عن فنان هولندي مشهور جداً. قرأ أن هذا الرسام أصبح مهووساً بهيام حقيقي. وبالفعل، لقد كان مسعوراً ومحكوماً بدافع أن يصبح رساماً مهماً. ورأى الفنان الشاب أن هناك كثيراً من الصفات المشتركة بينه وبين الهولندي. وحين تابع القراءة، اكتشف أيضاً كثيراً من الصفات التي لم تتلاءم معه. وقرأ بين أمور أخرى أنه حين لم يكن الهولندي قادراً على الرسم في الخارج بسبب الطقس السيئ، فقد كان يرسم كل شيء في الداخل، حتى أصغر شيء تصادفه عيناه، بهيام ودون إحجام. مرةً رسم زوجين من الأحذية الخشبية القديمة، ومرة أخرى رسم كرسياً قديما معقوفاً، ومطبخاً فظاً، وخشناً، وكرسي فلاح مصنوعاً من الخشب الطبيعي، بمقعد مضفور من القش، ممزق تماماً. رسم الرسام هذا الكرسي، الذي لن يعتبره أحد يستحق نظرة، بكثير من الحب والإخلاص والهيام والإيمان مما جعله أحد أكثر كراسيه جمالاً. ولقد عثر كاتب سيرة الرسام على كثير من الكلمات الرائعة والمؤثرة لكي يتحدث عن كرسي القش.

وهنا توقف القارئ وفكر. كان ذلك شيئاً جديداً يجب أن يجربه. قرر على الفور - ذلك أنه كان شاباً اتخذ قرارات متهورة - أن يحاكي نموذج هذا المعلم العظيم وأن يجرب هذا الطريق إلى العظمة.

نظر حوله في العلية وأدرك أنه لم يعر بالفعل انتباهاً كبيراً إلى الأشياء التي يعيش بينها. لم يعثر على كرسي ملتو بمقعد مضفور من القش في أي مكان، ولم يكن هناك أي حذاء خشبي. بالتالي اغتم واكتأب مؤقتاً وشعر بالإحباط تقريباً، كما كان يشعر حين يقرأ عن حياة العظماء. ففي تلك الأوقات أدرك أن جميع المؤشرات الصغيرة والمصادفات الهامة التي لعبت أدواراً في حياة الآخرين، لم تظهر في حياته، وسوف ينتظر عبثاً ظهورها. استعاد رباطة جأشه على الفور وأدرك أن مهمته قد حانت الآن ليكون مثابراً ويتابع طريقه الوعر إلى الشهرة. فحص جميع الأشياء في غرفته الصغيرة واكتشف كرسياً من الأماليد يمكن أن يخدمه جيداً كموديل.

جرّ الكرسي بقدميه وقرّبه، برى قلم الرصاص، ووضع دفتر رسومه التخطيطية على ركبته، وبدأ يرسم. وبعد ضربتين خفيفتين، بدا كأنه رسم الشكل بما يكفي، وبدأ يحبّر الخطوط الكثيفة بضربات صلبة وقوية. وجذبه ظل مثلثي عميق في زاوية،فرسمه مليئاً بالقوة، وهكذا تابع إلى أن بدأ شيء يضايقه.

تابع عمله فترة أطول، ثم أبعد دفتر التخطيطات وفحص رسمه التخطيطي بانتباه. قالت له نظرته الأولى إنه فشل في التعبير عن كرسي الأماليد.

وبغضب أضاف خطاً جديداً إلى الرسم التخطيطي وثبت عينيه بتجهم على الكرسي. لكن الرسم ظل غير صحيح. مما دفعه إلى الجنون فصرخ بعنف:"أيـها الكرسي الشيطاني! لم أر مطلقاً وحشاً مزاجياً مثلك!"

صرَّ الكرسي قليلاً وقال برباطة جأش:" نعم، انظر إلي! أنـا كمـا أنـا، ولـن أتغير مطلقاً."

رفسه الرسام بإصبع قدمه فاندفع الكرسي إلى الخلف لكي يتجنب الرفسة وبدا الآن مختلفاً جداً.

فقال الشاب:" أيها الكرسي الأصم، كل شيء فيك محنيٌّ وخاطئ."

ابتسم كرسيُّ الأماليد قليلاً وقـال بـهدوء:" هـذا مـا يُدعـى بـالمنظور، أيـها الشاب."

قفز الرسام وصرخ بغضب: "منظـور! الآن هـذا الكرسـي المـهرج يريـد أن يلعب دور المدرس. المنظور هو قضيتي، لا قضيتك. تذكر ذلك!"

لم يقل الكرسي شيئاً آخر. وضرب الرسام بقدميـه جيئـة وذهابـاً بصخـب لبضع لحظات إلى أن بدأ شخص يدق تحت الأرضية بعصا. كـان يعيـش تحتـه رجل كبير باحث، لم يستطع أن يتحمل الضجة.

جلس الشاب ونظر إلى صورته الذاتية الأخيرة، لكنها لم تسره. ووجـد أنـه بدا كأنه أكثر أناقة وأهمية في الواقع، وكانت هذه هي الحقيقة.

وأراد الآن أن يقرأ كتابه مرة أخرى، لكن كان هناك المزيد في الكتاب عن كرسي الهولندي القشية، مما أزعجه. وشعر بأن الكاتب بالغ في الحديث عنه، وفي النهاية...

بحث الشاب عن قبعته الخاصة بالفنان وقرر الخروج. وتذكر أنه صدم منذ وقت طويل بحقيقة أن الرسم لم يكن مجزياً جداً. فلا يواجه المرء سوى الإزعاج والخيبات، وفي النهاية لا يستطيع حتى أفضل فنان في العالم أن يصور إلا السطح البسيط للأشياء. وبالنسبة إلى رجل يحب مظاهر الحياة العميقة، فهذه ليستْ مهنة له على المدى الطويل. ومرة أخرى فكر جدياً، كما فعل في كثير من الأوقات، بإتباع ميل أبكر وأن يصبح كاتباً بدلاً من رسام. بقي كرسي الأماليد في العلية. كان متأسفاً أن سيده الشاب قد رحل، وحداه أمل بأن تتطور علاقة ظريفة بينهما في النهاية. كان يحب أحياناً أن ينطق كلمة، ويعرف أنها تنطوي على أشياء قيّمة لتعليم شاب. ولكن لسوء الحظ لم يحدث شيء من هذا.

السوسن

اعتاد أنسيلم في ربيع طفولته أن يركض بمرح في الحديقة الخضراء. ولقد دعيت إحدى أزهار أمه السوسنة الزرقاء، وكان مولعاً بها وحدها. كان يضغط خده على أوراقها الخضراء المتألقة والطويلة، ويلمس رؤوسها الحادة بأصابعه ويشعر بها، ويشم ويستنشق أزهارها الرائعة. كانت صفوف طويلة من الأصابع الصفراء تنهض من المركز الأزرق الشاحب وتقف منتصبة. وبينها ممر خفيف يجري عميقاً إلى الكأس - كأس الزهرة - وإلى اللغز الأزرق البعيد للأزهار. كان يحب هذه الزهرة كثيراً ويحدق داخلها لحظات في النهاية. وأحياناً يتخيل الأعضاء الصفراء المرهفة كسياج ذهبي ينتصب في حديقة ملك، وأحياناً أخرى تبدو كأنها صف مزدوج من أشجار الحلم الجميلة، لا تستطيع أية ريح أن تجعلها تميل. أما الممر الغامض إلى الأعماق الداخلية فقد عبر بينها، متشابكاً مع شرايين حية كانت مرهفة كالزجاج. ولقد انتشرت القبة بضخامة، وضاع الممر عميقاً، بلا نهاية، بين الأشجار الذهبية في الكهوف. وفوق الممر انحنت القبة البنفسجية بمهابة ونشرت ظلالاً سحرية رقيقة فوق المعجزة الصامتة المتوقعة. كان أنسيلم يعرف أن هذا شهر الزهرة، أن قلبها وأفكارها تعيش خلف النتوءات الصفراء في الكهف الأزرق، وأن نفسها وأحلامها تتدفق داخلاً وخارجاً في هذا الممر المجيد المتألق ذي الشرايين الزجاجية.

وإلى جانب الأزهار المتفتحة الكبيرة وقفت أزهار صغيرة لم تتفتح بعد. كانت على أفرع صلبة وناضجة في كؤوس صغيرة بجلد أخضر ضارب إلى السمرة. وفرضت البراعم الفتية نفسها بهدوء وقوة من كؤوسها، مكسوة بشدة في لون أخضر خفيف وأرجواني. ثم نجح البنفسج الفتي العميق في الظهور منتصباً ورقيقاً، متدحرجاً في نقاط رائعة. وكان بوسع المرء أن يرى شرايين ومئات الخطوط على تلك التويجات الملتفة بإحكام.

وفي الصباح، كلما خرج أنسيلم من المنزل، تنتظره الحديقة. كانت دائماً هناك ودائماً جديدة. إذا كانت هناك في الأمس النقطة الزرقاء الصلبة لزهرة تلتف بإحكام وتنظر إلى الخارج من قشرة خضراء، فاليوم تتحول إلى تويج يتدلى نحيلاً وأزرق كالسماء،له لسان وشفة، باحثاً ومتحسساً شكله وقوسه، الذي كان يحلم به طويلاً. وفي القاع، حيث يكون منخرطاً في صراع هادئ مع غلافه، كنبتةٍ صفراء مرهفة بشرايين متألقة، يستطيع المرء أن يحس، أنه كان يفتح ممره إلى هاوية عطر الروح البعيدة. ربما سيتفتح ظهراً، أو في المساء. ستمتد خيمة حريرية زرقاء فوق غابة الحلم الذهبية، وستنبعث أحلامها الأولى، وأفكارها، وأغانيها، بصمت، من الهاوية السحرية. ثم يأتي يوم لا يمتلئ فيه العشب إلا بنبات الجريس. ثم يأتي يوم آخر يغلف فيه نغمٌ وعطرٌ جديدان الحديقة على نحو مفاجئ. وتتدلى زهرة الشاي الأولى، ناعمة وحمراء ضاربة إلى الذهبي، فوق الأوراق القرمزية المغمورة بالشمس. ثم يأتي يومٌ يغيب فيه السوسن الأزرق ويتلاشى. ويغيب الممر ذو السياج الذهبي الذي يقود بلطف

إلى الألغاز العطرية. تقف أوراق متصلبة حادة وباردة كالغرباء. لكن ثمر العليق الأحمر ينضج على الأغصان، وتطير فراشات جديدة مذهلة بحرية ومرح فوق الأزهار النجمية، وهي فراشات بنية ضاربة إلى الحمرة بظهور كعرق اللؤلؤ، وفراشات تشبه الصقور أجنحتها كالزجاج.

تحدث أنسيلم مع الفراشات والحصى. صادق الخنافس والعظاءات، وروت له الطيور قصصاً. وأراه السرخس بشكل سري البذور البنية التي جُمعتْ وخُزنتْ تحت سقف الأوراق العملاقة. وأصبحت قطع الزجاج الخضراء المتألقة التي عكست أشعة الشمس، بالنسبة إليه، قصوراً، وحدائق، وغرف كنوز متلألئة. إذا ذهبت الزنابق، يتفتح الكبوسين - أبو خنجر - وإذا ذوت أزهار الشاي، فإن العليق يصبح بنياً. كان كل شيء يتقلّب، يأتي ويذهب دائماً، يختفي ويظهر في فصله. حتى الأيام الغريبة المخيفة، حين تصخب الريح الباردة في غابة الصنوبر وتقعقع الأوراق الذاوية شاحبة وميتة في الحديقة كلها، حتى هذه الأيام كانت تحضر معها أغنية أخرى، تجربة، أو قصة، إلى أن يستقر كل شيء من جديد. كان الثلج يتساقط خارج النوافذ. وملائكة بأجراس فضية تطير في المساء، وتفوح القاعة والأرضية برائحة الثمار المجففة. ولم تنطفئ الصداقة والثقة مطلقاً في ذلك العالم الخيّر، وحين شعت زهرات اللبن الثلجية بشكل غير متوقع قرب أوراق اللبلاب وطارت العصافير المبكرة إلى ارتفاعات زرقاء جديدة، بدا وكأن كل شيء كان هناك طول الوقت، إلى أن لاحت في أحد الأيام، مرة أخرى،

النقطة الأولى الضاربة إلى الزرقة مـن فـرع الرايـة الزرقـاء، غـير متوقعـة مطلقـاً وتماماً كما كانت ومرغوبة بشكل مساو.

كان كل شـيء جميـلاً ومألوفـاً، وصديقـاً لألبـيرت، لكـن اللحظـة الأكـثر مباركة وسحراً للصبي تأتي، كل عام، حين تظهر أول راية زرقاء. ومرة في حلم طفولته المبكرة، قـرأ كتـاب العجـائب للمَـرة الأولى في كأسـها. كـان عطرهـا وظلال زرقتها العديدة والمتموجة، بالنسبة إليـه، النـداء والمفتـاح لخلـق العـالم. رافقته الراية الزرقاء طول أعوام براءته كلـها. ولقـد كـانت تجـدد نفسـها في كـل صيف، وتصبح أكثر غنى بالسر وأكـثر تأثـيراً. هنـاك أزهـار أخـرى لهـا أفـواه، أيضاً. وثمة أخرى تبث عطراً وأفكاراً، وأخرى تغري النحل والخنـافس لتدخـل إلى غرفها العذبة. لكن الفتى عبد الراية الزرقاء - السوسن - أكثر من أية زهرة أخرى، وصارت أكثر أهمية له. كانت رمز ونمـوذج كـل شـيء يستحق التـأمل وكل ما هو معجز. حين ينظـر في كأسـها، ويستغرق في أفكـاره، متبعـاً ذلـك الممر الحلمـي بين الشـجيرات الصفـراء العجيبـة نحـو العمـق الغسـقي داخـل الزهرة، حينها تنظر روحه من البوابة حيث يصبح المظهر لغـزاً والرؤيـة شـعوراً سبقياً. وأحياناً في الليل كان يحلم بكأس الزهرة ويراه ينفتح بشكل ضخم أمامه كبوابة قصر سماوي، فيدخـل راكبـاً حصانـاً أو يطـير علـى الإوز، والعـالم كلـه يركب ويطير وينزلق بلطف معه، مشـدوداً بالسحر إلى الهاويـة المجيـدة حيـث يتحقق كل ما يتوقعه المرء ويشعر به.

إن جميع الظواهر على الأرض هي رموز، وجميع الرموز بوابات مفتوحة تستطيع أن تدخل منها الروح، إذا كانت مستعدة، إلى أعماق العالم، حيث أنا وأنت واحدٌ ليلاً ونهاراً. يصادف الجميع الباب المفتوح في أمكنة متفرقة في مجرى الحياة، ويرى الجميع، في وقت أو آخر، أن كل ما هو مرئي رمزي، وأن الروح والحياة الأبدية تعيشان خلف الرمز. وبالطبع، قلة من الناس تدخل البوابة وتهجر الظاهرة الجميلة للعالم الخارجي إلى الواقع الداخلي الذي يحدسونه.

وهكذا ظهر للفتى الشاب أنسيلم أن كأس زهرته مفتوح، أنه سؤال صامت تسير روحه نحوه متوقعة جواباً مباركاً. ثم شدّه حشد الأشياء الجميلة بعيداً مرة أخرى، في محادثات وألعاب مع الأعشاب والأحجار، والجذور والأغصان، والحيوانات، وجميع مظاهر العالم الصديقة. وغالباً ما كان ينساق ويستغرق في تأمل عميق لنفسه. كان يستسلم لمواصفات جسده العجيبة، ويشعر، وعيناه مغمضتان، ببلعه، وغنائه، وبالأحاسيس الغريبة وهو يتنفس، وبالمشاعر والتخيلات في فمه وحنجرته. وهناك تلمّس الممر أيضاً والبوابة التي تستطيع الروح أن تسافر من خلالها إلى روح أخرى. ومندهشاً لاحظ الأشكال الملونة ذات المغزى والتي غالباً ما ظهرت له في الظلمة الأرجوانية حين يغمض عينيه، ببقع وأنصاف دوائر من الزرقة والحمرة العميقة والخطوط الزجاجية البراقة فيما بينها. وأحياناً كان أنسيلم يجرب صدمة سعيدة ومؤثرة وهو يشعر بمئات الروابط المعقدة بين العين والأذن، الشم والذوق، وباللحظات الجميلة العابرة،

والأصوات، والأنغام، وأحرف الأبجدية المرتبطة، والشبيهة بالأحمر والأزرق، بالصلب والناعم، أو كان يندهش، حين يشم نبتة أو لحاء أخضر مقشوراً، من التقارب الغريب بين الشم والذوق وكيف ينصهران أحياناً ويتوحدان.

يشعر جميع الأطفال بهذا الشعور، رغم أنهم لا يشعرون به بالتوتر والحساسية نفسهما. ولقد تلاشى هذا في كثير منهم، وكأنه لم يوجد مطلقاً، حتى قيل أن يبدأوا بتعلم قراءة الأبجدية. وبالنسبة لآخرين، يبقى لغز الطفولة قريباً منهم فترة طويلة، ويأخذون معهم منه بقية وصدى إلى الأيام التي يشيب فيها شعرهم ويكتهلون. إن جميع الأطفال، طالما أنهم يعيشون في اللغز، هم مشغولون باستمرار، في أرواحهم، بالشيء الوحيد المهم، الذي هو أنفسهم وعلاقتهم الغامضة مع العالم الذي حولهم. أما الباحثون والحكماء فيعودون إلى تلك الأمور حين ينضجون. وعلى أي حال، إن معظم البشر ينسون، ويغادرون إلى الأبد ذلك العالم الداخلي لما هو هامٌّ وحقيقيٌّ في أوقات مبكرة جداً من حياتهم. وكأرواح ضائعة يتجولون طول حياتهم في المتاهة المتعددة الألوان للمشكلات، والرغبات، والأهداف، ولا شيء منها يقطن في كينونتهم العميقة أو يقودهم إلى جوهرهم العميق ووطنهم.

جاءت فصول صيف وخريف طفولة أنسيلم بهدوء وذهبت دون أن تصدر صوتاً. مرة بعد أخرى، تفتحت أزهار اللبن الثلجية، والبنفسج، والزنابق، والعناقية، والورود، ثم ذبلت، جميلة وكريمة كالعادة. جرب ذلك معها. تحدثت إليه الأزهار والطيور، وأصغت إليه الأشجار والينابيع، وبطريقته القديمة المعتادة،

أخذ أحرفه الأولى المكتوبة، ومشكلاته الأولى مع الأصدقاء، إلى الحديقة، إلى أمه، إلى الأحجار البراقة المتعددة الألوان التي إلى جانب مساكب الأزهار.

وفي أحد الأوقات جاء ربيع مختلفٌ عن الفصول الأخرى السابقة. غنى الشحرور، لكن أغنيته كانت غير الأغنية القديمة. أزهر السوسن الأزرق، لكن لم يكن هناك أحلام أو أشخاص حكاية خرافية يدخلون ويخرجون من ممر كأسها ذي السياج الذهبي. وضحكت ثمار الفريز من ظلالها الخضراء، وومضت الفراشات وهي تتعثر فوق الزنابق العالية، ولكن لا شيء كان كما في السابق. وكان الفتى مهتماً بأمور أخرى، ولقد حدثت بينه وبين أمه خصومات عدة. وهو نفسه لم يعرف ما الأمر، أو لماذا يستمر في إزعاجه. ولقد شاهد أن العالم قد تغيّر وصداقات الأزمنة الأولى قد انحلت وتركته وحيداً.

مر عام مثل هذا، ثم آخر، ولم يعد أنسيلم طفلاً. أضجرته الأحجار الملونة البراقة التي حول مساكب الأزهار. كانت الأزهار صامتة، لقد سلكت روحه طريقاً ملتوياً قاسياً، وتلاشت المتع القديمة وذوت.

اندفع الشاب بتهور إلى الحياة التي بدت له الآن كأنها بدأت حقاً. تلاشى عالم الرموز ونُسيَ. وأغرته أمنيات وممرات جديدة. كانت هالة الطفولة لا تزال ترى في عينيه الزرقاوين وشعره الناعم. علي أي حال، لم يقدّر كل ما ذكره بها. حلق شعر وقصّره، وتحلى بوضع دنيوي وجريء قدر الإمكان. وتابع مزاجه تقلبه وهو يندفع عبر أعوام البلوغ المخيفة، أحياناً يكون طالباً مجداً وصديقاً جيداً، وفي أحيان أخرى يبدو وحيداً وخجولاً. وحين يتناول الكحول يصبح

عنيفاً وصاخباً. ولقد أجبر على مغادرة المنزل ولم يشاهده إلا حين كان يعود لرؤية أمه في زيارات قصيرة. لقد تغيّر، وكبر، وبدأ يلبس جيداً. يحضر معه الأصدقاء، والكتب،وأشياء أخرى مختلفة، وحين سار في الحديقة القديمة، بدت له صغيرة وصامتة وهو ينظر إليها بشرود. لم يعد يقرأ قصصاً في العروق الملونة للأحجار والأوراق، ولم يعد يشاهد الله والأبدية يعيشان في الأزهار الغامضة للسوسن الأزرق.

ذهب أنسيلم بعيداً إلى المدرسة الثانوية ثم إلى الجامعة. وعاد إلى مدينته الأم بقبعة حمراء ثم بواحدة صفراء، بزغب على شفته العليا ولحية فتية فيما بعد. كان يحضر معه كتباً مؤلفة بلغات أجنبية، وفي أحد المرات أحضر كلباً. وفي الحال، بدأ يحمل قصائد سرية في حقيبة جلدية في جيبه الصدري، ونسخاً من أمثال قديمة، وصور فتيات جميلات ورسائلهن. عاد من رحلات إلى بلدان أجنبية وقام برحلات على سفن ضخمة عبر البحر. عاد وكان مدرساً فتياً، يرتدي قبعة سوداء وقفازاً أسود، وكان الجيران القدامى يميّلون قبعاتهم له حين يمر وينادونه بروفيسوراً، رغم أنه لم يصبح واحداً بعد. ومرة أخرى ارتدى ثياباً سوداء، وبدا نحيلاً وكئيباً، وهو يسير خلف عربة الموتى البطيئة التي كانت أمه تستلقي عليها في تابوتها المزيّن بالأزهار. ونادراً ما عاد بعد ذلك.

عاش أنسيلم في مدينة كبيرة، حيث كان يعلم التلاميذ وعُرف كمدرس مشهور. كان ينطلق، ويقوم بنزهات، ويقف ويجلس كالناس الآخرين في العالم. يرتدي قبعة رائعة ومعطفاً، وكان جاداً وودوداً، بعينين متوقدتين وأحياناً

متعبتين. كان سيداً ومدرساً، كما أراد أن يصير تماماً. ولكنه بدأ يشعر الآن كما كان يشعر حين انتهت طفولته. وعلى نحو مفاجئ شعر بصدمة عبور كثير من الأعوام التي تركته يقف وحيداً، غريباً وساخطاً، وسط العالم الذي جاهد طويلاً كي يصل إليه. ولم يكن سعيداً كبروفيسور، ولم يرتح في أعماقه حين كان يحييه الناس في المدينة أو الطلاب الذين أظهروا له احتراماً عميقاً. بدا كل شيء بليداً ويخلو من الحياة، ومرة أخرى ابتعدت السعادة وصارت في المستقبل، وبدا الطريق إليها حاراً ومغبراً وعادياً.

وفي أثناء ذلك الوقت قام أنسيلم بزيارات متكررة إلى منزل صديق شعر بجاذبية نحو شقيقته. ولم يعد يشعر بسهولة الجري وراء الوجوه الجميلة. هنا، كذلك، تغيّر، وشعر بأن السعادة يجب أن تأتي إليه بطريقة ما خاصة، وأن لا تنتظره خلف جميع النوافذ. أحب شقيقة صديقه كثيراً، وغالباً ما اشتبه بأنه حقاً يحبُّها. لكنها كانت فتاة غير عادية، فكل حركة من حركاتها وكلماتها كانت فريدة ولها لونٌ خاصٌ، وهكذا لم يكن دائماً من السهل أن يواكبها ويعثر على الإيقاع نفسه. أحياناً في المساء، حين يسير أنسيلم جيئة وذهاباً في شقته المعزولة ويصغي بانتباه إلى وقع خطواته التي تولد صدى في الغرف الخالية، كان يتجادل مع نفسه حول امرأته. كانت أكبر سناً من الزوجة التي تمناها، متفردة، وستكون الحياة معها صعبة ولن يكون من السهل أن يتابع أهدافه البحثية في الوقت نفسه، ذلك أنها لا تحب أن تسمع أي شيء عن الدراسات الأكاديمية. وأيضاً لم تكن قوية أو تتمتع بصحة جيدة، ولم تتحمل الحفلات

والرفقة جيداً. كانت تفضل أن تعيش مع الأزهار والموسيقى، وأن تحمل كتاباً، في عزلة تامة. كانت تنتظر شخصاً يأتي إليها، ولقد تركت العالم يأخذ مجراه. أحياناً تكون هشة وحساسة وحين يحدث أي شيء غريب لها، سرعان ما تنفجر بالبكاء. وأحياناً تتوهج بصمت في عزلة سعيدة، وكل من يرى ذلك يشعر كم من العسير منح شيء ما لهذه المرأة الجميلة والغريبة، وأن يعني شيئاً ما لها. وأحياناً كان أنسيلم يظن أنها تحبه، وفي أحيان أخرى يبدو له أنها لا تحب أي شخص. وظهر أنها رقيقة فحسب وودودة مع أي شخص ولا تريد من العالم سوى أن تُترك بهدوء. على أي حال، كان يريد المزيد من الحياة، وإذا كان عليه أن يتزوج، فينبغي أن تكون هناك حياة وإثارة وضيافة في منزله.

قال لها:" آيريس، عزيزتي آيريس لو أن العالم كان مرتباً بشكل مختلف! لو لم يكن هناك أي شيء البتة سوى عالم جميل، لطيف من الأزهار، والأفكار، والموسيقى، عندئذ لن أرغب بأي شيء سوى أن أكون معك طول حياتي، كي أصغي لقصصك، ولأقاسمك في أفكارك. إن اسمك يجعلني أشعر بالراحة. آيريس اسمٌ رائع. لكنني لا أعرف بماذا يذكرني."

أجابت:" بالتأكيد تعرف أن زهرة الراية الزرقاء تدعى آيريس- السوسن."

أجاب، شاعراً بعدم الارتياح:"نعم، بالطبع أعرفها، وهي جميلة جداً. ولكن أينما تلفظت باسمك، يبدو وكأنه يذكرني بشيء آخر لا أعرف ما هو، يبدو كأنه مرتبط بذكريات هامة، بعيدة، وعميقة الغور، ولكنني لا أعرف ما هي ولم أعثر على مفتاح اللغز."

ابتسمت آيريس له وهو يقف هناك يائساً، حاكاً جبينه بيده.

قالت لأنسيلم بصوتها الخفيف كصوت طائر:" هكذا أشعر، كلما تنشقتُ زهرة. ثم يقول لي قلبي في كل مرة، أن ذكرى شيء في غاية الجمال والقيمة مرتبطة بالعطر، شيء ما كان لي منذ زمن طويل لكنه ضاع. وينطبق الأمر نفسه على الموسيقى، والقصائد في بعض الأحيان.- يومض شيء ما على نحو مفاجئ، فقط للحظة، وكأنني رأيت على الفور منزلي الضائع في الوادي بالأسفل، ثم على الفور يختفي ويُنسى. يا عزيزي أنسيلم، أعتقد أننا على الأرض من أجل هذا الهدف، لكي نتأمل، ونبحث، ونصغي لأصوات بعيدة ضائعة، ووطننا الحقيقي يقع وراءها."

" لقد صغت كل هذا بجمال واضح!"- مدحها أنسيلم، وشعر بشيء ما يرتعش في صدره ويؤلمه، وكأن بوصلة مخبأة هناك كانت تشير بإلحاح إلى هدفها البعيد.

لكن ذلك الهدف كان مختلفاً غاية الاختلاف عن الهدف الذي ينشده، فسبب له هذا ألماً. هل يستحق الأمر أن يقامر بحياته في أحلام وهو يطارد حكايات خرافية جميلة؟

وفي أحد الأيام، بعد عودة أنسيلم من رحلة قام بها وحيداً، وجد الجو الفاسد في مكتبه العاري بارداً وضاغطاً فاندفع إلى منزل صديقه وطلب من آيريس الجميلة يدها.

قال لها:" آيريس، لا أريد أن أتابع العيش هكذا. كنت دائماً صديقتي الجيدة. يجب أن أخبرك بكل شيء. يجب أن أتزوج، وإلا ستكون حياتي فارغة وبلا معنى. ومن سأتمنى زوجة سواك، يا زهرتي العزيزة! هل تقبلين يا آيريس؟ سيكون لديك أزهار، بمقدار ما أجد. ستملكين أجمل حديقة. هل ستأتين وتعيشين معي؟"

نظرت إليه آيريس طويلاً، وحدقت في عينيه بهدوء . لم تبتسم أو تحمر وهي تجيبه بصوت حازم:

" لست مندهشة من طلبك يا أنسيلم. فأنا أحبك، رغم أنني لم أفكر مطلقاً بأن أكون زوجة لك. لكن انظر، يا صديقي، سوف أفرض مطالب كثيرة على الرجل الذي يتزوجني. وهي مطالب أكثر من التي تطلبها نساء أخريات. لقد عرضتَ عليَّ أزهاراً، وقصدك جيد. لكنني أستطيع أن أعيش بلا أزهار ودون موسيقى كذلك، أستطيع أن أتخلى عن كل هذه الأمور إذا اضطررت لذلك. لكن هناك شيئاً لا أقدر أن أتخلى عنه: لا أقدر أن أحيا مطلقاً، حتى ليوم واحد، إذا لم تكن الموسيقى في قلبي وفي جوهر كل ما أقوم به. وإذا كان عليّ أن أعيش مع رجل، إذن، ينبغي أن يكون رجلاً تتناغم موسيقاه الداخلية في توازن مرهف مع موسيقاي، ويجب أن تكون رغبته هي أن يجعل موسيقاه نقية وذلك لكي تمتزج بروعة مع موسيقاي. هل تستطيع أن تفعل ذلك، يا صديقي؟ وإذا فعلت ذلك، فعلى الأرجح لن تنجز الشهرة ولن تحصد المزيد من الأوسمة. سيكون منزلك هادئاً، والتجاعيد التي رأيتها على جبينك طيلة سنوات كثيرة

يجب أن تُمحى. آه، يا أنسيلم، هذا لـن يعمـل. انظـر، أنـت أحـد أولئـك الذيـن يجب أن يدرسوا وذلك كي يظهر المزيد من التجاعيد على جبينك، ويجـب أن تخلق باستمرار مضايقات لنفسك. وكل ما أعنيه وما هو أنـا، حسـناً، يمكـن أن تحبه بالتأكيد وتجده جميلاً، لكنه مجرد لعبة جميلة، كمـا هـي لمعظـم النـاس. أصغ إليَّ جيداً، إن كل ما ترى أنه لعبة هو الحياة نفسها بالنسبة إلي ويجـب أن يكون الشيء نفسه بالنسبة إليك، وكل ما يقلقك وكل ما تكـدح مـن أجلـه، أراه لعبة، ولا يستحق المرء أن يعيش من أجلـه. وأنـا لـن أتغـير يـا أنسـيلم، لأنـني أعيش وفقاً لقانون في داخلي. هل ستكون قادراً على التغيّر؟ وسيكون عليك أن تصبح مختلفاً غاية الاختلاف، إذا أصبحت زوجة لك."

وقف أنسيلم غير قادر على التفوه بكلمة واحدة، ذلـك لأنـه كـان مصعوقـاً من قوة إرادتها، التي ظنها ضعيفة ونزويـة. كـان صامتـاً، ودون أن يـدرك ذلـك، سحق زهرة أخذها عن الطاولة بيده المرتجفة.

حين أخذت آيريس الزهرة من يده بلطـف، شـعرت أن في قلبـه مـا يشـبه التأنيب الحاد، لكنها عندئذ اتسمت بتألق وحب وكأنها عثرت، علـى نحْـوٍ غـير متوقع، على طريق يقود خارج الظلام.

قالت بنعومة، محمرة من الخجل:" لدي فكرة. قد تجدهـا غريبـة. سـتبدو لك كأنها نزوة. لكنها ليست كذلك. هل تريد أن تسمعها؟ وهـل سـتوافق علـى إتباعها وتسمح لها أن تقرر كل شيء بيني وبينك؟"

دون أن يفهمها، نظر أنسيلم إلى آيريس نظرة قلقة وبدت ملامحه شاحبة. أجبرته ابتسامتها على أن يثق بها، فوافق.

قالت آيريس وهي تكتسي بالجدية بسرعة كبيرة:"سأكلفك بمهمة."

أذعن صديقها:" حسناً، افعلي ذلك. هذا حقك."

قالت:" أنا جادة في الأمر. وهي كلمتي الأخيرة. هل ستقبلها كما تخرج مباشرة من قلبي دون أن تجادل أو تساوم حولها، حتى ولو لم تفهمها مباشرة؟"

وعد أنسيلم. ثم توقفت وقدمت له يدها وهي تقول:" لقد قلت مرات عدة أنه كلما نطقت اسمي فهو يذكرك بأمر نسيته، أمر كان مرة هاماً لك ومقدساً. هذه علامة، يا أنسيلم، وهذا هو ما شدّك إليّ طوال تلك السنوات. وأعتقد كذلك أنك أضعت ونسيت شيئاً هاماً ومقدساً في روحك يجب أن يتم إيقاظه من جديد قبل أن تستطيع العثور على سعادتك وتحظى بمصيرك. وداعاً، يا أنسيلم! أنا أقدم لك يدي وأطلب منك الرحيل والعثور على ما هو في ذاكرتك ويرتبط باسمي. وفي اليوم الذي تعاود اكتشافه، سأصبح زوجتك وأذهب معك حيث تريد، وستكون رغباتك هي رغباتي."

فزع أنسيلم وتشوش وأراد أن يقاطعها ويوبخها على طلبها النزوي، ولكن بنظرة واحدة صافية، حذرته وذكرته بوعده، فلزم الصمت. أخذ يدها وعيناه تنظران إلى الأسفل، ضغطها على شفتيه، وغادر.

تولى أنسيلم وأكمل مهمات كثيرة في حياته، لكن لم تكن أي منها غريبة وهامة ومثبطة كهذه. يوماً بعد يوم كان يتجول ويفكر بها إلى أن تعب، وأحياناً كان يصل إلى نقطة حيث يلعن المسألة كلها ويحاول بغضب ويأس أن يطردها من ذهنه معتبراً أنها نزوة امرأة. ولكن حينئذ يعارض ذلك شيء عميق في داخله، ألم طفيفٌ وغامضٌ، تحذير خفيف لا يكاد يُسمع. وهذا الصوت الناعم الذي في قلبه سلّم أن آيريس على صواب، وكان طلبه مشابهاً لطلبها.

لكن هذه المهمة كانت صعبة جداً على الرجل المتعلم. وكان من المفترض أن يتذكر شيئاً ما نسيه منذ وقت طويل، وأن يعيد اكتشاف خيط ذهبي مفرد من نسيج عنكبوت السنين المدفونة، ويمسك، بيديه، شيئاً ليس إلا صيحة طائر مندفعة، شيئاً كشعور مفرح أو حزين يعتري المرء وهو يصغي إلى الموسيقى، أكثر رقةً، وهرباً وأثيرية من فكرة،أكثر عبوراً من حلم ليلي، أكثر فقداناً للشكل من ضباب الفجر.

أحياناً، حين يقذف، يائساً، بحثه إلى الريح ويتخلى عنه بعد أن يصبح مزاجه مريعاً، سرعان ما يثيره على نحو مفاجئ شيءٌ ما كنسيم الهواء من حدائق بعيدة. كان يهمس باسم آيريس لنفسه، أكثر من عشر مرات، بنعومة ومرح، كما يختبر المرء نوتة على وتر مشدود. يهمس كلمة آيريس ويشعر بشيء يتحرك في داخله،بألم طفيف، كما في منزل قديم مهجور حين ينفتح باب أو ينغلق مصراع بعنف ودون سبب.فحص ذكريات اعتقد أنه رتبها بأناقة في داخله، وقام باكتشافات غريبة ومزعجة في أثناء العملية. إن كنز ذكرياته أصغر

مما تصور بكثير. هناك أعوام كثيرة مفقودة وفارغة، وحين حاول أن يتذكرها بدت كأنها صفحات فارغة. ووجد أنه يعاني من صعوبة كبيرة في تصور صورة واضحة لأمه. ولقد نسي بشكل كامل اسم فتاة طارده بحماسة في إحدى سنوات شبابه. تذكر كلباً اشتراه مرة بسبب دافع في أثناء أعوام الدراسة واحتفظ به لبعض الوقت. واستغرق بضعة أيام كي يستطيع تذكر اسم الكلب.

وبأسى وخوف متناميين، شاهد الرجل المسكين متألماً كم كانت حياته الماضية فارغة ومبددة. فهي لا تنتمي إليه، وإنما غريبة ومنفصلة، كشيء بعد أن يحفظه المرء غيباً لا يمكن تذكره إلا بصعوبة وفي شكل شظايا عارية. بدأ يكتب، رغب أن يكتب، عاماً بعد آخر،تجاربه الأكثر أهمية وذلك كي يتذكرها من جديد. لكن ماذا كانت تجاربه الأكثر أهمية؟ أنه أصبح بروفيسوراً؟ الحصول على شهادة الدكتوراه؟ أيام الدراسة الثانوية أو الجامعية؟ علاقات صداقة قصيرة وحب فتيات مختلفات في أوقات منسية؟ رفع بصره مرعوباً. هل كانت تلك حياة؟ ماذا كان كل ذلك؟ صفع جبينه ولم يستطع أن يوقف نفسه عن الضحك مكرهاً.

طار الزمن في غضون ذلك. ولم يطر مطلقاً بهذه السرعة والعناد! مر عام، وبدا له كأنه في الموقع نفسه الذي كان فيه حين غادر منزل آيريس. على أي حال، لقد تغير كثيراً في أثناء هذا الوقت، وكان هذا شيئاً رآه الجميع وعرفوه عداه هو. أصبح أكثر شيخوخة وشباباً في آن واحد. أصبح عملياً غريباً على معارفه، الذين ينظرون إليه الآن كشخص غريب،أصبح مزاجياً وشارد الذهن.

وحظي بسمعة شخص غريب الأطوار، وقال الناس إن هذا مخجـل، ولكنـه بقـي أعزب فترة طويلة.أحياناً كان ينسى مسؤولياته في الجامعة، وينتظره الطلاب بلا جدوى. أحياناً، وهو مستغرق في أفكاره، يتسكع في أحد الشوارع، ويسير قرب المنازل، نافضاً الغبار عن الأفاريز بمعطفه الممزق وهو يمر. اعتقد كثـيرون أنـه صار كحولياً. وأحياناً كان يتوقف في منتصف محاضرة أمـام الطـلاب ويحـاول أن يتذكر شيئاً. ثم تظهر على وجهه ابتسامة صبيانية رقيقة وغـير عاديـة بالنسبة إليه، ثم يتابع المحاضرة بنبرة دافئة ومؤثرة تثير قلوب كثير من تلامذته.

وبعد سنوات من البحث العقيم عن العطور والآثار المبعثرة لماضيه البعيد، طوّر آنسيلم حساسية جديدة هو نفسه لم يقدر أن يتعرف عليها. وبدا لـه، مـراراً وتكراراً، أن وراء ما دعاه سابقاً بالذكريـات كـان هنـاك المزيـد مـن الذكريـات، كحائط قديم مطلي تتراكم عليه طبقات عدة. أراد أن يتذكـر شيئاً كاسـم مدينـة أمضى فيها في إحدى المرات بضعـة أيـام، أو عيـد ميـلاد صديـق، أو أي شـيء آخر، ولقد حفر ونقّب في قطعة صغيرة من المـاضي كأنـها حطـام، وخطـر لـه شيء مختلف جداً في ومضة. أدهشه نسيمٌ كريح تهب في صباح أحد أيام نيسان أو كيوم ضبابي من أيام أيلول. شمَّ عطراً، تذوّق نكهة، وشعر بأحاسيس مظلمـة رقيقة في أماكن متفرقة من جلده، في عينيه، في قلبـه، وبـالتدريج توضحـت لـه: يجب أن يكون هناك يومٌ في أحد الأوقـات، أزرق ودافـئ، أو بـارد ورمـادي، أو يوم من نوع ما، ويجب أن يكون جوهـر هـذا اليـوم معتقـلاً في داخلـه وعالقـاً هناك كذكرى سوداء. ولم يقدر أن يحدد اليـوم الربيعـي أو الشـتوي الـذي شمـه

وشعر به في الماضي الحقيقي. ولم يستطع أن يسميه أو يؤرخه. ربما كان في أثناء أيام دراسته. ربما لا يزال في المهد، لكن العطر كان هناك، وشعر بشيء ما في داخله لم يتعرف عليه ولم يستطع أن يسميه أو يحدده. وبدا له أحياناً كأن هذه الذكريات انتقلت إلى حياة سابقة، إلى وجود سابق، رغم أنه ابتسم من الفكرة.

وعثر آنسيلم على أشياء كثيرة في أثناء جولاته الفاشلة عبر كهوف ذاكرته. عثر على أشياء كثيرة أثرت به واستحوذت عليه، وأشياء كثيرة أخافته وأقلقته، لكنه لم يعثر على الشيء الذي يدله على اسم آيريس.

في أحد الأوقات، وسط عذابه الناشئ من عدم قدرته على العثور على هدفه، عاد كي يزور مسقط رأسه، المدينة القديمة، فشاهد الغابات والشوارع، والممرات والسياج من جديد، ووقف في حديقة طفولته القديمة، وشعر بالموجة تندفع فوق قلبه .غلّفه الماضي كحلم. حزيناً وصامتاً، عاد إلى المدينة وأخبر الجميع أنه مريض ومنع عنه الزوار.

على أي حال، أصر زائر واحدٌ على رؤيته. كان صديقه، الذي لم يشاهده منذ أن طلب الزواج من آيريس. جاء الرجل وشاهد آنسيلم يجلس في وضع مهمل في شقته الكريهة.

قال له:" انهض وتعال معي. آيريس تريد أن تراك."

قفز آنسيلم واقفاً.

"آيريس، ما الذي حدث لها؟ آه، أعرف، أعرف!"

قال صديقه:" نعم، هيا معي. إنها تحتضر. كانت مريضة منذ فترة طويلة."

ذهبا لرؤية آيريس، التي كانت تستلقي على صوفا، خفيفة ونحيلة كطفلة، وابتسمت بغبطة بعينين متسعتين. مدت إلى آنسيلم يدها البيضاء الناعمة كيد طفل، واستلقت كزهرة في يده، وكان وجهها قد تغيّر مظهره.

قالت:" هل أنت غاضبٌ مني يا آنسيلم؟ لقد كلفتك بمهمة صعبة، ولقد رأيت أنك وفيت بتعهدك. تابع البحث والذهاب إلى أن تصل إلى هدفك! اعتقدت أنك تفعل هذا من أجلي، ولكنك في الحقيقة كنت تفعله من أجل نفسك. هل تعرف هذا؟"

أجاب آنسيلم:" اشتبهت بالأمر، والآن أعرف.إنه طريق طويل، يا آيريس، وكنت سأعود إلى الوراء منذ بعض الوقت، لكنني لم أعد أستطيع العثور على طريقي. ولا أدري ما الذي سيحدث لي."

حدقت في عينيه الحزينتين ومنحته ابتسامة طفيفة ومعزية. انحنى فوق يدها الرقيقة وبكى طويلاً، إلى أن تبللت يدها من دموعه.

قالت بصوت كأنه وميض ذكرى وحسب:"ما الذي سيحدث لك؟ يجب ألا تسأل ما الذي سيحدث لك. لقد بحثت كثيراً في حياتك. نشدت الشرف والسعادة والمعرفة، وبحثت عني، عن آيريس الصغيرة التي تحبها. جميع هذه الأشياء هي صور جميلة فحسب، وتتابع التلاشي. والآن ليس لدي المزيد من الصور. لم أعد أبحث. لقد عدت إلى الوطن وأمامي خطوة واحدة فحسب كي

أخطوها، وعندها سأكون في الوطن. أنت، كذلك، ستصل إلى هنا، يا آنسيلم، ولن يكون هناك أية تجاعيد على جبينك."

كانت شاحبة إلى درجة أن آنسيلم صاح يائساً:" آه، انتظري، يا آيريس! لا تذهبي الآن! امنحيني إشارة كي لا أفقدك بشكل كامل!"

هزت رأسها ووصلت إلى كأس قرب سريرها ومنحته زهرة سوسن في تفتح كامل.

"خذ، خذ زهرتي، زهرة السوسن، ولا تنسني. ابحث عني، ابحث عن هذه الزهرة، وحينئذ ستأتي إلي."

غادر آنسيلم باكياً وهو يحمل الزهرة في يده. وحين أرسل صديقه نبأ وفاة آيريس، جاء مرة أخرى وساعد في تزيين تابوتها بالأزهار ودفنه في التراب.

ثم تحطمت حياته إلى أشلاء. وبدا من المستحيل بالنسبة إليه أن يتابع نسج خيطه. تخلى عن كل شيء، ترك منصبه الجامعي والمدينة واختفى. شوهد في أمكنة متفرقة. وفي إحدى المرات ظهر في مدينة ولادته واتكأ على سياج الحديقة القديمة، ولكن حين سأل عنه الناس وأرادوا أن يعتنوا به، اختفى في الهواء الرقيق.

استمر ولعه بالراية الزرقاء. وأينما شاهد تلك الأزهار تنمو، كان ينحني فوق واحدة، وحين يحدق في كأسها، يبدو وكأن العطر والشعور السبقي للماضي كله والمستقبل يطير مرفرفاً نحوه من أعماقه الزرقاء. ولكنه كان يتابع طريقه حزيناً لأن التحقق لم يأت. بدا الأمر وكأنه يصغي إلى باب نصف

مفتوح، ويسمع السر الأكثر جمالاً يتنفس خلفه، وتماماً حين اعتقد أن كل شيء الآن سيُمنح له ويتحقق، انغلق الباب، وزحفت ريح العالم ببرودة فوق وحدته.

تحدثت إليه أمه في الأحلام، والآن، للمرة الأولى في سنوات، شعر بجسدها ووجهها بوضوح وقرب. وتحدثت إليه آيريس، وحين استيقظ، شيء ما واصل رنينه في أذنيه، وحاول أن يتذكره طول اليوم. لم يملك منزلاً مستمراً. فقد كان يسافر كالغريب في الأرض، ينام في المنازل والغابات، يأكل الخبز أو ثمار العليق، يحتسي النبيذ أو الندى عن أوراق الأشجار.

نسي كل شيء. اعتبره كثيرون معتوهاً، وظن كثيرون أنه ساحر. خافه كثيرون، وكثيرون ضحكوا عليه. وأحبه كثيرون. وتعلم أن يقوم بأشياء لم يكن قادراً على فعلها سابقاً- أن يعاشر الأطفال ويشاركهم في ألعابهم الغريبة، أن يتحدث مع غصن مكسور وحجر صغير. وكانت فصول الصيف والشتاء تعبر مسرعة. وكان ينظر في كؤوس الأزهار والجداول والبحيرات.

وأحياناً كان يقول لنفسه:" صور.إنها مجرد صور."

لكنه شعر بشيء جوهري في داخله لم يكن صورة، فتبعه. وأحياناً كان هذا الجوهر الذي في داخله يتحدث، وصوته هو صوت آيريس وصوت أمه، ولقد كان عزاء وأملاً. صادف معجزات لكنها لم تدهشه. وفي أحد فصول الشتاء سار على الثلوج عبر حقل، ولقد تجلّد رأسه. وفي الثلج شاهد ساق زهرة سوسن يقف متصلباً ورفيعاً. كانت تحمل زهرة جميلة معزولة، فانحنى فوقها مبتسماً، مدركاً الآن ما الذي كان السوسن يذكره به دوماً - تعرّف على حلم الطفولة من

جديد وشاهد الممر ذا اللون الأزرق الخفيف الـذي كـان مليئـاً بـالعروق البراقـة عبر الحرس الذهبي الذي يقود القلب السري للزهـرة، وعـرف أن كـل مـا كـان يبحث عنه كان هناك، أن هذا هو الجوهر ولم يعد صورة.

ومرة أخرى هاجمته الذكريات. دلّته الأحلام، فعثر على كـوخ فيـه أطفـال قدموا له الحليب، ورووا له قصصاً وهو يلعب معهم. قالوا له إن معجزة حدثـت في الغابة حيث يعمل حارقو الفحـم. لقـد شـاهد هـؤلاء الرجـال بوابـة الأرواح مفتوحة، البوابة التي تنفتح مرة واحدة فحسب كل ألف عام. أصغى وهـز رأسـه متخيلاً الصورة الجميلة وتابع طريقه. كان أمامه طـير يغـرّد في شـجيرات جـار الماء بصوت غريب، وعذب كصوت المرحومة آيريس. تبع الطـائر حـين طـار وقفز فوق الجدول متقدماً إلى عمق الغابة.

حين توقف الطائر عن التغريد ولم يعد يمكن سماع صوته، توقف آنسيلم ونظر حوله. كان يقف في واد عميق داخل الغابـة. وجـرت المياه بـهدوء تحـت أشجار خضراء عريضة. بخلاف ذلك، كان كل شيء هادئاً ومليئاً بالتوقع. لكـن الطائر واصل التغريد في داخله بصوت محبوب يحثه على التقدم إلى أن توقـف أمام حائط حجري مغطـى بالطحـالب. كـان هنـاك وسـط الحـائط ثقـب صغـير وضيّق يقود إلى داخل الجبل، يجلس أمامه عجوز.حالما شاهد الرجـل آنسـيلم نهض وبدأ يصرخ:" عدا عدا هذه بوابـة الأرواح. لم يعـد مطلقـاً كـل مـن دخـل منها."

نظر آنسيلم إلى المدخل الصخري، وشاهد ممراً أزرق يضيع عميقاً في داخل الجبل، وأعمدة ذهبية تنتصب قريبة من بعضها على الجانبين. كان الممر ينحدر إلى الأسفل وكأنه ينحدر في كأس زهرة عملاقة.

كان الطائر يغرّد مبتهجاً داخل صدره، وسار آنسيلم قرب الحارس إلى الثغرة عبر الأعمدة الذهبية، إلى اللغز الأزرق لعوالم الداخل.كان يخترق قلب آيريس، وكان يعوم في الكأس الأزرق للراية الزرقاء التي كانت في حديقة أمه، وفيما كان يقترب بسرعة من الغسق الذهبي، جاءته المعرفة والذاكرة كلها في آن. لمس يده وكانت صغيرة وناعمة. ودوت أصوات الحب في الجوار مألوفة لأذنيه، وتوهجت الأعمدة الذهبية المتلألئة كما فعلت في الماضي البعيد، في أثناء ربيع طفولته.

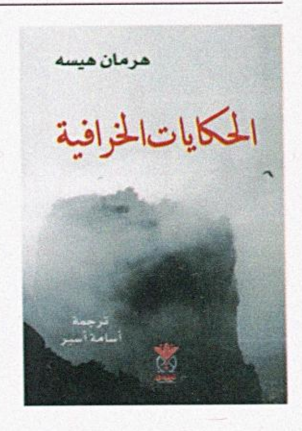
والحلم الذي حلم به حين كان طفلاً كان هناك كذلك، حلمه عن الدخول إلى الكأس، وخلفه عالم الصور كله جاء وانزلق وغاص في اللغز الذي يكمن وراء جميع الصور.

بدأ آنسيلم يغني بصوت ناعم، وانحدر طريقه بلطف نحو الوطن.



HERMAN HESSE

TOLES



إن قراءة حكايات هيرمان هيسه الخرافية هو كالدخول في عالم خرافي من الأحلام والرؤى، والفلسفة، والهيام، وهذه المجموعة. الحدث، تحوي اثنين وعشرين حكاية من أروع ما كتبه هيرمان هيسه في هذا النوع.

وهذه الحكايات المليئة بالحالمين والأميرات، والشعراء الجوالين، تتحدث مع مكان ما في ذاتنا، يلهمنا بتوق روحي عميق، ويدفعنا إلى مغادرة الوطن، وإلى العودة المحتمة، وهذا ينطوي على أكبر المتع وأكثر الجراح إيلاماً في قلوبنا.

تتناول هذه الحكايات الخرافية جميع الموضوعات الشائعة في روايات هيسه العظيمة. سد هارتا، ذئب البوادي، ودميان. وتعكس أحداثاً تتعلق بحياته الشخصية، وتنطوي على الدوافع الصوفية والرومانسية نفسها التي تغني التألق في أعماله الرئيسية.

وفي هذا الكتاب حكايات تسبر مأزق الفنان، الممزق بين الدافع إلى الكمال وإغراءات المتعة والنجاح الاجتماعي.

